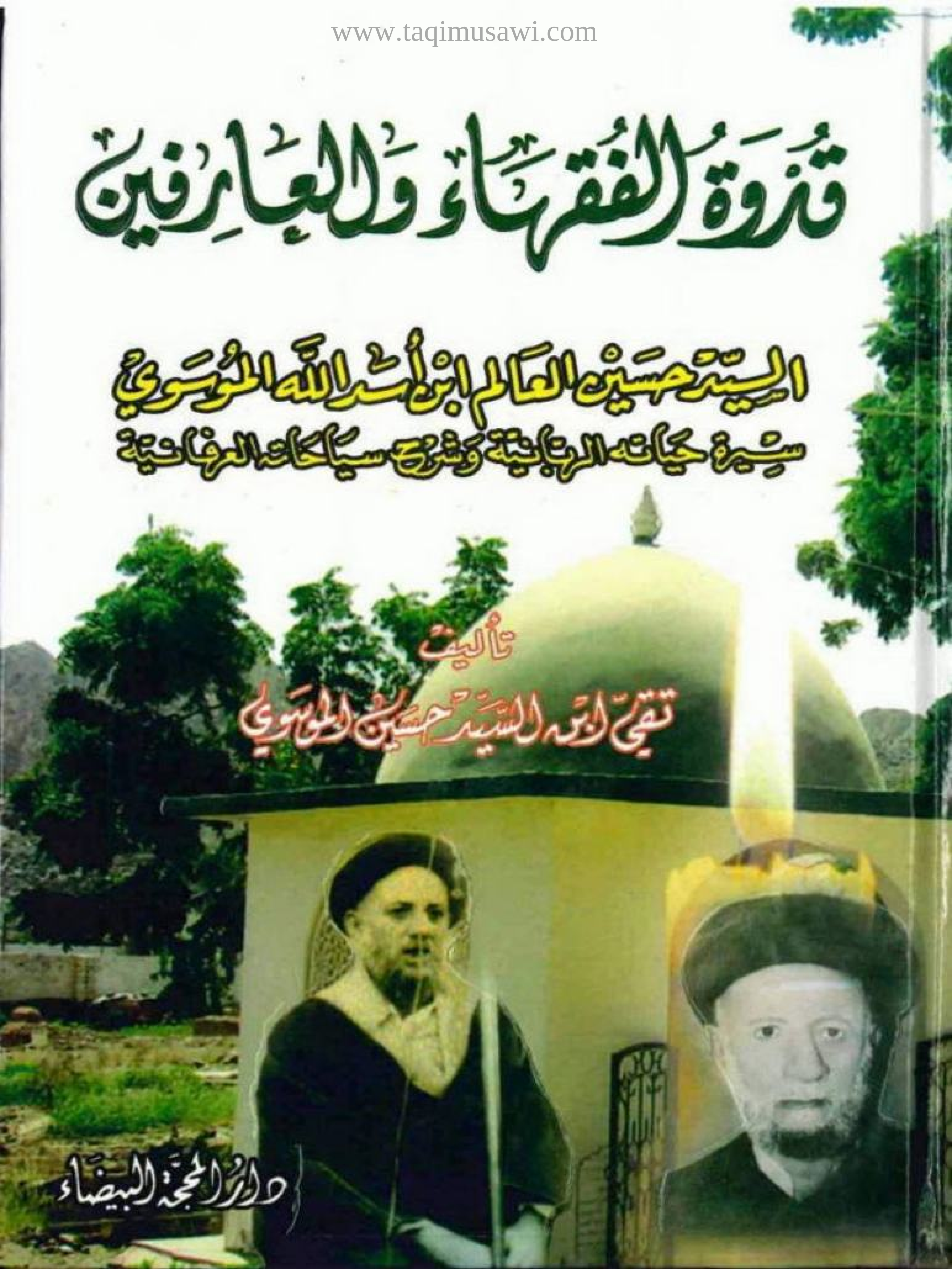

www.taqimusawi.com
قدوة الفقهاء والعارفين
السيد حسين العالم ابن أسد الله الموسوي
سيرة حياته الربانية وشرح سياحاته العرفانية
تأليف
تقي ابن السيد حسين الموسوي
دار المحجة البيضاء

قدوة الفقهاء والعارفين



قدوة الفقهاء والعارفين

السيد حسين العالم ابن أسد الله الموسوي

سيرة حياته الربانية وشرح سياحاته العرفانية

تأليف

تقي ابن السيد حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م



الرويس ـ مفرق محلات محفوظ ستورز ـ بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى روح عمي العلامة السيد حسن ابن السيد أسد الله الموسوي (المسقطي) الطيبة الطاهرة، التي أشبعتني أحاديث والدي العلامة عن كراماته المستفيضة. وها أنا ذا أنشد شيئا من لسان حال العلامة السيد حسن المسقطي: -

سلوا من أنا   من باقيات الصالحات
شعلة من شمعة   في فضاء الظلمات
زهرة من جنة   في حطام الباليات

فكان المثال الأسطوري لخروج علائقه القلبية من زينة الحياة الدنيا، وإقباله على ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ إقبال العاشق الولهان. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وكان هو الشعلة الباقية، من شمعة الوليمة الزاهية، لعباد الله الصالحين، والشهداء الموقنين، والأولياء المقربين، والصديقين المحققين، ومن شمعة موكب نورهم المقدسة، في ظلمات العهود الحالكة، وسواد الليالي المدلهمة. فكان من عباد الله الصالحين الذين وهبهم الله كمال الإنقطاع إليه، وكان من الشهداء الموقنين الذين أنار الله أبصار قلوبهم بضياء نظرها إليه، وكان من الأولياء المقربين الذين خرقت أبصار قلوبهم حجب النور، وكان من الصديقين المحققين الذين وصلوا إلى معدن العظمة، وصارت أرواحهم معلقة بعز قدسه. وكان هو الزهرة الفردوسية التي نبتت على تراب الحطام،

والياسمين الذي نبت محل الخرنوب، فما أطيب عرفه! والريحانة التي هفت على الربوع، فما أعذب مورده!!!

وكان والله كما قال الشاذلي قدس سره في صفات رجال الله المخلصين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]:

«رجال جبلهم (الله) على حسن عبوديته... وأمد أرواحهم بمعاني المعارف... وزكى نفوسهم فأحرزها وأخرجها من ظلمة الجهل... ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته... وتولاهم فأغناهم به عن غيره... وجعل منهم مفاتيح لقلوب الورى، وينابيع الحكمة الكبرى، يتلقونها شرعا، ويلقونها لأهلها سرا وجهرا، ومنهم من سترته الأقدار، وحجبته عن الأغيار، لينفرد بالتمكن في حقيقة الأسرار، تعرف كلا بسيماهم، باطنهم مع الحق وظاهرهم مع الخلق، فهم هم ولا هم هم في الوجود... صفوا وافترقوا في سيرهم سننا... وهم أهل الله وخاصته... حبب إليهم الخلوات، وفتح لهم سبيل المناجاة، فتعرف إليهم فعرفوه، وتحبب إليهم فأحبوه، وهداهم السبيل إليه فسلكوه، فهو بهم ولهم، لا يدعهم لغيره، ولا يحجبون عنه، بل هم محجوبون به عن غيره، لا يعرفون سواه، ولا يحبون إلا إياه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب».

التقدير والعرفان بالجميل

أنتهز هذه الفرصة لكي أشكر وأقدر مجهودات وتعاون الحاج موسى شعبان، الذي زودني بمعلومات كثيرة عن سيرة والدي العلامة السيد حسين العالم. وأشكر وأقدر أيضا مجهودات وتعاون الأخ حسن عبد الرضا والحاج موسى عبد اللطيف لتزويدي بمعلومات قيمة عن عمه المرحوم الحاج محمد، وجده المرحوم الحاج موسى عبد اللطيف، وعن أخي جده المرحوم الحاج باقر عبد اللطيف، وعن عائلة آل عبد اللطيف عموما. كما أقدر مجهودات وتعاون الإخوان الاعزاء محسن جمعة، ومرتضى محسن، وصادق جواد سليمان، ومصطفى مختار، وأخي باقر، والكثير من الإخوان الذين ربما نسيت تسميتهم، لتصحيحهم وتنقيحهم الكثير من المعلومات في هذا الكتاب.

كما أشكر وأقدر أيضا مجهودات وتعاون الحاج مهدي جواد في تزويدي بالصور القديمة لمدينة مطرح في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، ومنها صورة للبيت القديم الذي سكن فيه العلامة وعائلته من أواخر الثلاثينيات إلى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وكان يتكون من طابقين، وكان على واجهته شرفة من الطراز القديم، وكان على نفس الموقع الذي عليه الآن مكتبة المعرفة، على كورنيش مطرح. وأيضا أشكر وأقدر مجهوداته وتعاونه في تزويدي بصورة العلامة وهو يخطب بمناسبة مرور ١٤٠٠ سنة على ميلاد أمير المؤمنين وسيد الوصيين

الإمام علي عليه السلام. وبالمناسبة فإن الحاج مهدي جواد كان هاويا للتصوير في ذلك الزمان.

كما أشكر وأقدر مجهودات وتعاون الحاج علي باقر لتزويدي بالصور الثلاثة لمسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كالتالي: الف ـ البناء القديم الذي دام إلى أواسط السبعينيات من القرن العشرين. ب ـ البناء الذي بني في حوالى عام ١٩٧٤ للميلاد ودام إلى أواسط التسعينيات. ج ـ البناء الذي بني في حوالى عام ١٩٩٦ للميلاد وسمي مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولا زال قائما حتى اليوم.

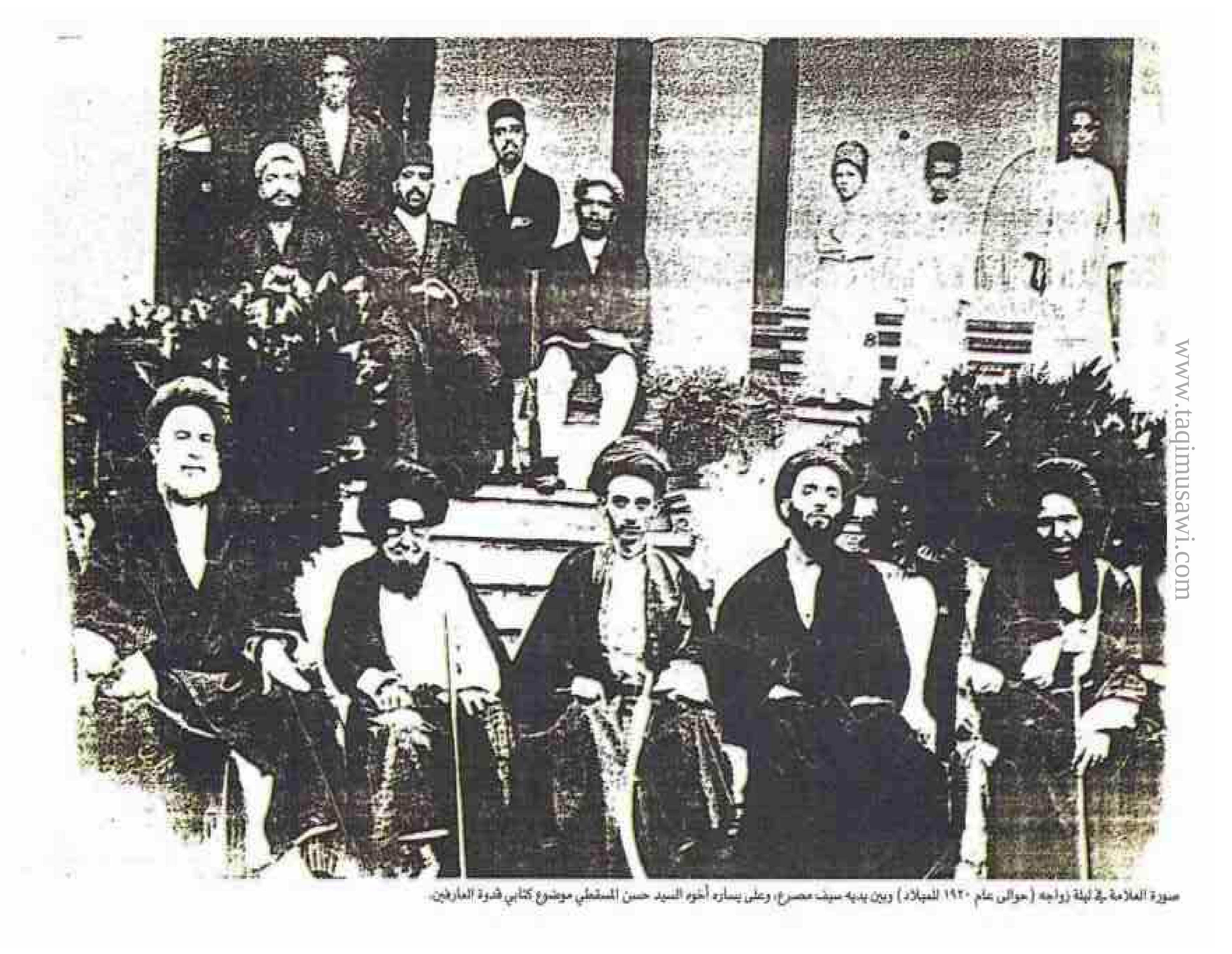
كما أرجو في هذا الموضع أن أرفع آيات العرفان بالجميل تجاه المرحوم الحاج محسن الحاج باقر عبد اللطيف لتطويره وتزيينه القبة البيضاء الناصعة الجميلة على قبر العلامة السيد حسين العالم الموسوي في موقعه في مقبرة اللواتية بجبروه، بالقرب من مطرح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين!!!



صورة العلامة وهو يخطب بمناسبة مرور ١٤٠٠ سنة على ميلاد أمير المؤمنين وسيد الوصيين الإمام علي عليه السلام



صورة العلامة الكبيرة الموجودة في المأتم



صورة العلامة في ليلة زواجه (حوالى عام ١٩٢٠ الميلاد) وبين يديه سيف مصرع، وعلى يساره أخوه السيد حسن المستفلي موضوع كتابي قدوة العارفين.

صورة قبر العلامة في مقبرة اللواتية في جبروه متوجاً بقبة بيضاء ناصعة

صورة المسجد القديم الذي كان قائماً إلى أواسط السبعينيات من القرن العشرين، والذي اعتدت في صغري وصباي أن أرى والدي العلامة السيد حسن العالم الموسوي يصلي بالناس فيه، ويخطب على المنابر في عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك، والمناسبات الدينية الأخرى.

صورة المسجد الذي بني في حوالي عام ١٩٧٤ للميلاد، على نفس الموقع القديم، ببعض التوسعات في المساحة، واستمر حتى عام ١٩٩٦ للميلاد.



صورة المسجد الحالي المسمى بمسجد الرسول الأعظم (ص) الذي بني في حوالي عام ١٩٩٦ للميلاد، على نفس الموقع القديم بتوسعات مساحية كبرى.

فقلت يا جبرئيل سلهما لمن هذا القصر فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم فلما مررت في السماء الثانية اذا انا بقصر من ذهب احمر
احسن من الاول على بابه ملكان فقلت يا جبرئيل سلهما لمن هذا القصر فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم فلما مررت الى السماء الثا
لثة اذا انا بقصر من ياقوت حمراء على بابه ملكان فقلت يا جبرئيل سلهما فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم فلما مررت الى السماء
الرابعة اذا انا بقصر من درة بيضاء على بابه ملكان فقلت يا جبرئيل سلهما فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم فلما مررت الى السماء
الخامسة فاذا انا بقصر من درة صفراء على بابه ملكان فقلت يا جبرئيل سلهما لمن هذا القصر فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم
فلما مررت الى السماء السادسة فاذا انا بقصر من لؤلؤة رطبة مجوفة على بابه ملكان فقلت يا جبرئيل سلهما فسألهما لمن هذا
القصر فقالا لفتى من بني هاشم فلما مررت الى السماء السابعة اذا انا بقصر من نور عرش الله تبارك وتعالى على بابه ملكان
فقلت يا جبرئيل سلهما لمن هذا القصر فسألهما فقالا لفتى من بني هاشم فسرنا فلم نزل ندفع من نور الى ظلمة ومن ظلمة الى نور حتى
وقفت على سدرة المنتهى فاذا جبرئيل ينصرف قلت فخليلي جبرئيل في مثل هذا المكان او في مثل هذه السدرة تخلفني وتمضي فقال جبرئيل والذي
بعثك بالحق نبيا ان هذا المسلك لا يسلكه نبي مرسل ولا ملك مقرب استودعك رب العزة فما زلت واقفا حتى قذفت في بحار النور
فلم تزل الامواج تقذفني من نور الى ظلمة ومن ظلمة الى نور حتى اوقفني ربي الموقف الذي احب ان يقفني فيه عنده من ملكوت الرحمن فقال عز وجل
يا احمد قف فوقفت منتفضا مرعوبا فنوديت من الملكوت يا احمد فالهمني ربي فقلت لبيك لبيك ربي وسعديك ها انا ذا عبدك بين يديك
فنوديت يا احمد العزيز يقرئك السلام قال فقلت هو السلام ومنه السلام واليه يعود السلام ثم نوديت ثانية يا احمد فقلت لبيك
وسعديك يا سيدي ومولاي قال يا احمد آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه فالهمني ربي فقلت
قد سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فقال الله عز وجل لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فقلت
ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا فقال الله عز وجل قد فعلت قلت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا
وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين فقال الله عز وجل قد فعلت [illegible] فلما قضيت وطري من مناجاة ربي نوديت

صورة عينة من خط يد العلامة.

صورة ساحل مطرح (من البحر) في الخمسينيات والستينيات.

صورة ساحل مطرح في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

صورة ساحل مطرح في السبعينيات في بداية بناء الكورنيش الجديد (صورت من أمام المسجد الكبير، المسمى حالياً بمسجد الرسول الأعظم (ص).



صورة ساحل مطرح (أثناء جزر البحر) في الخمسينيات والستينيات.

صورة ساحل مطرح وقلعة الجلالي في الخمسينيات والستينيات.



صورة ساحل مطرح في الخمسينيات والستينيات أمام البيت الذي سكن فيه العلامة هو وعائلته من أواخر الثلاثينيات إلى أوائل الخمسينيات. وهو أول بيت على يمين الصورة، مكون من طابقين، وفي واجهته شرفة من الطراز القديم. وفي نفس الموقع تقع مكتبة المعرفة حالياً.

المقدمة

لقد كان السيد حسين العالم الموسوي مصدر الإشعاع الديني، الذي طالما كان محط أنظار الموالين لأهل البيت، وقلوب شيعتهم في مطرح ومسقط ومنطقة الباطنة في سلطنة عمان، على مدى حوالى خمسين سنة من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٨٣ للميلاد. وكان الأب الروحي الذي طالما استحوذ على القلوب، وتربع على عرش الحياة الروحانية لقبيلة اللواتية، وقبائل الشيعة المنتشرة في الباطنة، حيث كرس حياته في خدمة الناس كي تستقيم معاملاتهم، وتصفى نفوسهم، وتستنير قلوبهم، وترتقي أرواحهم. فأحبته الأكثرية من المؤمنين اللواتية وغيرهم، وقدروه تقديرا عظيما، رغم استثقال القلة القليلة للدين ولقيود الشريعة المحمدية، ولمجافاة الشريعة للأهواء والميول البشرية، والبطر والاستكبار وطغيان النفس. ومثل هذه القلة القليلة موجودة في كل المجتمعات.

إنه الروح العالية التي ظلت تخفق في سماء هذه الأمة، ردحا من الزمان، خفوق النجم الزاهر في سمائه. إنه القاضي الذي قضى حياته في نصرة الحق ومعاداة الباطل في جميع القضايا التي اختصم الناس فيها إليه، واستجلى وجوه الحق والباطل بحنكته وحكمته. فأصدر أحكامه استجابة لضميره، من دون تحيز إلى أحد، ومن دون الخنوع إلى القوة وتهديدات بعض الناس، وذلك على ضوء هدي الشريعة المحمدية

وتعاليم القرآن المجيد. لقد سمج وجه الرذيلة في عينيه، حتى بات لا يأبه إلا لضميره، ولا يحتفل[1] بشأن غير الشريعة المحمدية الغراء. وإذا استطالت عليه بعض الألسن، ووترت عليه بعض النفوس، واجههم بالحكمة والموعظة الحسنة، فما حمل قط حقدا ولا وترا ولا نطق بهجر، بل قابلهم بابتسامة تنبثق من قلبه، وتلمع على ثغره، إن دلت على شيء فعلى شؤبوب متدفق من الحب للناس، وتمنيات الخير لهم في أولاهم وأخراهم. فيا غيث الرحمة أمطر على روحه قطراتك، وبل بها طيب ثراه!!!

وكان علما من أعلام الإسلام الشامخين، الذي مالت إليه النفوس، وقصدت إليه الفقراء والأغنياء، وشدت إليه الكبار والصغار والأقوياء والضعفاء رحالهم. وكان عالما بالله ومحيطا بالشريعة السمحة، ومتخلقا بمكارم الأخلاق. وهذه الصفات الربانية المتعالية أغدقت عليه لقب «العالم». فكان العالم الحق الذي استطاع بعلمه واستقامته أن يقوم العوج المنتشر هنا وهناك بين بعض الناس، وأن يفرض الكلمة الفصل للشريعة على الأهواء والميول الضعيفة. ولطالما استطالت عليه بعض الألسن السليطة المغترة بنفسها، ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فصمد في وجوههم بحلمه وسعة صدره. وكان باستقامته في دين الله، وتطبيق أحكامه، كالجبل الشامخ في مقابل مطامع بعض الناس، يرهبونه ويتراجعون من بين يديه.

ولقد غرس النبت الصالح في هذه التربة التي أحبها، وكان ينتمي إليها بكل وجوده، ولا زالت تأخذ منه الأغراس نماءها. ونبت الياسمين محل الخرنوب، فما أطيب عرفه! وهفت الرياحين على الربوع، فما أعذب مورده! فكأنما أراد الزمان أن يختلس من ظلام الدهر غرة،

(١) لا يحتفل بمعنى لا يبالي.

فكانت مشيئة الله ﷻ أن أشرق على أرض عمان كوكبه بسعده، وحمل إلى هذه الأرض الطيبة بين طياته نسمات الإحسان، وعذب ماء الجداول والغدران، والودق الذي ملأ الأنهر والخلجان.

ولم يكن السيد العالم موضع تقدير الشيعة فحسب، بل كان أيضا موضع احترام وتقدير حكومة صاحب الجلالة السلطان سعيد بن تيمور سلطان عمان (سلطان مسقط وعمان آنذاك) والمسؤولين في الحكومة، وموضع احترام المذاهب الإسلامية الأخرى التي تتعايش في وئام في هذا البلد الحبيب. هكذا كان السيد رضوان الله عليه موضع إجلال وإكرام في حياته، ولم يعوزه هذا الإجلال والتقدير حتى بعد وفاته، فلا زالت الخطباء على المنابر تذكره وتترحم على روحه العظيمة، ولا زالت صوره معلقة على المآتم الحسينية والمنازل المتعلقة بقبيلة اللواتية، والمآتم والمنازل في أرجاء العاصمة وباطنة كالخوض والبركاء والمصنعة والسويق وخابورا وصحم وصحار وشناص ولوى وباقي مناطق الباطنة. ولا زال قبره الشريف في مقبرة قبيلة اللواتية في مطرح متوجا بقبة بيضاء ناصعة[1]، ولا زال الجيل الذي عايشه يذكره بالخير في كل مناسبة. ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

تقي ابن السيد حسين العالم الموسوي
٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٠م
يوم الإسراء والمعراج

(١) ولا ننسى في هذه المناسبة أن نقدر جهود المرحوم الحاج محسن الحاج باقر عبد اللطيف في تطوير وتزيين القبة البيضاء الناصعة على قبره الشريف. نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء لهذا العمل الطيب الصالح، إنه مجيب الدعوات. ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.

الشجرة المباركة[1]

تتصل شجرته المباركة بالإمام موسى الكاظم عليه السلام كالآتي: ـ السيد حسين العالم ابن السيد أسد الله ابن السيد محمد باقر ابن السيد أسد الله ابن السيد محمد باقر (الشهير بحجة الإسلام) ابن السيد محمد نقي ابن السيد محمد زكي ابن السيد محمد تقي ابن السيد شاه قاسم ابن السيد الأمير أشرف ابن السيد شاه قاسم ابن السيد شاه هدايت ابن السيد الأمير هاشم ابن السلطان السيد علي القاضي ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد موسى ابن السيد جعفر ابن السيد إسماعيل ابن السيد أحمد ابن السيد محمد (نقيب طوس) ابن السيد أحمد (المعروف بالمجدور) ابن السيد محمد ابن السيد القاسم (الملقب بالأعرابي) ابن السيد أبي القاسم حمزة (الكوفة) ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط ابن الإمام علي زوج فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد رسول رب العالمين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) كتاب «طبقات أعلام الشيعة» (القسم الأول من الجزء الثاني) ـ الكرام البررة من القرن الثالث بعد العشرة ـ تأليف الشيخ محمد محسن آغا بزرك الطهراني، المؤلف الشهير لكتاب «الذريعة في وسائل الشيعة» ـ تعليقات فضيلة العلامة الحجة السيد عبد العزيز الطباطبائي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٤ هجرية ـ صفحات ١٩٢ ـ ١٩٦ (السيد محمد باقر المعروف بحجة الإسلام الاصفهاني ـ جد جد السيدين حسن المسقطي وحسين العالم) ـ وصفحات ١٢٤ ـ ١٢٦ (السيد أسد الله الاصفهاني).

ولادته ودراسته وأسفاره
وزواجه وأولاده

ولد العلامة السيد حسين (العالم) في العراق في مدينة كربلاء في حوالى عام ١٩٠٥ للميلاد، ودرس الفقه والعلوم العربية والمنطق والفلسفة وعلوم الأخلاق والحكمة في حوزة النجف الأشرف، التي كانت في ذروة حياتها ونشاطها في ذلك الوقت (فترة الإستقلال في العشرينيات من القرن العشرين). ثم سافر إلى قم المقدسة في ايران حيث واصل دراسته الفقهية لمدة ستة أعوام.

وكان يحب السفر للإحتكاك بالحضارات المختلفة وتوسيع آفاقه العلمية واطلاعاته العامة. فلقد سافر بالسفن الشراعية إلى شبه جزيرة الهند وشرق أفريقيا وزنجبار بالذات، والتي كانت تطول لأشهر، وكانت محدقة بالمخاطر، قد أوردت الكثيرين موارد الحتوف. ولطالما حدثنا السيد العالم عن الأيام الخوالي، والسفن الشراعية، وهدير الأمواج، ودمدمة الرعود، وزفيف الرياح، وقعقعة السوار والقلع، وأشرعة السفن. وعندما تخفت أصوات الرياح، ويسكن البحر، وتقلع السماء، ويغيض الماء غيضا، هنالك عند الصباح يحمد القوم السرى.

كان العلامة السيد الحسين العالم يغامر ليس للمغامرة وحدها، بل كان يفعل ذلك لأجل ملاقاة العلماء الفطاحل وصحبتهم، في شبه جزيرة

الهند وشرق أفريقيا، لاغتراف المزيد من الخبرة والعلم العملي، وأيضا لجذوره في تلك المدائن النائية ـ فلقد كان قبر أبيه في حيدر آباد دكن بالهند، وأيضا سيدفن أخوه السيد حسن المسقطي في نفس البلد. ويظهر أن هذه العائلة الكريمة كانت تعمل بكل وجودها لتحقيق الحكمة البالغة من السفر التي تفوه بها مولانا أمير المؤمنين علي ﷺ في شعر ينسب إليه: ـ

تغرب عن الأوطان في طلب العلى　　وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة　　وعلم وآداب وصحبة ماجد

وبسبب هذه الصحبة والعلاقات الإنسانية الوطيدة، فلقد تزوج في زنجبار من العلوية مرضية بنت السيد حسين الموسوي، بنت أحد العلماء الأفاضل هناك، فأنجبت له فاطمة، ثم صحبها معه إلى النجف الأشرف لتكملة دراسته، حيث ولد له عباس (وتوفي في طفولته) ومحسن. ثم رجع مرة ثانية إلى زنجبار، فأنجبت له زوجته العلوية مرضية بنتين وهما معصومة وخير النساء، وولدا وهو تقي (مؤلف هذا الكتاب). ثم استدعي من قبل أخيه الأكبر العلامة السيد حسن الموسوي (الملقب بالمسقطي) إلى مسقط، فأنجبت له العلوية هناك بنين وبنات وهم باقر وأحمد وبتول (توائم) وعلي وحسن (وتوفي في السنة الثانية من عمره) ثم حسن ومحمد. ولقد ولدت له رضية من زوجة ثانية تسمى صغرى، والتي تزوجها في عمان. وكلهم أحياء إلا خير النساء حيث فارقت الدنيا في أواخر عام ١٩٨٧، ومحسن حيث توفي في شهر مارس عام ٢٠٠٠م[(١)].

(١) وقد توفيت فاطمة أخيرا في شهر أغسطس من عام ٢٠٠٦م.

قدومه إلى مسقط

وكانت للسيد حسين العالم أخت تسمى زهراء، بقيت في العراق وتزوجت في النجف الأشرف من السيد جواد السيد صالح. ثم إن السيد جواد زار مسقط، لوحده من دون عائلته، أثناء الحرب العالمية الثانية، لزيارة السيد حسين العالم. ثم رحل إلى ممبي لزيارة السيد حسن المسقطي هناك. وعند عودته إلى العراق، أصبح عالما دينيا في الخالص (في محافظة بعقوبة) بالعراق، فانتقلت زوجته زهراء إلى الخالص، إلى أن توفتها المنية هناك في حوالى عام ١٩٥٣ للميلاد. ولها من الأولاد السيد مهدي والسيد رضا والسيد محمود (المقيم حاليا في عمان). وكان له أخ أكبر اسمه السيد حسن ـ والذي لقب بعد مجيئه إلى مسقط بالمسقطي ـ وشاءت الأقدار أن يسافر السيد حسن المسقطي من العراق إلى مسقط، في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وذلك بناء على طلب قبيلة اللواتية الشيعية من سكان مطرح.

وقصة خروج السيد حسن المسقطي من العراق، وقدومه إلى مسقط قد ذكرت بالتفصيل في كتاب «الروح المجرد» صفحة ١١٠ إلى ١١٣ لسماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني، وأيضا في كتاب «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٤٢ إلى ٢٤٤ والملحق صفحة ١١ من نفس الكتاب للعلامة محمد حسن القاضي (ابن العارف الرباني المعروف علي القاضي أستاذ السيد حسن)،

وأيضا في كتاب «قدوة العارفين ـ سيرة العارف الكبير سيد حسن المسقطي الموسوي وكراماته» صفحات ٢٠ إلى ٢٣ للمؤلف.

ويظهر أنه في خلال إقامته القصيرة في مسقط، بدأ يتململ ويضجر، لأنه لم يتلق الإجابة المطلوبة لتعاليمه العرفانية، كما كان يتلقى في النجف الأشرف. لذلك بدأ يفكر في دعوة أخيه الأصغر العلامة السيد حسين للقدوم إلى مسقط كي يحل محله، وبالتالي يهاجر هو إلى شبه جزيرة الهند، حيث كانت الدعوات تتوالى عليه للقدوم إلى هناك. وأشهر دعوة تلقاها كان من الأمير نظام آباد، أمير حيدر آباد دكن، وصاحب المكتبة المعروفة، حيث أجاب دعوته بعد إلحاح وإلحاف كثيرين ـ راجع صفحة ٢٤٣ من كتاب «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف».

وأما بالنسبة لقدوم السيد حسين العالم إلى مسقط فقد روى لي أحد الأصدقاء الموثقين، أنه قبل مجيئه إلى مسقط، ذهب إلى أحد العلماء، وطلب منه استخارة الله جل جلاله عن طريق المصحف المجيد، بالنسبة لرواحه إلى عمان في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي. فالتمسه العالم أن يأتيه وقت الفجر.

ولما كان اليوم الثاني ذهب إليه وقت الفجر، فرمق العالم بطرفه إلى السماء، والمصحف الشريف بين يديه، وأنشأ يتمتم بدعاء خالص إلى الله. يقول السيد حسين العالم: فما كان إلا هنيهة، حتى رأيت نجما قد هوى من السماء، وأشرق على جبين العالم نورا وضياء، فتعجبت من ذلك وسألته عن هذا النور الذي يتلألأ على جبينه.

فقال له العالم: اذهب حيث نويت، فالقبيلة التي تذهب إليها موالية لأهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ولكن بعضهم استناموا إلى المنزلة الدنيا، وأخلدوا إلى الأرض واطمأنوا إليها. والمطلوب منك أن تصبر عليهم وتتحملهم، ولا تضيق بهم ذرعا، حتى

ترفعهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإذا رأيت البعض قد استحجرت أفئدتهم، وتهافتوا على الدنيا تهافت الذباب على العسل، واغترفوا بأكف الأهواء والأطماع متاع الغصب والحرام، فاذهب منها في أودية غير أوديتهم، وأفهمهم قلة جدوى الدنيا وسوء مغبتها، وأين يكون لهم الغنم وعليهم الغرم، وأن لا ينقادوا كالذباب إلى زبرج العسل وحلاوته، فيكون فيه هلاكهم.

وعظهم أن الآخرة خير لهم وأبقى، وأن الآخرة لهي الحيوان، وهي أحسن عليهم عائدة من الدنيا. وليمسكوا الإدلال بعز المال وجاه الدنيا، فإن أجلها قصير وخطرها كبير. ثم هش عليهم بعصا الشريعة الغراء، حتى تقوم من أخلاق البعض معوجها، وازجرهم حتى يزدجروا، ولا تستشعر في سبيل الله خورا ولا فتورا، ولا تنهج في أمورهم إلا بنهج الشريعة المحمدية الغراء، وإن لم تستسغها نفوس بعضهم وأهواؤهم، وتقززت من مرارتها أطماعهم، واستثقلتها غطرستهم وكبرياؤهم. وإن شاء الله سيكون خيرا، وتوكل على الله واذهب إليهم.

فلقد كشفت هذه الاستخارة له المستقبل، فأسلم إلى الله أمره ووكل إليه قياده وعنانه، وعزم وتوكل وذهب إلى هناك كي يخدم الشريعة الإسلامية الغراء أحسن خدمة، على مدى حوالى خمسين سنة من عمره الشريف. وكانت القبيلة التي شاء الله أن ينزل بينهم ضيفا، ويخدمهم كل هذه الأعوام الطوال، هم قبيلة طيبة من شيعة أهل البيت عليهم السلام.... ألا وهم قبيلة اللواتية.

ونزل السيد حسين أرض عمان نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة، وضمت هذه الأرض الطيبة جانحتيها عليه، كما تضم على القلب حنايا الضلوع. ولم تكن عمان بالطبع صحراء محرقة، ولكن تلقت هذه الديمة الوطفاء بشوقها وطيبها واستعداداتها الذاتية، كما تتلقى الصحراء المحرقة الديمة الوطفاء.

من هم قبيلة اللواتية

يذكر الأستاذ جواد الخابوري في كتابه «الأدوار العمانية في القارة الهندية» أن اللواتية عرب عمانيون من ولد سامة بن لؤي، وأنهم رهط من ولد لؤي بن الحارث بن سامة بن لؤي القرشي، خرجوا فيمن خرج من عمان إلى الهند غزاة في الجيش الإسلامي سنة ١٥ للهجرة، وكانوا يعرفون ببني لؤي بالسند يوم كانوا فيها، وكان ذلك قبل عودتهم إلى وطنهم عمان، بعد مدة طويلة قضوها بالسند والملتان، حكاما وتجارا وأصحاب حرف.

وحيث إن الأستاذ جواد الخابوري قضى معظم حياته في الهند وباكستان محققا في مكتباتها المعروفة، فهو يشير إلى وثيقة حررها، في سنة ١٨٩٩ للميلاد، الشيخ صادق علي شير علي الأنصاري ـ نائب وكيل جابي السند ـ بأمر المندوب البريطاني بالسند المستر روبرت جايلز، عن قبائل السند وبلوشستان ومنطقة الحدود وأفغانستان. يذكر فيما يذكر: «إن أكثرية سكان السند من المسلمين يدعون أنهم عرب من سلالات عربية»، وعند ذكره لسلالات قريش في السند، يذكر بني لؤي في وثيقته. يقول العلامة السيد ظفر الندوي في كتابه تاريخ السند: «إن مسلمي السند ثلاث طوائف: سنديون خلص أسلموا، وعرب أمهاتهم سنديات، وعرب خلص». ويقول الحكيم فرحي السجستاني: «قد تأكد عندنا أن إسماعيليي السند عرب أمهاتهم سنديات، وأما إسماعيليو الملتان فعرب خلص، وكلام هؤلاء العرب العربية والسندية».

ويذكر الأستاذ جواد أن بني لؤي بالسند هم اللواتية بعينهم بعمان، استبدلت (بني) بياء النسبة فقيل لهم (اللوائية)، ثم أبدلت الهمزة بالتاء تخفيفا في النطق، فقيل لهم (اللواتية). وأنهم عرب عمانيون أصالة، خرجوا من عمان فيمن خرج من العمانيين غزاة في جيش عماني، أقطعه عثمان بن أبي العاص الثقفي في عهد الخليفة الثاني سنة ١٥ للهجرة (٦٣٦ ميلادي).

يقول مؤرخو الفتوحات الإسلامية إن الخليفة عمر بن الخطاب ولى عثمان بن أبي العاص الثقفي إمارة البحرين وعمان عام ١٥ للهجرة المعادل ٦٣٦ للميلاد، فبعث عثمان أخاه المغيرة إلى البحرين، وأمره أن يغزو منها الديبل (تبعد عن كراتشي حوالى ٥٦ كيلومترا وكانت أعظم ميناء بالسند آنذاك). وأمر أخاه الحكم أن يغزو فارس. وأما هو فمضى إلى عمان وتولى أمرها، وبعد أيام جمع السفن والجيوش، وغزا تهانة (من مناطق ممبي الآن)، وبروص (ميناء كجرات بالهند)، وعاد بالغنائم إلى عمان. وكان رجال الجيش في هذه الغزوات من عبد القيس والأزد وبني سامة بن لؤي وبني تميم وثقيف من البحرين وعمان.

ثم في سنة ٩٣ للهجرة خرج بنو سامة مع غيرهم من العمانيين مددا لجيش محمد بن القاسم الثقفي الذي غزا السند من ناحية مكران. قال علي بن حامد الكوفي: «داود بن نصر بن الوليد العماني قدم السند مع محمد بن القاسم الثقفي فقاتل وفتح ثم استعمله محمد بن القاسم على الملتان».

ثم في سنة ٣١٧ للهجرة هرب بنو سامة بن لؤي من عمان إلى السند، على أثر تغلب القرامطة على حكمهم بعمان، ولحقوا ببني أبيهم من بني سامة بن لؤي حكام الملتان. ونقل عن ابن رستة في كتابه: الأعلاق النفيسة: «يقيم في الملتان قوم يدعون أنهم من ولد سامة بن لؤي، يقال لهم بنو المنبه، وهم الملوك على الهند، وهم يدعون لأمير المؤمنين العباسي».

لماذا كانوا يسمون حيدرآباديين

ولا يفوتني هذا القسم من حديث الأستاذ الخابوري مع الحاج حبيب بن حميد الخابوري (وهو أشهر من نار على علم). يقول الحاج الحبيب: -

«قلت لك سلفا إننا عرب فزارية من سوريا، واللواتية عرب لوائية من ولد سامة بن لؤي من الخليج، جمعتنا الملتان أكثر من مائة عام، ثم انتشرنا في بلدان شبه القارة الهندية، وكنا حيث ألقينا الرحال في الهند، جماعة واحدة على المذهب الإسماعيلي. وكنا نتكلم العربية والسندية منذ كنا في الملتان، أما لقب اللواتية فشملنا جميعنا، لأن الملتان كانت قبل أن يدخلها الفاطميون ملكا لبني سامة، وبقي الملك فيهم حتى في عهد الفاطميين. فقد اعتنق بنو سامة بن لؤي، حكام الملتان، المذهب الإسماعيلي، قبل دخول الجيش الفاطمي في الملتان. والحقيقة أن حكام الملتان من بني سامة هم أنفسهم طلبوا من المعز لدين الله الفاطمي أن يبعث داعيته إلى الهند، فبعث المعز لدين الله ابن شيبان، الداعية الإسماعيلي، إلى الملتان، ومن ثم كانت أكثرية من بالملتان من الإسماعيلية، وهم من بني لؤي، فعمت كلمة اللواتية كافة الإسماعيليين، بما فيهم نحن وغيرنا، ممن لم يكونوا من بني لؤي أو اللواتية.

وأما لقب الحيدرابادية فشملنا كلنا أيضا، وهو لقب حديث، لأن سورنا بمطرح يسمى من البداية (سور اللواتية) لا سور الحيدرابادية،

والذي يقال عن هذا اللقب هو أن اللواتية الذين عادوا إلى عمان من حيدرآباد كانوا أثرياء وأهل جاه، فصارت لهم الزعامة على كل اللواتية بالتبعية».

وأيضا أن الحيدرآباديين هم رهط من أرهاط اللواتية، وكانوا يعرفون في السند ببني لؤي، ويعرفون في عمان بالحيدراباديين، لأنهم عادوا إلى عمان من مدينة حيدرآباد عاصمة السند الشهيرة.

ولكن مدينة حيدرآباد نفسها ظهرت إلى الوجود في عام ١١٨٢ للهجرة ما يعادل ١٧٦٩ للميلاد، كما اتفق على ذلك مؤرخو شبه القارة الهندية. وقد بناها حاكم السند الأمير غلام محمد شاه كلهورا على أنقاض مدينة « نيرون كوت » في سنة ١١٨٢ للهجرة، واتخذها مقرا لحكمه وعاصمة لمملكة السند. ونظرا لذلك لا يحتمل أن يكون اللواتية الحيدراباديون قد عادوا إلى عمان قبل سنة ١١٨٢ للهجرة (١٧٦٩ للميلاد) ـ عهد الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي ـ لعدم وجود مدينة بهذا الاسم قبل هذا التاريخ. أما وجود اللواتية في عمان فهو وجود أصيل في حركة هجرات وهجرات مضادة، فهم قد عاشوا أكثر من قرنين في الملتان والسند، بعد خروجهم من عمان في أوائل وأواسط القرن الأول، ثم في أوائل القرن الرابع الهجري. وكانوا في مجتمع هندي قبل أن يعودوا إلى عمان وطنهم الأم في أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، بعد تغلب السلطان محمود الغزني على حكومات العرب في السند.

لماذا كانوا يسمون خوجة

يقول الأستاذ الخابوري بأن كلمة خواجة ـ حسب أنطون إلياس أنطون صاحب القاموس العصري ـ عربية صحيحة معناها سيد. وتطلق على صاحب كيس التاجر (أمين الصندوق)، وعلى المعلم، وعلى أمين حسابات السفينة. وتستعمل هذه الكلمة كلقب في اللغات الإسلامية، كالفارسية والأردية، لجماعات التجار وأصحاب الرتب السامية من العلماء والوزراء والرؤساء.

ولعل أول من استعملها لجماعة التجار الأثرياء والنبلاء وذوي الجاه من غير الهنديين، السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي في أوائل القرن الخامس الهجري، بعد تغلبه على حكومات العرب بالسند. ثم شمل لقب الخوجة أفراد جماعة من الهندوكيين الذين تشرفوا بدخولهم في دين الإسلام الحنيف، وذلك تمييزا لهم عن أولئك الهنديين الذين خرجوا من الدين الهندوكي، ودخلوا في المذهب النانكي، أو مذهب السيخ المعروف. علما بأن مذهب نانك محاولة إيجابية للتسوية بين الهندوس والمسلمين، أو جمع لخصائص الطريقتين، كفا للنزاع والشغب المذهبي بين المسلمين والهندوس.

وفي رده على أحد المستشرقين وهو كالفن ألن (الابن) الذي كتب ما كتب عن الخوجة اللواتية، من دون تحقيق موضوعي، بأن هذا المستشرق قد جهل بأن كلمة الخوجة عربية إسلامية، كان ولا يزال

يلقب بها المئات من أسر العرب والإيرانيين والأتراك والسودان وأهل العراق ومصر والمغرب العربي. وأهل غزنة يحملون لقب الخوجة منذ أوائل القرن الخامس الهجري، بينما الذين تشرفوا من الهندوكيين بلقب الخوجة بعد دخولهم في الإسلام، حدث في القرن الثامن الهجري في الهند. ولم يكن بين هؤلاء المهتدين الجدد من الخوجة من كان يعرف من قبل، أو عرفوا فيما بعد، باسم اللواتية. وليس في غير الخوجة العمانيين في العالم، من يعرف باسم اللواتية، لأنهم عرب من عمان من ولد سامة بن لؤي القرشي.

حكومة بني سامة بن لؤي على عمان

يقول الاستاذ الخابوري: قال ابن زريق: ولم تزل الفتن (بين الحميرية والمضرية) من أهل عمان تراكم وتزيد فيهم، وصار أمر الإمامة بينهم لعبا ولهوا وبغيا وهوى، ولم يقتفوا كتاب الله وآثار السلف الصالح من آبائهم وأجدادهم، حتى أنهم عقدوا في عام واحد ست عشرة بيعة ولم يفوا بواحدة، حتى بلغ الكتاب أجله. فخرج محمد بن القاسم وبشر بن المنذر من بني سامة بن لؤي بن غالب، وقصدا البحرين. وكان بها يومئذ محمد بن نور عاملا للمعتضد العباسي (٢٧٩ إلى ٢٨٩ للهجرة). ولما قدما عليه شكيا له ما أصابهما من الفرقة الحميرية، وسألاه الخروج معهما إلى عمان، وأطمعاه في أشياء كثيرة. فأجابهما على ذلك، وأشار عليهما أن يذهبا إلى الخليفة في بغداد. فسار محمد بن القاسم إلى بغداد، وقعد بشر بن المنذر مع محمد بن نور (بالبحرين). ولما قدم محمد بن القاسم على الخليفة المعتضد، ذكر له الأمر، فاستخرج له (المعتضد) على محمد بن نور عهدا على عمان... أخذ محمد بن نور في جمع العساكر من سائر القبائل وخاصة النزارية.

فلما اتصل (خبر ذلك) بعمان، اضطربت (عمان)، ووقع الخلاف بين أهلها والعصبية، وتفرقت آراؤهم وتشتتت قلوبهم، فمنهم من خرج من عمان بأهله وماله، ومنهم من سلم نفسه للهوان لقلة الحيلة. فخرج سليمان بن عبد الملك السليمي ومن اتبعه إلى هرمز، وخرج أصحاب

صحار إلى شيراز والبصرة بأهلهم وأموالهم، وقدم محمد بن نور واستولى على كافة عمان.

ويقول الأستاذ الخابوري: أجل فتح محمد بن القاسم السامي بلاد عمان بمساعدة المعتضد العباسي، وتولى حكم عمان من قبل هذا الخليفة، وخطب بعمان لبني العباس، ونجح في جعل الحكم وراثيا في أبنائه من بعده. ولكن الخلاف الذي نجم بين أفراد الأسرة على العرش سنة ٣٠٥ للهجرة فت في عضد دولتهم، وأصاب إمارتهم بالضعف والانحلال، الأمر الذي أدى بهم في النهاية إلى التحارب فيما بينهم، فلحق بعضهم بالقرامطة في بلاد البحرين...

ويواصل الأستاذ الخابوري: وبدخول عمان في حوزة دولة القرامطة بالبحرين، أصبح الخليج العربي إسماعيليا بحتا. يبدو أن الذين لحقوا بقرامطة البحرين من بني سامة بن لؤي سنة ٣٠٥ للهجرة اعتنقوا هناك المذهب الإسماعيلي، وشجعوا أبا طاهر الجنابي على غزو عمان، ومناصرة دعاة المذهب الإسماعيلي، والدعوة الفاطمية التي كانت تعمل بعمان واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. واستطاع قرامطة البحرين بسط سلطانهم على اليمامة في أوائل القرن الرابع الهجري، كما وأنهم تغلبوا على عمان سنة ٣١٧ للهجرة.

يقول المؤرخون إن أنصار الخلافة العباسية من بني سامة بن لؤي بعمان هربوا إلى السند توا أثر حملة القرامطة على ملكهم بعمان، ولحقوا ببني أبيهم من بني سامة بن لؤي حكام الملتان بالهند.

مكانة قبيلة اللواتية
في المجتمع العماني

نظرا لعراقتهم ومكانتهم التاريخية في الحكومة على عمان، وعلى الملتان في الهند، وأيضا لعراقتهم في التجارة بين الهند وعمان لسنوات طويلة، فلا غرابة في أنهم حظوا بالتقدير والمكانة الرفيعة لدى الحكام في عمان. فلقد ذكر ابن زريق في كتاب الفتح المبين: «فإذا وصل الإمام أحمد بن سعيد إلى المطرح، مكث في بيت الدكة، فيأتيه أول من يأتيه من أعيان الرعية من أهل المطرح، بنو حسن، ثم تتبعهم اللواتيا، ثم تتبعهم بنو زراف، فإذا سلمت عليه رعية المطرح قاطبة، مضى إلى مسقط على الماشوات، والرايات منشورة عليه».

وفي زمن غير بعيد (أوائل القرن العشرين) ،كان محمد فاضل رجلا مرموقا في الحكومة، وكان إلى جانب تجارته يعمل قنصلا أمريكيا بالوكالة أيضا. فلقد ذكر محمد علي خان في كتابه: «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر» في صفحة ٦٥ بأن محمد فاضل من الحيدراباديين، وهو نائب رئيس إدارة شركة دبليو. ج. تاول، ويعمل قنصلا أمريكيا بالوكالة في غياب القنصل الأمريكي.

وحدثني أحد الإخوان الموثوقين أنه، في منتصف القرن العشرين، وفي خلال أزمة منطقة البريمي، بادر الحاج باقر عبد اللطيف (وهو شيخ

قبيلة اللواتية آنذاك) ممن بادروا إلى الاستجابة لنداء صاحب الجلالة سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان (سلطنة عمان حاليا)، ولبى ممن لبوا نداء الوطن العزيز، ووضع جميع مخازنه في اختيار الوطن، إلى أن تحقق النصر لعمان. وكنت في الكويت شابا يافعا عندما سمعت هيئة الإذاعة البريطانية تعلن نبأ وفاة الحاج باقر عبد اللطيف في عام ١٩٥٣ للميلاد، ونبأ إعلان الحداد العام في جميع السلطنة لمدة ثلاثة أيام. ونسرد فيما يلي موجزا من تاريخ المشيخة في قبيلة اللواتية من أوائل القرن العشرين إلى يومنا هذا.

الحاج باقر عبد اللطيف
شيخا لقبيلة اللواتية

وحدثني بعض الاخوان الموثوقين بأن التعزية كانت تخرج من سور اللواتية إلى مأتم العجم في جبروه، في أيام التاسوعاء والعاشوراء، وكانت دائما تحدث في حارق شمال (قرب سوق السمك الفعلي) مواجهات، يسقط على إثرها الجرحى وأحيانا القتلى.

وأصدرت السلطات أوامر بوقف هذه التعزيات وحصرها في سور اللواتية تحاشيا لأي مصادمات. ولكن القبيلة انقسمت على نفسها، وأصر عدد كثير منهم على مواصلة التعزيات خارج السور.

وكان شيخ قبيلة اللواتية آنذاك رجلا حذرا جدا يتحاشى المشاكل. وتحاشيا للفتنة فقد لجأ بعض الكبار إلى الحاج باقر لإيجاد حل للمشكلة. فتحدث الحاج باقر مع مستشاره الحاج جعفر حسن وكان حكيما ومثقفا. فأشار عليه بأن يطلب من المسؤول المختص في الحكومة موعدا للاجتماع به، وإذا سأله المسؤول عن غرض هذا الاجتماع، يقول له الحاج باقر بأنه لا يمكن الحديث بالهاتف عن هذا الموضوع. ففعل الحاج باقر ما أشار عليه الحاج جعفر حسن، فأعطاه المسؤول الموعد.

فقال الحاج باقر لشيخ القبيلة آنذاك: هناك مناسبة في مسقط وأنت

مدعو لحضور الحفلة هناك بهذه المناسبة، ومن صالحك أن تحضر الحفلة، وبعد مناقشات أقنعه الحاج بذلك.

وفي اليوم التالي ذهبوا جميعا من مطرح إلى مسقط بالقارب (الهوري)، وعند وصولهم إلى مسقط، أخبر الحاج باقر صاحب (الهوري) سرا بأن يرجع إلى مطرح فورا، كي يقطع طريق العودة على شيخ القبيلة، إن هو أراد أن يعود عند اكتشافه الأمر. وبعد ذلك أخبره الحاج باقر حقيقة الأمر، فأراد شيخ القبيلة أن يرجع ولات حين مناص!!! فاتفقوا أن يفتتح هو الكلام عند المسؤول المختص، وبعد ذلك يواصل الحاج باقر المناقشات. فقال لقد أتينا بشأن أوامركم بعدم السماح للتعزيات بأن تخرج من سور اللواتية. فواصل الحاج باقر الكلام قائلا: نعم لقد وقعت الفتنة الآن، وإن كثيرا من أفراد الجماعة لا يوافقون على ذلك.

فقال المسؤول: لقد أصدرنا هذه الأوامر لحفظ الأمن وتحاشيا للمصادمات. فقال الحاج باقر: ضعوا الشرطة لحماية التعزيات، وإنني أضمن أن لا أحد من جماعتنا سوف يفعل ما يعكر الأمن، وإن حدث شيء ما ـ لا سمح الله ـ فخذوني شخصيا إلى السجن. فوافق المسؤول على الترتيبات الجديدة... ومن ذلك اليوم لم تحصل أي مصادمات، رغم مواصلة التعزيات من السور إلى مأتم العجم في جبروه، في أيام التاسوعاء والعاشوراء.

وبعد ذلك أصبح الحاج باقر عبد اللطيف شيخا لقبيلة اللواتية، وأصبحت القبيلة متحدة تحت زعامته الحكيمة والقوية والحازمة. وإذا ما صدرت أي مخالفة من أي فرد من أفراد القبيلة، واقتيد ذلك الفرد إلى السجن بسبب هذه المخالفة، فإن الحاج باقر كان يتدخل بطريقته الحكيمة لإطلاق سراح ذلك الفرد.

وفي يوم من الأيام حدث أن وصلت إلى جمرك مطرح أكياس (جونيات) الأرز لثري يدعى نصيب. وفي الوقت نفسه وصلت أكياس الأرز لأحد من أفراد القبيلة. فأخذ ذلك الرجل عشرة من الأكياس التي تخص نصيب. وعندما اكتشف نصيب ذلك، جاء إليه يطلب منه أن يرد عليه الأكياس التي أخذها. فلما أبى أن يرد عليه الأكياس، شكاه إلى الوالي، فأخذه الشرطي إلى السجن. وكان ذلك اللواتي دائما يشتم الحاج باقر، وكان الحاج باقر يتحمله بحلمه ورحابة صدره... إلى أن أتى ذلك اليوم الذي كان الشرطي يقوده إلى السجن، فطلب من الشرطي أن يمر به على مكتب الحاج باقر (الذي كان واقعا وراء القلعة في طريق لوادي خلفان). ففعل الشرطي ذلك. فنظر اللواتي حين مروره مع الشرطي إلى الحاج باقر مستعطفا بعيونه، والحاج لا يحرك ساكنا، إلى أن صعد القلعة ووصل إلى باب السجن. وفي خلال هذه المدة كان الحاج باقر قد أجرى اتصالاته، وإثر ذلك جرى إطلاق سراح ذلك اللواتي.

وفي اليوم التالي طلب الحاج باقر نصيب إلى مكتبه وقال له: لماذا اشتكيت على ذلك الرجل... فأنا الذي أخذت أكياس الأرز، لا ذلك الرجل المسكين. ولما نظر نصيب إلى الأكياس في مخازن الحاج باقر قال له: يا حاج إنها ليست أكياسي (جونياتي)، فالعلامات التجارية تختلف. فقال له: ولكن في داخلها الأرز، وهذا ما تطلبه، أليس كذلك؟ فامتنع نصيب، ولكن الحاج باقر أصر، وأخيرا رضي نصيب بذلك وأخذ الأكياس. وبعد ذلك شكره ذلك اللواتي وقال له: لماذا يا حاج تركتني أصعد جبل القلعة؟ فقال الحاج باقر في جوابه: حتى تتأدب قليلا ولا ترجع إلى مثل هذه المخالفات.

الحاج موسى عبد اللطيف
وابنه الحاج محمد
وخدماتهما الحضارية للمجتمع العماني

أخبرني أحد الاخوان الموثوقين بأنه، تجاوبا وتناسقا مع سياسة الدولة آنذاك، كان الحاج موسى عبد اللطيف أول من أدخل وسائل الحضارة الحديثة إلى عمان. ففي حوالى سنة ١٩٣٢ للميلاد أدخل ثلاث سيارات لأول مرة إلى عمان، أهدى الواحدة منها إلى صاحب الجلالة السلطان سعيد بن تيمور، والثانية استعملها لمكتبه، والثالثة خصصها لمنزله. وفي حوالى سنة ١٩٤٢ للميلاد أدخل الراديو لأول مرة إلى عمان - وأهدى راديو فيليبس إلى صاحب الجلالة السلطان سعيد بن تيمور، وثلاث راديوات أخرى قسمها بين نفسه والحاج باقر والحاج علي عبد اللطيف.

وبعدها مباشرة أدخل مولدا كهربائيا واحدا ليضيء به المنزل الذي كان يسكن فيه الإخوان الثلاثة الحاج موسى والحاج باقر والحاج علي، وكان هذا هو أول منزل في عمان دخلت فيه أضواء الكهرباء.

وفي الخمسينيات من القرن العشرين، أدخل ابنه الحاج محمد المراوح التي تعمل على الشعلة، وأيضا الثلاجات التي تعمل على الشعلة، وذلك لأول مرة في تاريخ عمان. وفي حوالى سنة ١٩٥٢،

وتشجيعا من ناحية الدولة، أدخل مولدات كهربائية للإستفادة منها في محطة الكهرباء في ريام، وذلك لتزويد مدينة مسقط بنور الكهرباء. وأعقبتها في حوالى سنة ١٩٥٦ ست مولدات كهربائية أخرى، للإستفادة منها في محطة الكهرباء في مكتب الوالي في مطرح، وذلك لتزويد مدينة مطرح بنور الكهرباء.

وأما عن خلفية هذه العائلة، فلقد أتى الحاج عبد اللطيف من رأس الخيمة مع خالته إلى مسقط، بعد ما قتل أخوه فاضل. علما بأن قبيلة اللواتية ليست محصورة في عمان فحسب، ولكنها منتشرة في الخليج أيضا. ثم تربى عبد اللطيف في بيت عبد العظيم، وعندما كبر تزوج منهم، وأنجب باقر وعلي وموسى وبنتين. وقد عرض القنصل البريطاني عليه جواز سفر بريطاني ولكنه رفض قائلا: إنني مسلم وعماني، علما بأن بعض التجار آنذاك كانوا يحملون الجواز البريطاني، وبعضهم كانوا يحملون صفة أشخاص يتمتعون بالحماية البريطانية.

بدأ الإخوان الثلاثة حياتهم كموظفين عند قربان، أخي خلفان (جد مجيد عبد الله خلفان). وكان قربان وخلفان يعيشان في مدينة النخل (قرب البركاء). وكان قربان رجلا ثريا، وكان يتاجر في البنادق، والتي كان يستوردها من شيكوسلوفاكيا. علما بأنه طبق العرف الذي كان سائدا في ذلك الزمان، فإن كل فرد عماني كان يمتلك عادة خنجرا وبندقية.

ثم استقل الإخوان باقر وعلي وموسى في تجارة البنادق في مشاركة تجارية، وكانوا يحبون بعضهم البعض. وكان لديهم بعد نظر، فارتأوا بأن يضيفوا تجارة جديدة إلى تجارتهم، وكانت تلك هي وكالة الشحن في البحار. فذهب الحاج موسى إلى بريطانيا للتفاوض، ولكنه لم ينجح لأنه كان للبريطانيين وكيل في الخليج وهي شركة كري مكنزي. فذهب إلى ألمانيا وتوفق في مهمته، إذ رجع بوكالة شحن عالمية من

إحدى الشركات الألمانية الكبرى. وكان الحاج موسى هو الذي يدير الشركة، أي ما يصطلح عليه اليوم بالرئيس التنفيذي للشركة.

كانت للحاج موسى علاقات مع الشركات الألمانية، فاستورد من هناك خبيرين لتحويل القاشا (وهي أسماك صغيرة يابسة) إلى بودرة، ومن ثم تصديرها إلى ألمانيا، حيث كان يستعمل كسماد للثروة النباتية. وأثناء الحرب العالمية الثانية أمرت السلطات بإخراج الخبيرين الألمانيين من عمان. فاتصل الحاج باقر مع صاحب الجلالة السلطان سعيد بن تيمور، وطلب منه أن يتفضل على الخبيرين بجوازات سفر عمانية، فوافق جلالة السلطان على ذلك، وصدرت لهما في اليوم نفسه الجوازات العمانية. وفي اليوم التالي اتصل المسؤول المختص طالبا الألمانيين، فقال له الحاج باقر: ليس عندنا ألمان.

توفي الحاج موسى في الدارسيت في سنة ١٩٤٥ للميلاد، وكنت آنذاك طفلا صغيرا وجارا لهم، ولا زلت أذكر إلى يومي هذا البكاء والعويل الذي هز كياني. وكان ذلك في أشهر الصيف، لأنه كان من عادتنا أن نقيظ في الدارسيت (وهو الممر بين الجبلين، القريب من مطرح، والذي كان غنيا بالزراعة والماء الزلال وهواء النسيم اللطيف). وبعد موته حل محله في التجارة الحاج باقر كرئيس تنفيذي للشركة.

وبعد وفاة الحاج باقر عبد اللطيف أصبح الحاج علي عبد اللطيف شيخا للقبيلة. وبعد وفاة الحاج علي انتقلت المشيخة إلى عائلة سلطان محمد فاضل. فقد صار الحاج عبد الرضا سلطان شيخا للقبيلة، ثم بعده أخوه الحاج قمر سلطان، ثم بعده أخوه الحاج علي سلطان. وبعد وفاة الأخير صار الحاج حسن ابن الحاج علي عبد اللطيف شيخا للقبيلة، ولكنه لم يبق طويلا واستقال، ثم أصبح الحاج عبد الحسين ملا باقر شيخا للقبيلة إلى يومنا هذا.

الحاج عبد الرضا سلطان
محمد فاضل شيخا لقبيلة اللواتية

لقد ذكرنا آنفا أن محمد فاضل (من قبيلة اللواتية) كان قنصلا أمريكيا بالوكالة في أوائل القرن العشرين. فلقد بقيت عائلته ذات نفوذ إلى يومنا هذا. فقد أصبح حفيده الحاج عبد الرضا شيخا للقبيلة، ثم خلفه أخوه الحاج قمر سلطان، ثم أخوه الحاج علي سلطان حيث توفي في عام ١٩٩٨ للميلاد ـ وكان قبله رئيسا لغرفة التجارة والصناعة العمانية. وفي حين حياته أصبح ابنه مقبول علي سلطان وزيرا إلى يومنا هذا.

وأنا أذكر الحاج سلطان محمد فاضل وابنه الحاج عبد الرضا سلطان جيدا حين كنت طفلا صغيرا، فلقد كانا رحمهما الله صديقين حميمين للعلامة السيد حسين العالم. وكان الحاج سلطان يتقيظ بمزرعته في العينت ـ وهذه القرية تقع على ساحل البحر بين مطرح والدارسيت ـ وكان يقع بين جبلين. وكان هناك حوض كبير للسباحة وبئر وثور ومنجور (وكان الثور يسحب الماء من البئر، والمنجور هو العجلة الكبيرة التي كان يلف حولها الحبل، ولكن صوت المنجور كان أجمل موسيقى سمعته في حياتي).

وكان هناك عدد قليل من الرجال يصاحبونه دائما في العينت في

أيام الصيف، وأما والدي العلامة فكان يذهب إليه ويبيت عنده عدة ليالي. وأتذكر وأنا طفل صغير بأني كنت أرافق العلامة في بعض الأحيان، صاعدا معه الجبل الواقع بين جبروه والعينت.

وكان الحاج سلطان صيدليا ومعروفا في مداواة الناس ومساعدتهم، وكانت صيدليته تقع في مطرح وراء السوق، وفي جنبها حنفية الماء التي كان بائعو الماء يملأون منها القربة (المشك) لحمل الماء إلى البيوت. وكانت له أساليبه الخاصة لمداواة الناس، وكان فكها وذا دعابة. فلقد أتاه يوما شخص وكان مبتلى بمرض الوسواس، وكان الحاج سلطان يعرف ذلك، وجاء مشتكيا بأنه كان يشرب الماء ودخلت قطعة من الزجاج في حلقومه، وبقيت هناك وهو يحس بها ـ ويظهر أنه بعد شرب الماء اكتشف أن حافة الكأس مكسورة قليلا. فلم يقل له الحاج سلطان أن هذا وسواس وما إلى ذلك. بل قال بعد ما عاينه: نعم إن الزجاج لا زال هناك، وسيعطيه الدواء الذي يخرج تلك القطعة. فأعطاه بعض الدواء، وكان يخفي قطعة من الزجاج في يده. ثم وضع يده في حلقومه وكأنه يخرج شيئا... وأخيرا قال له نعم لقد خرجت الزجاجة، وأراه ما كان يخفي في يده. فارتاح المريض وشفي فورا من وعكته.

وجاءه مريض آخر يشتكي وجع الأسنان، فقال له الحاج سلطان: ما عليك سأعالجك. فوضع طحينا مبتلا بالماء على سنه، فشفي المريض. وبعد ما شفي علم بالقصة، ولكن الوجع كان قد ذهب ولم يرجع.

وكان الحاج سلطان شاعرا، فلقد كتب ١٦ قصيدة من مرثيات واقعة كربلا، أو ما يسمونه (مرشا باللغة السندية)، لا زالت تقرأ حتى الآن في المآتم. وكان يقرؤها بنفسه، وهو الذي شجع الحاج موسى شعبان على قراءة (المرشا) وعلمه إياها. فبدأ الحاج موسى بالقراءة معه، ثم تدريجيا استقل عنه واستمر في القراءة إلى يومنا هذا.

أما الحاج عبد الرضا سلطان فلقد كان جارا لنا، وكانت زوجته المرحومة حباب كالأم الثانية لنا، وكان أولاده كمال وشوقي وإقبال يلعبون معنا في أيام الطفولة. وكان الحاج عبد الرضا ملازما لوالدي العلامة، فلقد كنت أراه دائما جالسا عنده في مجلسه في بيتنا يتبادلان أطراف الحديث. وإن أنس لا أنسى مساعدته لي عند رحيلي إلى الكويت في عام ١٩٥٣ للميلاد. فلقد كلمه المرحوم والدي، فأعطاني ٣٠٠ روبية، ثم إني عندما وصلت إلى ميناء الكويت استقبلني ميرزا ـ أخو حباب ـ ورافقني إلى بيتهم في الكويت. فعشت في بيتهم معززا مكرما إلى أن حصلت على العمل واشتد ساعدي. ثم بعد ذلك استأجرنا بيتا أنا وأصدقائي. وإنني أشعر أني لصغر سني كنت في أشد الحاجة لهذه الرعاية في الغربة. وطبعا بعد عودتي إلى مسقط ذهبت إليه وشكرته ورددت له ٣٠٠ روبية، وكان يأبى أن يأخذها مني، ولكن بعد إلحاح شديد وافق على ذلك.

الخلفية التاريخية لقدوم السيد حسين الموسوي العالم إلى مسقط

يذكر الأستاذ الخابوري أنه في سنة ١٢٦٥ للهجرة المعادل ١٨٥٧ للميلاد ثارت فتنة فيما بين إسماعيليي عمان بمطرح. وسبب هذه الفتنة أن السيدة خديجة جاكن الحاجية جمعت ذات يوم أدوات وأواني (لجماعة خانة)، التي كانت في ضمن بناية المسجد الكبير للإسماعيلية، الواقع على ساحل حوض مطرح (الكورنيش الآن)، ورمت بهذه الأواني والأدوات بالبحر، إعلانا منها أنها هي وكل من يرى رأيها لا يقولون بقدسية هذه الأدوات والأواني.

واستاء من هذا العمل الذي قامت به الحاجية بعض أفراد الجماعة ولاموها عليه، وبذلك انقدح زناد الفتنة فيما بين الجماعة واحتد النزاع، وأخيرا رفع الأمر إلى حسن علي شاه ـ آغا خان بإيران ـ فبادر آغا خان فورا بإرسال سفيره ـ آغا جعفر خان ـ من إيران إلى مسقط (مطرح)، لقمع الفتنة وتسوية الخلاف وإصلاح ذات البين. فجمع آغا جعفر الجماعة فور وصوله إلى مسقط (مطرح) بالمسجد الكبير، ووعظهم ونصحهم وحاول بكل ما في وسعه أن يحسم الخلاف ويخمد الفتنة. لكنه لم يفلح بل بالعكس تفاقم الأمر وتصادم الفريقان بالأسلحة، ومن ثم اضطرت السلطة المحلية أن تتدخل في الأمر لاستتباب الأمن في المدينة، وسجن وغرم من كلا الجانبين من اشترك في الفتنة المسلحة.

كان من نتيجة هذه الفتنة أن افترقت الجماعة إلى ثلاثة فرق: فرقة وهي الأكثرية تبرأت من المذهب الإسماعيلي، واعتنقت مذهب الإمامية الإثني عشرية، وأزالت (الجماعة خانة) وضمت بنايتها إلى المسجد. والفرقة الثانية وهي الأقل تسننت، والفرقة الثالثة بقيت على المذهب الإسماعيلي، وانفصلت عن كتلة الجماعة، ولكنها ظلت تساكن الجماعة في سور اللواتية، بيد أنهم لما رأوا أن (الجماعة خانة) زالت وألحقت بنايتها بالمسجد، بنوا (جماعة خانتهم) خارج السور، ومأتمهم بجبروه في حارة العجم.

والجدير بالذكر هنا أن الذين بقوا على المذهب الإسماعيلي، بولاء آغا خان حسن علي شاه، لم يكن أكثرهم من اللواتية أصالة، بل كانوا سنديين من سلالة «اسوبليدينا» من بلدة «جركا» بالسند، ولكن بموجبات المذهب الإسماعيلي المشترك، نشأت بينهم وبين اللواتية قرابات الأحماء والأصهار.

رغم ذلك كله كان الإسماعيلية يومئذ لا يختلفون عن الشيعة الإثني عشرية في عقائدهم الدينية وطقوسهم المذهبية، وكل ما كان هنالك أن الإسماعيلية أصبحوا الآن جماعة مستقلة على حدة، بفارق الولاء لآغا خان حسن علي شاه، دون أن يدعوا « آغا خانية»...

أجل ظل المذهب الإسماعيلي كذلك توأما للمذهب الإثني عشري حتى سنة ١٣١٩ للهجرة المعادل سنة ١٩٠١ للميلاد، حين أعلن آغا خان الثالث سلطان محمد شاه في بمبي، بأن أئمة الإسماعيليين وشيعتنا تسترنا بالتقية خلف المذهب الإثني عشري في دور إيران، بعد ما حطم هولاكو خان دولتنا في قلعة الموت منذ سنة ٦٥٠ للهجرة، وها أنا اليوم أخرج من التقية، وأصرح بأن المذهب الإسماعيلي مختلف عن المذهب الإثني عشري جذريا.

منذ تلك اللحظة انقطعت العلاقات ووهنت القرابات واختلفت العقائد بين الفرقتين، وأعاد سلطان محمد شاه ـ آغا خان ـ المذهب الإسماعيلي إلى سيرته الباطنية الأولى.

نعم منذ عام ١٩٠١ للميلاد، حينما أعاد الآغا خان الثالث الإسماعيلية إلى سيرتها الباطنية الأولى، تحولت مئات الآلاف من الإسماعيلية إلى مذهب الإمامية الإثني عشرية في شبه جزيرة الهند وشرق أفريقيا وغيرها من البلدان. أما في عمان فكان هذا التحول منذ عام ١٨٥٧ للميلاد كما ذكرنا آنفا. وبعد ذلك تضافرت جهودهم على التفقه أكثر فأكثر في علوم الشريعة، فزادت اتصالاتهم مع أكبر حوزة علمية آنذاك، ألا هو الحوزة العلمية في النجف الأشرف. ومنذ ذلك التاريخ بدأت حشود العلماء من النجف الأشرف تتواتر على هذه المناطق ـ نزولا على رغبة أصحابها من الشيعة ـ كي يخدموا الشريعة الإسلامية ويعلموها لهذه الفئات المؤمنة. فما كان أشد حاجتهم لتطبيق الأحكام المحمدية في معاملاتهم وصلاتهم وصيامهم وحجهم وزكاتهم وسائر الأحكام الدينية، وخصوصا أن أكثريتهم كانوا جددا في مذهب الإمامية الإثني عشرية.

رجوعا إلى شخص العلامة
السيد حسين العالم وخصاله الكريمة

لقد شرحت قدر المستطاع نبذة عن حالة وتاريخ قبيلة اللواتية الموجودين في عمان، والذين نزل العلامة السيد حسين العالم ضيفا عليهم لمدة حوالى خمسين سنة، وكيف أنهم انحدروا من جذور عربية، التي هاجرت إلى السند والملتان في غزواتها الإسلامية إلى تلك الديار، وكيف أنهم تحولوا إلى مذهب الإسماعيلية في عهد الفاطميين، ثم في عام ١٨٥٧ تحولوا إلى مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وتحول مسجدهم الكبير في الكورنيش من (جماعة خانة) المتعلقة بالمذهب الإسماعيلي إلى المسجد الفعلي المتعلق بالشيعة. ثم إنهم بعد ذلك شعروا بالحاجة إلى التزود بعلوم الفقه الإسلامي المتعلق بمذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، فاستدعوا علماء أجلاء من النجف الاشرف لهذا الغرض الشريف، إلى أن جاء دور السيد حسن المسقطي والسيد حسين العالم. ولا زال هذا الامر مستمرا، ولو كان الإستدعاء الآن محليا أو من بقاع أخرى كلبنان مثلا.

حلم السيد حسين العالم ورحابة صدره

وصدقت نبؤة العالم عن الشدائد والدواهي التي كانت تنتظره من بعض الناس في عمان، وإنه لجدير أن يتحمل المصاعب وأهوال الأشواك، ويسع حلمه الإهانات وهراء الكلام من بعض الأشخاص، ويصبر ويغضي على القذى، حتى يحكم الله في أمره ما يشاء، ومن ثم تنكشف مدلهمات الليل وداجيات الغياهب، عن خيوط فجر صادق لاحب، حيث إن نبؤة العالم ـ الذي كان قد طلب منه استخارة الله قبل قدومه إلى عمان ـ تبشر بأن القبيلة التي نزل ضيفا عندهم، موالون لأهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

فلقد روى لي أحد الأصدقاء الموثوقين أن أفرادا قليلة من القبيلة كانوا لا يتورعون عن التطاول عليه ظلما وعدوانا، تشفيا عما في النفوس المريضة من غل، وفي الصدور المتغطرسة من كبر ما هم ببالغيه، يروون بذلك غليلهم ويشفون عليلهم. ولا غضاضة أن وصلت هذه الأخبار إلى أسماع صاحب الجلالة السلطان سعيد بن تيمور الذي كان الساهر على راحة العلماء، مضطلعا بخطوبهم وأرزائهم، حاملا على عاتقه أثقال أعبائهم.

فيقول لي هذا الصديق أنه في مرة من المرات أصدر جلالة السلطان السيد سعيد بن تيمور أوامره إلى الوالي إسماعيل الرصاصي

(واليه المشهور على مدينة مطرح) أن يرسل عسكرين من عساكره إلى بيت السيد حسين عالم الشيعة لحراسته. فرأى السيد حسين رجلين من العساكر يحرسون بيته، فاستغرب من الأمر وسألهما عن سبب وجودهما هناك. فقالا: لقد أتينا بأمر من جلالة السلطان لحراستك، حتى نؤدب الملحب البذيء اللسان الذي يتطاول عليك، ونعاقب أولئك الذين يكيلون لك السباب والشتائم والإهانات، ولا يعرفون للعلماء قدرهم ومنزلتهم، حتى يرتدعوا عن غيهم ولا يعودوا لمثلها أبدا. فشكر العلامة السيد حسين العالم سعيهما الجميل وقال لهما: ارجعا الآن وأنا بنفسي سأقابل الوالي غدا.

ثم كتب رسالة شكر بليغة إلى جلالة السلطان السيد سعيد بن تيمور، يشكره على خصاله الرفيعة ومكارمه السامية، تحقيقا ومصداقا لقول الرسول الأعظم ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه»، وشكره كثيرا على اهتمامه الشخصي به وبأمنه وراحته. وأضاف: إنه يعتبر هذه القبيلة مثل أسرته وأولاده، وهو يسعهم بحلمه ورحابة صدره. فكما أنه يغفر لأسرته وأولاده زلاتهم وعثراتهم، فالأجدر به أيضا أن يسلك مع القبيلة مسلكه مع أسرته وأولاده، وأن يتغاضى عن سباب بعضهم وشتائمهم، ويعفو عن أخطائهم وزلاتهم وعثراتهم، واستطالة لسان بعضهم، وبذاءة أقوالهم وهفواتهم، ويحسن إليهم إن هم أساؤوا إليه.

فكانت هذه الرسالة مورد إعجاب جلالة السلطان وتقديره، وسأل المسؤولين في الحكومة إن كان للسيد حسين العالم حاجة. فقالوا له نعم إنه يريد إعادة بناء بيته الذي اشتراه حديثا ومنعناه من ذلك، فأصدر أوامره الكريمة فورا إلى مسؤولي البلدية أن يسمحوا له بأن يبني ما يشاء، وأن لا يمنعوه بتاتا من بناء أو إعادة بناء أو صيانة منزله متى ما شاء، دون الحاجة إلى أي إباحة رسمية من الحكومة. وفعلا بدأ بعد ذلك أعمال البناء والصيانة في بيته الجديد قرب (البرنديل) في مطرح.

العلماء يزارون ولا يزورون

لقد كان السيد حسين العالم صديقا ودودا ورفيقا وفيا، يستوفي صداقته مع الناس حقها من عرى الوداد والمحبة. ولقد كان له رحمه الله أصدقاء كثيرون، أبرزهم الحاج حبيب بن حميد في الخابورة. ومن ذكريات طفولتي أننا في بعض فصول الصيف كنا نركب السيارة من مطرح صباحا ونصل إلى الخابورة مساء، حيث ننزل معززين مكرمين في بيت الحاج حبيب بن حميد. وهناك تكونت صداقتي مع السيد شرف حيث كنا نلعب سويا ونحن صغار في الخابورة. وفي مطرح كان للعلامة أصدقاء مثل الحاج سلطان محمد فاضل وابنه الحاج عبد الرضا سلطان والسيد موسى شبر والسيد حسين شبر والحاج عبد الله (دامن) والحاج عبد الخالق محمد عيسى. ولقد استوفينا قضية صداقته مع الحاج سلطان والحاج عبد الرضا شرحا وبسطا في الفصول السابقة.

أما السيد موسى شبر والسيد حسين شبر فكانا أخوين ومن العلماء الأفاضل، وكانا يسكنان في جوار منزلنا، وتربطهما بالعلامة علاقات صداقة، استحالت بعدها إلى علاقات مصاهرة مع السيد موسى بالذات. وكانوا جميعا يزورون الوالد في مجلسه إلا الحاج سلطان محمد فاضل والحاج عبد الخالق محمد عيسى.

أما الحاج سلطان محمد فاضل فقد كان العلامة يزوره دائما في صيدليته الواقعة في مطرح خلف السوق الصغير. وأذكر أنني في طفولتي

كنت أصطحبه إلى صيدليته، وكنت أرى كيف كان الحاج سلطان فكها اجتماعيا خفيف الروح. أما الحاج عبد الخالق محمد عيسى فكان العلامة يزوره في محله، الواقع في أول السوق الصغير، جنب مخبز الحاج داود، وقريبا من المسجد الكبير. وكنت في طفولتي أصطحبه أيضا إلى ذلك المحل.

فلقد روى لي أحد الأصدقاء الموثوقين أنه كان من عادة العلامة أن يزور الحاج عبد الخالق محمد عيسى في محله. فتناهت الأنباء إلى أسماع الحكومة، فبعث إليه جلالة السلطان السيد سعيد بن تيمور برسالة شفوية يمنعه فيها عن الذهاب إلى السوق، قائلا بأن «العلماء يزارون ولا يزورون». فوقع ذلك من نفسه موقعا جميلا، وكبر هذا السلطان في ذرعه لاهتمامه بالعلم والعلماء.

كرم العلامة وجوده

روى لي بعض الإخوان الموثوقين أنه ربح في تجارة ما، وكان قد نذر بأنه، إذا ربح في تلك التجارة، فسيدفع ألفين روبية إلى العلامة. وذات يوم أخذ النقود وأوصلها إلى العلامة، وقال له لقد نذرت نذرا، فوضعها السيد العالم تحت البساط الذي يجلس عليه.

وفي خلال الساعة التي كان الحاج المذكور جالسا مع العلامة يتجاذب أطراف الحديث معه، ورد على العلامة سائل يسأله العون والمساعدة، فدفع له العلامة شيئا من تلك النقود. ثم توارد أشخاص آخرون يسألونه المساعدة، فكان يدفع لكل واحد منهم شيئا من تلك النقود.

يقول الحاج المذكور أنه لم تمض ساعة حتى كانت الألفان روبية التي جاء بها قد نفدت، مما جعله يغضي بين يديه إجلالا وإكبارا لعظمة الروح التي تمثل أمامه، فقد كان العلامة السيد حسين العالم القطب الذي تدور حوله رحى الفقراء والمحتاجين، والعصمة التي تعتصم بها الناس في مواقف بؤسهم ودقعهم وخطوبهم، ومواطن ضيقهم وشدتهم وكروبهم. وأنا أذكر الملا محمد العود، الذي كان يقرأ المآتم على المنبر الحسيني، والذي تعرفت عليه في أيام الصيف التي قضيتها في الخابورة، قال لي يوما بأن العلامة السيد حسين العالم ملجأ للفقراء والمساكين، ولولاه لضعنا.

فالعلامة لم يكن ليحتجن المال إن كان ثمة من هو أحوج إليه منه، وإن كان هناك سائل لا يمكن رده، وإلا فكان هو نفسه آنذاك في أمس الحاجة إلى المال لتدبير عيش عائلته الكبيرة وتقويم أودهم، فقد تمر عليهم أيام لا يجدون فيها ما يأتمدون به. فكان يكدح في الحياة مع عقيلته العلوية مرضية لكسب لقمة العيش عن طريق خياطة الملابس. فلطالما رأيته في صغري وهو يخيط الملابس على ماكينة الخياطة، وما أكثر ما رأيته في الليالي وهو منكب على الخياطة تحت ضوء القنديل الخافت الضئيل، تجاهد ذبالته جهادا شديدا في تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حوله.

وحري أن نذكر في هذا المقام بأن الفقراء المحتاجين لم يأتوا إليه في تلك الساعة بالذات فحسب، بل كان ذلك ديدنهم في كل الأوقات، فكان لهم كالأب الحنون الذي يلتجئ إليه أولاده حين الحاجة والشدة، ويتمسكون بحجزته في مصائب الدهر وأرزاء القدر. وكان رحمه الله كالدوحة الخضراء وارفة الظلال، يلوذ تحتها المدقعون من لفحات هذه الحياة وزفراتها، وكالأكمة يأوي إليها المشردون، حين تضيق بهم ساحة الصبر والجلد. علما بأن وضع عمان الإقتصادي قبل السبعينيات كان سيئا جدا.

فصاحة العلامة وبلاغته

كنا نتلمذ على والدي العلامة أنا ورفاقي الخمسة ـ الذين سيجيء ذكرهم في فصل قادم ـ ونحن نعلم جيدا مدى تضلعه من اللغة العربية، اشتقاقا وصرفا ونحوا ومعاني وبيانا وبديعا. وأؤكد جازما أنه لو طبقنا منهجه التعليمي في العلوم العربية، لأنشأنا جيلا من عباقرة الفصاحة والبلاغة ـ التي هي معجزة القرآن الكريم ـ وهي في الحقيقة عنوان أصالتنا الحضارية، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لطالما تقطعت نفسي حسرات على هذه اللغة العظيمة، وأنا أشاهدها أمام عيني تتدنى وتسقط إلى قاع المحيط، بسبب الإهمال بل الإستهتار بهذا الصرح الشامخ. ولو أنني دونت الأخطاء اللغوية التي أسمعها يوميا من الراديو والتلفزيون، رغم أنني لا أتفرغ لها أكثر من نصف ساعة في اليوم، لألفت منها كتابا ضخما لكثرتها. وأسأل نفسي كل يوم هل وصل بنا الإستهتار إلى هذا الحد، بحيث لا نهتم بوسائلنا الإعلامية، التي هي المثل الأعلى لأجيالنا الناشئة، والتي تتلقى هذه الأمواج على أنها وحي منزل، يرسخ عميقا في أذهانها، ويكوّن شخصيتها.

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخا وتذرافا ،حين ترى هذه الأجيال المسكينة وهي تتربع في المستقبل القريب على عروش الإعلام والتعليم، لكي تنقل هي الأخرى هذا المستوى المتدني من اللغة إلى

الأجيال التي تليها، ومن ثم يأخذ هذا الصرح الشامخ تدريجا طريقه في مدرج الفناء.

نعم لقد كان العلامة السيد حسين العالم طودا شامخا رابضا على أكناف هذه اللغة، حتى أن أحد هؤلاء الرفاق الخمسة الذين سيجيء ذكرهم في فصل لاحق ـ وهو الأستاذ صادق جواد سليمان ـ وقد أوغل في علوم العصر إيغالا، قد لاحظ لي مرة في معرض مذاكرة حول زمالتنا في الدراسة عند والدي العلامة، أن ما تعلمه لدى والدي العلامة، أرسى لديه قاعدة رصينة في علوم العربية، ما كان ليتحقق له مثلها من خلال مناهج الدراسة الإعتيادية. وأن ما تحصل له لاحقا من توسع معرفي في هذا المجال، جاء بناء على تلك القاعدة الأولى، التي ارتست لديه من خلال التلمذة على والدي العلامة قرابة سنوات ثلاث.

وقد لاحظ لي أيضا أنه عندما قصدنا السيد حسين العالم نلتمس التلمذة لديه، كنا قد بلغنا ـ من خلال ما كنا أنجزنا من دراسة لدى أساتذة من قبيلتنا ـ مستوى جديرا من الإلمام بقواعد العربية، كما كانت لنا معرفة بالأدب العربي، ودراية بالإنشاء نثرا، ولبعضنا اقتدارا أيضا على النظم. الإلمام بالعربية كان تحصيلا موفورا في أوساط القبيلة، بالأخص بين من كانوا يمتازون بمعرفة إسلامية وافية ودراية بالأدب العربي. وقد كان من شدة حرص القبيلة على تربية الناشئين على معرفة سليمة بلغة القرآن، أن كانوا في مجالسهم يردون بالتصحيح آنيا على أي خطأ أو لحن يقع من أي قارئ لنص من النصوص.

في تلك المرحلة، ما كنا ننشده حين سعينا إلى السيد العالم للدراسة لديه، هو أن يأخذ بنا في التوسع والتعمق. شخصيا (والكلام للأستاذ صادق جواد سليمان)، كنت أطمح أن يعلمنا ألفية ابن مالك، وهي منظومة جامعة لقواعد العربية، كان حفظها أو اجتيازها يعد وقتئذ تتويجا لكل تحصيل متقدم في اللغة العربية. وكان والده (الحاج جواد

سليمان) يحفظ شيئا من هذه المنظومة، ومنه كان، ولا زال، يحفظ بعض ما تحتوي من أبيات.

بيد أن السيد ما أن استمع إلينا (والكلام للأستاذ صادق) حتى أدرك بثاقب نظر العالم والمعلم معا، ما كان يوجد فعلا في معرفتنا من فراغ. أدرك أننا نلم بالنحو، لكننا لا نفهم في الصرف، نفهم في قواعد الإعراب، لكننا لا نفهم في تصريف الجذور واشتقاق الأوزان، وإذن لا بد له، والحال هذه، من سد هذا العجز لدينا، قبل أن يأخذنا لاحقا في دراسة متقدمة في المنطق والفلسفة. لذلك بدأ بنا بعلم الصرف، الذي لم نكن بعد نقدر جدواه ولا ندرك غوره ومداه. كما لم نكن نستوعب، كما استوعبنا لاحقا، أن الفهم الدقيق بمدلول أيما لفظ في العربية لا يتحصل من دون الفهم الدقيق لمدلول الصيغة الصرفية لذلك اللفظ.

من الإنطباعات التي تكونت لديه (والمقصود هو الأستاذ صادق جواد سليمان) من خلال التلمذة على والدي العلامة السيد حسين العالم، أنه كان يرى السيد شخصا كريما في خلقه، أصيلا في رأيه، غزيرا في علمه، ودودا في عشرته، وعفيفا في أمر معاشه. كان مع قليل اكتراثه بالمظهر، شديد العناية بالجوهر، ومع تواضعه إزاء الجميع، مهيبا وقورا لا يبتذل معه في تصرف أو حديث. وفي مجلسه، حيث كان يلقي علينا الدرس، كان يظهر بلباس بسيط، ويجلس منا مجلس راع كريم. كان لا يتكلف في شيء، ولا يحملنا على التكلف في شيء. كان كأي معلم جاد يذاكر مسبقا ما كان يعلمنا في كل درس، فإذا صادف أن لم يتح له أن يذاكر يوما، لسبب من الأسباب، وجئناه لتلقي الدرس كالمعتاد، صرفنا معتذرا ومبديا سبب الإعتذار. وقد كنت أكبر فيه (والكلام للأستاذ صادق)، وهو في مرتبته من العلم، ونحن في مستوانا من التعلم، أن يصارح مثله مثلنا أنه لم يستعد لتدريسنا في ذلك اليوم ـ (انتهت هنا ملاحظات الأستاذ صادق جواد سليمان).

كان رحمه الله ضليعا في علوم المعاني والبيان والبديع ضلاعته في علوم الفقه والشريعة، وكنا تحت هذه الدوحة الخضراء، دانية علينا ظلالها وذللت قطوفها تذليلا، نقتات من أكلها، التي تؤتيها كل حين بإذن ربها، ونتعرض لنفحاتها، ونستفيض من بركاتها. ومن المصائب ما يضحك، هو أننا نسينا أو تناسينا أن الفصاحة والبلاغة هي معجزة القرآن، ونسينا أو تناسينا أن نترسم مواقع أقدام القرآن في مذاهبه ومراميه، فسلكنا المعجزات في سلك المهملات، وأصبحنا لا نتذوق أوتار الخلود، وعزفنا عن موسيقى اللاهوت، وأقبلنا على عجيج الناسوت، كأن الكتاب على غيرنا نزل.

روى لي أحد الأصدقاء الموثوقين أن رجلين من القبيلة اختصما إلى العلامة السيد حسين العالم في قضية إرث، فسأل إن كان الميت قد خلف وصية. فلما اطلع على تفاصيل الوصية، رسم لهما ما ينبغي أن يفعلاه، ولكنهما لم يتفقا على الأمر، وبقي الخلاف قائما بين الرجلين، إلى أن انتهى بهما الأمر إلى المجتهد الأكبر في النجف الأشرف، آية الله العظمى المرجع الكبير المرحوم السيد محسن الحكيم رضوان الله عليه. فكتب إلى السيد حسين أن يجري الصلح بينهما، وأن يهيّىء لهذا الغرض صيغة صلح مناسبة ترضي الطرفين. فهيأ السيد حسين العالم كتاب الصلح ـ بعد مشاورات مكثفة مع الطرفين ـ وصاغه بحسن نظام وجمال هندام، وكان يحمل عبارات تحير منها آية الله العظمى السيد محسن الحكيم، وقام من مكانه ذاهلا مشدوها من هذه العبارات البليغة، وقال بأنه لم يفكر قط بمثل هذه اللغة الفصيحة البليغة.

إيمانه واستقامته وغضبه لله

لا يعرف النور إلا إذا كان بجانبه ظلمة، ولا يعرف الجمال إلا إذا كان بجانبه قبح، ولا يعرف طيب القلب إلا في عالم اللؤم والدناءة. كذلك الفضائل لا تبرز إلا في أجواء الرذائل، وورود الحياة لا تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت. كذلك الإيمان والإستقامة لم يكن ليعرفا إلا في أجواء الخطيئة.

فكان العلامة السيد حسين العالم هو الياسمين الذي نبت على رمال رمضاء الصحراء الملتهبة، فعرفوا ما أطيب عرفه بعد طول جفاء. وهنالك تسرب إلى قلوبهم سلسبيل بارد من آمال الصلاح والإستقامة، تنقع غلتهم وتطفئ لوعتهم، وبرزت أمام أعينهم آمالهم التي تعتلج بها صدورهم، وتهتف بها أحلامهم، وهي تتبلور وتتحقق على بساط حياتهم اليومية.

ولكن حتى الأنبياء عجزوا عن أن يستلوا من بين جنوب الناس أطماعهم، فبقي رحمة الله عليه معترك أنظار الناس وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم في اكتناه أمره، وهل يعرف اللؤلؤة المكنونة إلا رجالها!!!

فقد روى لي أحد الأصدقاء الموثوقين أنه كان يزور العلامة في معظم الأحيان في منزله، وفي يوم من الأيام ذهب إليه كعادته، فرآه قد احمر لونه غضبا، فسأله عن سبب ذلك. فقال العلامة: اذهب وادع

للحضور إلي الحاج عبد الرضا سلطان والحاج عبد الخالق محمد عيسى. فلما أتيا إليه فتح المصحف المجيد وأراهما الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: هل تعلمون ما معنى هذه الآية؟ إن فلانا (وكان رجلا ذا نفوذ) يريد مني أن أكتم الشهادة (يحتمل أن يكون في قضية إرث)، وأنا لا يمكن أن أكتم الشهادة وأرتكب الإثم، فاذهبا إليه وأخبراه بذلك... ففعلا ما أراده منهما. فعاد الرجل إلى حضرته يستغفره ويتودد إليه، ويستدني قلبه، ويفثأ عنه ما به، مهدئا غضبه، ومكفكفا من غلوائه قائلا: «ما عليك يا سيدنا، اشهد بالحقيقة كما يروق لك».

وروى لي أيضا نفس الصديق أنه زاره في يوم من الأيام، فوجده واقفا مقابل بيته في مطرح، مشمرا عن ساعديه، ينوي السفر إلى الخارج بالباخرة، وكان متاعه هو وعائلته مجمعا في صناديق أمامه، وكان الزورق راسيا على الساحل، على وشك أن يحمل المتاع إلى الباخرة للإبحار. فسأله ماذا جرى ولماذا فجأة كل هذا الإستعداد للسفر؟ فقال له وقد احمر لونه واستشاط غضبا: لقد صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، ولكن ضاقت بي ساحات الصبر، وإني والله لآثر أن يتخطفني الطير، أو يسقط علي كسف من السماء، على أن أكون مطواعا لهذا الرجل (وكان رجلا ذا نفوذ كبير، وربما هدده بالنفي من البلاد)[١]، فإنه يريد مني أن أكون خادما لأهوائه وأطماعه، أقترف السيئات، وأرتكب المعاصي، إرضاء لمصالحه ومطامعه.

والله لن أفعل ذلك ولن أبيع آخرتي لدنياي، وإن السماء توشك أن

---

(١) علما بأنه في تلك الأيام الخوالي (حوالى قبل السبعينيات من القرن العشرين) كان باستطاعة الرجال ذووي النفوذ أن ينفوا الناس من البلاد، كما حصل فعلا لبعض الناس. فلم يكن القانون في تلك الأيام معمولا به كما هو في أيامنا هذه.

تمطر عليه اللعنات، إلا إذا تاب إلى الله توبة نصوحا، وأنا راحل في هذا الزورق إلى الباخرة مع عيالي وأولادي، حتى يحكم الله بيني وبينه إنه أحكم الحاكمين. فهدأه ذلك الصديق، وكفكف من غلوائه، وفثأ عنه غيظه قائلا: لا ترحل يا سيدنا وأنا أتكفل بتقديم النصح والموعظة لهذا الرجل، وإن شاء الله ستكون الأمور كما تروق لكم. وعندما علم ذلك الرجل بنية العلامة السيد حسين العالم للرحيل، جاء إليه مسرعا، مخفضا من كبريائه، معتذرا نادما، ملتمسا منه البقاء في مطرح وعدم الرحيل، حتى اقتنع العلامة ولانت عريكته، وسلس قياده، وغير رأيه بالنسبة للرحيل عن عمان.

وأنا شخصيا أذكر جيدا هذه الواقعة وأنا طفل صغير، وأذكر الصناديق الممتلئة بالمتاع، وأذكر أيضا الباخرة التي كانت ترسو أمام أعيننا، وأننا على وشك السفر، وأذكر كيف كان الملا حبيب (القارئ المعروف الذي كان يجيئنا من الكويت) يحاول إقناع والدي العلامة بالعزوف عن نية السفر. وأذكر جيدا أننا الأطفال كنا نتحادث قائلين بأن الملا حبيب قد أقنع الوالد بعدم السفر. ولكننا في ذلك السن الصغير لم نكن نعرف الأسباب، ولا أذكر أن الكبار قد أحاطونا بذلك علما. ولكننا كأطفال كنا نحب السفر، وننظر جيدا إلى تلك الباخرة، التي كانت ترسو أمامنا، وكنا بذلك فرحين.

الحريق الكبير في جبروه في عام ١٩٦٤

وهذه القصة معروفة عند الخاص والعام في مطرح ومسقط ـ وما يوم حليمة بسر ـ فلقد نشب في سنة ١٩٦٤ للميلاد حريق كبير في جبروه، كان يلتهم الرطب واليابس بسرعة متزايدة. ولم تكن في تلك الأيام الوسائل اللازمة لإطفاء الحريق، ما عدا الصف الطويل من الناس، يمتد من ساحل البحر إلى مكان الحريق، وهم يناولون بعضهم البعض الدلو تلو الدلو من الماء. وكان من شدة هذا الحريق المهيب، ومدى الخسائر التي ألحقها بالبيوت والمنازل وممتلكات الناس، أن أصدر الآغا خان أوامره إلى الإسماعيليين بأن يخرجوا من عمان. وفعلا نزح الإسماعيليون عن عمان، متجهين إلى باكستان، ولم يرجعوا إلى هذا القطر مرة أخرى.

والذي يهمنا من واقعة هذا الحريق المهيب، أن الناس كانوا يخرجون من بيوتهم، إما تفرجا على الحريق من بعيد، وإما هربا بحياتهم من جحيم النيران التي كانت تشتعل، ومن الدخان الكثيف المتراكم الذي نشر أجنحته السوداء في الأفق. وكان العلامة السيد حسين العالم جالسا في بيته قرب (البرنديل)، الذي لا يبعد شيئا عن جبروه، وكان الحريق يتقدم حثيثا صوب بيته، والناس يحثونه على ترك البيت، والخروج من مطرح إلى الريام، حيث كان الناس يتوافدون جماعات جماعات. ولكنه بقي جالسا في بيته لا يبدي حراكا، وهو يقول: «إن الحريق لن يصل إلى بيتي».

وفعلا وقعت المعجزة!!! وتوقفت النيران وخمدت قبل أن تصل إلى بيته. ويتجلى من ذلك بوضوح، أن الرجل غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالهم، وأنها ملكات، تتعلق بعالم الملكوت، راسخة في وجودهم، تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب والأريج عن الزهر. وهذه الملكات ليست على غرار ما تعوده الناس، فالناس في واد والعلامة السيد حسين العالم في واد آخر.

وأتذكر حادثة مشابهة وقعت لأخيه الأكبر، العارف الرباني، السيد حسن المسقطي رحمة الله عليه. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية كان يخطب على المنبر في مسجد المغول في مومبي بالهند، إذ رن في مسمع الجوزاء صوت هائل، فأسرع الناس بالهرب من المسجد، وظل السيد حسن المسقطي في مكانه لا يتحرك. وعلم الناس أن انفجارا كبيرا قد حصل في ميناء مومبي، وأن غواصة حربية ضربت إحدى البواخر الراسية على الميناء.

وبعد هنيهة رجعوا إلى المسجد، فوجدوا السيد حسن المسقطي في مكانه ساكنا مطمئنا، قد ملكت عليه السكينة سمعه وبصره، وهو يقول لهم: لماذا هذا الهلع؟ فإن الموت إذا كان مقدرا فلا مهرب منه، ويأتي من حيث لا يحتسب، وأن المقادير التي يجريها الله سبحانه وتعالى بين الناس، ليست سهاما طائشة ولا نياقا عشواء، وإنما ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ففي باطنها تكن الحكمة الربانية العالية، لا يكتنهها ولا يستشف غيوبها إلا قليل من الناس. فرجع الناس إلى أنفسهم وفهموا أنه قد نطق ببنت شفة لا تعبر إلا عن الحقيقة المطلقة، وأن ما سمعوه ما هي إلا تجليات ربانية أشرقت على شفاه هذا العبد الصالح.

تقديسه وتقديره للعرفاء

أذكر أنني حينما كنت في الكويت وأنا في شرخ شبابي، كانت هناك منافسة شرسة بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي في مجال تكنولوجيا الفضاء. وبغتة سمعنا من وسائل الإعلام أن (يوري غاغارين) قد خرق بسفينته الفضائية المجال الجوي للأرض. وكانت متابعتنا لهذا الحدث حماسيا، فكانت تلك هي أول مرة يخرج فيها الإنسان من الجاذبية الأرضية، ويدور حول الكرة الأرضية، ويسبح في الفضاء الخارجي، على بعد مئات الكيلومترات من الكرة الأرضية.

وكان ذلك حقا معجزة صنعها الإنسان الحديث، الذي ابتعث عزيمته واقتدح فكرته، واستطاع أن ينال هذا السلطان العظيم على الطبيعة، بل حتى على الجاذبية الأرضية. فكتبت إلى والدي العلامة السيد حسين العالم ممتدحا هذا التقدم البشري الهائل، وهذا التطور في تكنولوجيا الفضاء، وكيف أن الإنسان استطاع أن يصل إلى هذه المراتب بفضل تقدمه العلمي ـ تأكيدا للآية الشريفة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ **[الرحمن: ٣٣]**.

فكتب إلي المرحوم والدي العلامة: «إن ابن العربي (العارف الكبير) قد عرج إلى السموات السبع قبل حوالى ألف عام». وهكذا يتجلى مقامه العلمي عاليا فوق المستويات التي نشاهدها اليوم من

أنصاف العلماء، الذين يزدرون العرفاء والعرفان، ويذهبون في أمرهم مذاهب شتى، بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع. والعجب العجاب أنهم يتشفون منهم بابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة عن شفاههم، التي تدل على العجب ويا للعجب!!! فيا حسرتاه عليهم!!! يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يس: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]. ولا أعرف ما هو الفرق بين ذلك الزمان ويومنا هذا؟ فإنني أعرف حق المعرفة أنه ليس تحت القبة الزرقاء شيء جديد، اللهم إلا أن تتغير الأسماء والعناوين في كل مكان وزمان.

ومعصية العجب هي أنها من كبائر المعاصي التي ذكرها الحديث النبوي الشريف: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك العجب العجب». فكأن العرفاء كواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصا ولا قبسا، إلا من رحم ربي من أولئك الذين تساموا عن أنفسهم، واستقروا فوق مستوى السحب، لا يحجبهم عن النجوم الزاهرة حجب من أنفسهم، ولا ضلالة من كبرهم وعجبهم، ولا ظلام دامس من جهلهم.

وتوجد عندي الآن في مكتبة العلامة السيد حسين العالم نسخة قديمة جدا من كتاب «الفتوحات المكية» للعارف الكبير ابن العربي، وأيضا نسخة قديمة جدا من كتاب «حكمة الإشراق» للعارف الكبير السهروردي رضوان الله عليهم[1]. بالإضافة إلى ما كنت أسمعه وأنا

(١) وهذان الكتابان هما من جملة الكتب الكثيرة التي كانت في مكتبة العلامة والدي، أودعتها في ركن خاص من المكتبة التي تخص أوقاف اللواتية في جبروه في مطرح (قاعة الزهراء السابقة)، وذلك في أوائل عام ٢٠٠٦ للميلاد. أما في تلك الفترة التي كتبت فيها هذه الفصول من الكتاب، حوالى عام ٢٠٠٠ للميلاد، فكانت كل كتبه موجودة عندي في مكتبتي الخاصة، في ركن خاص سميته ركن العلامة السيد حسين العالم.

طفل صغير من تكريمه وتجليله لأخيه العارف الرباني السيد حسن المسقطي، الذي كان يسرد دائما قصصا عن كراماته وكشفياته في عشق ووله.

فما أطيب أولئك الذين ورثوا العدل والإنصاف عن اسم من أسماء الله الحسنى وهو «العادل»، وتجردوا من الظلم في حق رجال الله الصالحين! وما أعدل أولئك الذين يقولون: «لا نعلم» إن كانوا لا يعلمون، أو كانوا في مواقف الجهل أو الشك والتردد، بعيدين عن مواطن اليقين! وما أبسط هذه الكلمة وأسهلها على الفطرة!!! وأجدر بها أن تقيهم الظلم العظيم، الذي يقترفونه في حق أنفسهم قبل غيرهم!!!

حرصه على أخلاق أولاده

كان رضوان الله عليه حريصا جدا على أخلاق أولاده وتديّنهم واستقامتهم، ولكنه أيضا كان واسع الأفق، وكان يعلم أن أولاده خلقوا لزمان غير زمانه، فلم يكن ذلك الأب المتزمت المهيمن المتسلط.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما كنت في الكويت في أوائل شبابي، وحرصا منه على أن لا تنحرف أخلاقي، وأنا في شرخ شبابي، وتضطرب شخصيتي اضطراب الأغصان اليابسة، بين أيدي الرياح العاصفة، في المدن العصرية الفاسدة، وتياراتها الجارفة، وأجوائها الضالة المضلة، وزبرجها وإغراءاتها التي تطيش منها الألباب، وتتيه فيها العقول، وتضعف فيها النفوس، وتضل في تيهها أشعة العيون، فقد أبدى لي النصح في هذه المرحلة الحرجة من حياتي.

فلقد وجه إلي العلامة السيد حسين العالم كتابا لا زلت أحتفظ به حتى الآن، ينصحني فيه أن لا أقرب الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلا. وإذا لم يكن من إرضاء الغريزة الجنسية بد فزواج شرعي بالمتعة ـ إن لم أجد إلى الزواج الدائم سبيلا ـ اتباعا للسنة النبوية الشريفة، وللآية الكريمة من سورة النساء: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]. وقد تكفل لي بشرح التفاصيل عن أحكام المتعة، وطريقة العقد، ووجوب تحديد المهر والمدة، ووجوب حق الذرية في الإرث،

وفترة العدة للزوجة حين انتهاء مدة المتعة، وجواز زواج المتعة حتى من أهل الكتاب كاليهود والنصارى. بمعنى أن الجواز المؤقت لا يختلف عن الزواج الدائم في جوهره، وقد جعله الله لعباده اتقاء من معصية الزنى، والعياذ بالله. حتى قال ابن عباس قولته الشهيرة: «لولا أن فلانا حرمها لما زنى إلا شقي».

فالزواج الدائم والزواج المؤقت، أي المتعة التي أوصى بها الله سبحانه وتعالى في الذكر الحكيم، ليسا لأجل المتعة الجنسية فحسب، بل أيضا للإضطلاع بالمسؤولية الكاملة بتبعاتها، من حفظ الذرية وكرامتها، من إرث ومشروعية الإنتساب إلى الأب بكل مظاهره، وغيره وغيره.

فلقد انتبهت عامة المسلمين إلى ضرورة زواج المتعة، في الآونة الأخيرة، حينما استغرق معظم الطلاب المسلمين، الذين يدرسون في الخارج، في أعمال الفاحشة والزنى. فرأى العقلاء منهم ضرورة زواج المتعة، أو الزواج المؤقت، اتقاء من الفاحشة والزنى. فرجعوا إلى زواج المتعة، ولكن بأسماء أخرى!!! فلاحظ يا أخي مدى التعصب والعناد، حتى مع الدين الحنيف، والقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة!!! كأن الله لم يشرع زواج المتعة في ذكره الحكيم!!! وكأنها ليست سنة نبوية لها أحكامها الإسلامية الخاصة بها!!! فلاحظ مدى انحراف المسلمين عن تعليمات القرآن المجيد، وعن دين الإسلام الحنيف، وعن السنة النبوية الشريفة!!! كأنما الحنيفية السمحاء لم تتنبأ بالطلاب الشباب خارج أوطانهم، وبحاجاتهم الغريزية!!!

وكلام سيد المرسلين ﷺ دائما نصب عيني: «بعثت بالحنيفية السمحة» وأن دين الإسلام دين سمح، قد سمح بإرضاء الغرائز ولكن في إطارها الشرعي. وكانت نصيحته الغراء تلمع في ذلك الحندس كأنها

عيون الجنادب، تزجرني عن الفساد فأزدجر، وتدلني في ظلام نفسي على الذئاب الجائعة الفاغرة أفواهها، وهي تهرب مني في بطن ذلك الحندس الحالك، فيفرخ روعي ويثلج صدري، فأجزل الله لحضرته الثواب، وتغمده برحمته الواسعة في جنات النعيم!!!

شهادة شيخ القبيلة المرحوم الحاج علي سلطان

قبل ١٤ سنة وفي سنة ١٩٨٧ بالذات عندما رجعت إلى وطني بعد سنوات طويلة من الغربة، كنت أصلي في ركن من مسجد الرسول الأعظم ﷺ على كورنيش مطرح. وبعد فراغي من الصلاة وانشغالي بالتعقيبات والتسبيحات، فإذا أنا بالمرحوم الحاج علي سلطان يأتي نحوي، وعندما وصل إلي قمت لمصافحته والسؤال عن حاله وصحته. ثم قال لي: إن لوالدك المرحوم حقا كبيرا على أعناقنا لا يمكن أن ننساه مدى الحياة.

وفي الحقيقة إني لم أسأله عن تفاصيل ذلك، ولكن نبرته كانت تدل على العرفان بالجميل، ولا زلت أستروح رائحتها الأريجية. فلذلك فإني أعدها شهادة دنيوية على صحيفة أعماله، على مدى خمسين سنة من عمره الشريف، التي أمضاها في خدمة هذه القبيلة، مصلحا لشؤونهم الدينية والدنيوية، مقيما لأودهم واعوجاجهم، ومعلما لهم في مسالك الشريعة المحمدية الغراء.

ويجدر القول هنا أن الصداقة الحميمة التي كانت تربط والدي العلامة مع الحاج سلطان والحاج عبد الرضا سلطان كانت على درجة كبيرة، بحيث تضفي صبغة مميزة لعلاقاته مع الحاج علي سلطان. ولا

أنسى، وأنا طفل صغير، نكات الحاج سلطان مع والدي العلامة في صيدليته في مطرح، أو في مزرعته في قرية «العينت»، وأيضا حضور الحاج عبد الرضا شبه الدائم في مجلس العلامة والدي، وهما يتهامسان ويتجاذبان أطراف الحديث.

علمه بسنة موته

روى لي أخي باقر أن العلامة السيد حسين العالم عندما بلغ الثمانين من عمره ـ بحساب النظام الهجري القمري ـ أخبره بأنه قد دخل الثمانين من عمره، وأن ذلك عام يرحل فيه عن الدنيا، ويتصل بالملأ الأعلى. فتعجب باقر من كلامه، وتساءل كيف أمكنه معرفة تاريخ وفاته مقدما، رغم أن الأجل مكتوب في اللوح المحفوظ، ولا يعرفه أحد حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل.

فأشار رضوان الله عليه إلى أنه قد تلقى هذا النبأ الغيبي من العلامة الشيخ رشيد ترابي. وكما مضى في سيرة السيد حسن المسقطي فإن الشيخ رشيد ترابي كان أحد تلاميذه المقربين، ومن الملازمين الدائمين في ركابه. وكانت وفاته رضوان الله عليه في عام ١٩٨٣ للميلاد المعادل ٢٧ شعبان ١٤٠٣ للهجرة، وقبره[١] يقع في مقام مطرح في جبروه.

---

(١) هذا القبر الشريف الآن متوج بقبة بيضاء، بناها المرحوم الحاج محسن الحاج باقر عبد اللطيف. أسأل الله أن يعطر ثراه لما قام به من عمل له أجره العظيم عند الله في عقباه، وله دلالات عميقة واضحة على حبه الشديد للعلامة، وتقديسه واحترامه، بل لعرفانه بالجميل بما قام به العلامة من خدمات لا تنسى لعائلته ولقبيلته.

السيد حسين العالم مشعل العلوم والمعارف

كان رحمة الله عليه الروضة الغناء من العلوم والمعارف، التي كنا نتفيأ ظلالها، ونهصر أغصانها، ونقطف ياسمينها وريحانها. فكان رحمه الله يستشف رغبتي الباطنية في تحصيل العلم والمعرفة، وأذكر أنه كان يعلمني دروس الفقه وأنا لما أبلغ السادسة من عمري.

وفي يوم من الأيام كنت في مدرسة المرحوم حسن عبد العلي (وهو ابن الحاج عبد العلي سليمان جعفراني الذي تنبأ عمي السيد حسن المسقطي بأنه من أهل الجنة) أتعلم عنده كما يتعلم التلاميذ الآخرون، فإذا به يناديني جانبا ويقول لي: «إني وثلة من أصدقائي نريد أن نتعلم عند العلامة والدك، فهل لك أن تكلمه في هذا الأمر وتستجلب رضاه؟».

فكلمت المرحوم والدي العلامة فسأل من هم، فقلت: «حسن عبد العلي ومحمد علي (ماستر) ومحمد متواني وصادق جواد سليمان وحسين عبد الخالق». أما أنا فكنت أدرس عنده... فابتسم رضوان الله عليه ورضي بذلك. ومن ثم بدأنا دراستنا عنده في علوم الإشتقاق والصرف والنحو والمنطق والفلسفة، ودام ذلك حوالى ثلاث سنوات.

وكانت لهذه الفترة الدراسية القصيرة أثرها العظيم في حياتنا...فلقد ذكرت في فصل سابق ملاحظات صديقي الأستاذ صادق جواد سليمان حول هذه الفترة المهمة من حياتنا. وأخبرني بأنا كنا نسأله كثيرا ونستطلعه ما عمي علينا، فكان يجيب علينا برحابة صدر. ولكنه عندما كان يتضايق

من الأسئلة الكثيرة كان يقول لهم: «اسألوا ابني تقي».

وكان من جراء هذه الزمالة الدراسية أن كوّنا ناديا نجتمع فيه، لتذاكر الدروس، وتدارس العلوم، ومشاطرة الشعر، والمساجلة في الآداب العربية والإنكليزية. ولقد كتبنا معا آثارا قيمة باللغتين ولكنها لم تنشر. وكان الأعضاء الأصليون في هذا النادي هم الطلبة الستة الذين كانوا يدرسون عند العلامة والدي. وكان أخي الأكبر المرحوم محسن يحضر أحيانا في جلسات النادي لمشاطرة الشعر العربي والمساجلات الأدبية. فقد كان مولعا كثيرا بالشعر العربي وعلى الأخص الشعر الجاهلي.

وغني عن الذكر أنه قد نشأت حركة أدبية ثقافية في مطرح في الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين، وذلك إثر ورود السيد حسن المسقطي إلى هذه الديار. وهذا الرجل العظيم معروف بحماسه وحرارته الزائدة في نشر تعاليمه التوحيدية والعرفانية، وقد استقطب في النجف الأشرف طلابا كثيرين، متعطشين لهذه التعليمات الربانية المتعالية، والتي يسمونها الفلسفة الإلهية أو علم الأخلاق. وكان يحضر حلقات دراسته في النجف الأشرف حوالى خمسمائة طالب، حسب رواية ابن عمتي المرحوم السيد مهدي السيد جواد الموسوي، الذي كان يقيم في الخالص بالعراق، وتوفي في بغداد.

ولهذا السبب أرسل إلى مسقط حتى تتفرغ الحوزة العلمية في النجف لتدريس الفقه فقط. ومن هنا سافر إلى شبه جزيرة الهند، بعد دعوات متتالية من الأمير نظام آباد أمير حيدر آباد دكن، وصاحب المكتبة الإسلامية المعروفة. وهناك أيضا استمر في حماسه وحرارته الزائدة في تعليم عباد الله الصالحين، ومن أبرز من تتلمذ عليه هناك هو العلامة الشيخ رشيد ترابي رحمة الله عليه، الذي تنبأ لوالدي العلامة بتاريخ وفاته، كما سبق أن ذكرناه في فصل سابق.

وبسبب هذه الحركة الثقافية، أنشأت نوادي عدة في مطرح، أبرزها

«نادي الإصلاح» الذي كان يتميز بنشاط رياضي واجتماعي، ويحتفل بمناسبات وطنية. والآخر هو «نادي التبادل الثقافي» وكان يتكون من نخبة من الشباب المعنيين بنشر الثقافة والتعليم.

ولأن نظام النوادي كان متبعا آنذاك، فلذلك أنشأنا ناديا صغيرا بلا اسم، كنا في البداية نتذاكر فيه الدروس التي كنا نتلقاها من العلامة السيد حسين العالم. ثم تطور إلى نشاط أدبي عام، بما فيه من مشاطرة الشعر العربي، والمساجلات الأدبية، وكتابة الإنشاءات باللغتين العربية والإنكليزية، حول مواضيع كنا نحددها مسبقا في جلساتنا بالنادي، وكانت تتضمن إنشاءات مرتين في الأسبوع، إحداها باللغة العربية والأخرى باللغة الإنكليزية.

أما أنا فكنت أستقي مادتي من المعلومات من الكتب الكثيرة الموجودة في مكتبة المرحوم والدي العلامة. وقبل أن أكتب الإنشاء، كنت أقوم من نومي، قبل أن يمسح الفجر عن وجهه صبغة الظلام، وأكوّن في مخيلتي إطار معلوماتي عن الموضوع، ثم أصلي وأعبد حتى أنام. وفي الصباح عندما كنت أقوم من نومي، أبدأ في الكتابة فورا، قبل أن أفتقد ما سجلته في ذاكرتي.

وعندما أرجع في الزمان إلى الوراء، أتذكر صديقين حميمين من هذه المجموعة وهما حسن عبد العلي ومحمد علي (ماستر)، وقد طواهما الرمس، وهما الآن مقبوران تحت الركام، ولا أتمالك نفسي من ذرف الدموع والترحم عليهما، والباقون على الطريق لاحقون.

وكان ذلك أول عهدي بنشاط فكري جماعي، والذي كان يلح بي الشوق إلى أمثاله في خلال أيام حياتي، إلى أن دخلت مدرسة العرفان، فوجدته بحرا خضما مترامي الأرجاء، من لبن وخمر وعسل مصفى، ولا زلنا نتناول منه صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب، فهل من شائق يتمناه!!!

البيئة الجغرافية التي نزل بها العلامة ضيفا

البيئة الجغرافية التي نزل بها العلامة السيد حسين (العالم) ضيفا في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، تختلف عن البيئة التي عليها سلطنة عمان اليوم، للتغير العظيم الذي طرأ عليها، وقفزات التطور التي شاهدتها منذ عام ١٩٧٠ للميلاد، العام الذي بزغ على السلطنة عهد جديد، هو عهد صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد بن تيمور آل سعيد حفظه الله.

ولذلك نشرح في الفصول الآتية الوضع الذي كانت عليه سلطنة عمان في الثلاثينيات من القرن العشرين. ونستقي المعلومات اللازمة عن كتاب الرحالة محمد علي خان سديد السلطنة مينابي بندر عباسي الذي زار عمان في حوالى عام ١٩٠٥ للميلاد، والذي دوّن مشاهداته في كتابه «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر».

أوصاف مطرح في أوائل القرن العشرين

وصل العلامة السيد حسين (الذي لقب لاحقا بالعالم) إلى مطرح في أوائل الثلاثينيات، وكانت أوصافها لا تختلف عما كانت عليه في الربع الأول من القرن العشرين. يذكر محمد علي خان سديد السلطنة في كتابه «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر» أوصاف مطرح في عام ١٩٠٥ للميلاد بما يلي: -

إن مطرح من الموانئ المعتبرة في إمارة مسقط، وتقع في الشمال الغربي من مدينة مسقط. يمكن الذهاب من مسقط إلى مطرح عن طريق البر، وأيضا عن طريق البحر، ولكن يستعمل البحر عادة لهذا السفر[١]، وذلك بوسيلة القارب الذي يسمونه (هوري) والتي تسير في البحر بالمجاديف.

ويأخذ السفر بالهوري ثلاثين دقيقة، ويكون هناك رجلان للتجديف - عشرة دقائق من مسقط إلى مكلا مخزن الفحم (وهي غير المكلا الواقعة في حضرموت)، وبعدها بخمسة دقائق إلى كلبو، وبعدها بعشرة دقائق إلى مطيرح مرورا بالدوحة وريام، وبعدها بخمسة دقائق إلى مطرح.

ويقع في شمال بلدة مطرح البحر، وتقع الجبال على الغرب

---

(١) في هذه الأيام (عام ٢٠٠٦ للميلاد) يستعمل الطريق البري الذي يسمى شارع الكورنيش.

والشرق والجنوب منها. وتقع قرية طويان على الغرب من مطرح. والبوابة على غرب مطرح تسمى بوابة جيرو، وبعدها تأتي بوابة طويان، وعلى جنوب طويان تقع بوابة المصاعيب. وعلى الغرب من مطرح، قرب قلعة مطرح، تقع جمارك مطرح ويسمونها (الفرضة). وعلى جنوب (الفرضة) تقع السوق. وعلى امتداد الشمال والجنوب تنحرف السوق إلى ناحية الغرب، وثلاثة أرباع السوق تمتد من الشرق إلى الغرب. وعلى ساحل البحر وبين (الفرضة) وسور الحيدراباديين[1] (سور اللواتية)، يقع منزل الهندوسي رطنسي. وعلى شرق باب طويان وباب المصاعيب، توجد (فرضة) أخرى، تستعمل كجمارك للواردات من داخل عمان. وعلى شمال هذه (الفرضة) يقع ميدان عام يعرف بالعرصة حيث تباع المنتجات الواردة من داخل عمان.

والحيدراباديون قد بنوا في سورهم استحكامات قوية، وعلى الضلعين من جنوب السور يوجد برجان، وطول جنوب السور ٢١٠ قدم، وطول شمال السور الواقع في مقابل البحر ٢٠٠ قدم، وطول غرب السور ٢٤٠ قدم. أما شرق السور فهو قسمان: كل قسم طوله ٨٧ قدم. وللسور بوابتان: إحداهما في ناحية الجنوب وتعرف بباب الأموات، ويحمل الأموات من خلال هذا الباب إلى المقبرة، والثانية في ناحية الشمال مقابل البحر. وقد بنى هذا السور سيد حمد بن سعيد البوسعيدي من بيت المال.

وأكثر سكنة بلدة مطرح من الحيدراباديين، وعددهم من الإناث والذكور يبلغ حوالى ١٠٠٠ نسمة، وكلهم يسكنون في هذا السور. والثلث منهم يحملون جنسية مسقط (سلطنة عمان حاليا)، في حين أن الثلثين منهم يحملون الجنسية البريطانية (والأصح صفة أشخاص يتمتعون

---

(١) كانت تسمى من البداية (سور اللواتية).

بالحماية البريطانية). أكثر رجالهم شيعة أصوليون، في حين أن أكثرية نسائهم يتبعن مذهب الآغا خان المحلاتي _ وهم شيعة الإسماعيلية النزارية _ المذهب الذي كان يعمهم في السابق. ويوجد في السور ٣٣٠ منزلا بعضها غير مسكونة. وفي كل صباح يخرجون إلى العاصمة مسقط لمزاولة تجارتهم، ويرجعون مساء إلى مطرح. عدد دكاكينهم في مسقط ٤١ دكانا، وفي مطرح ٦٨ دكانا. وفي هذه القبيلة يوجد تجار معتبرون والذين يتاجرون بالأسلحة وغيرها.

وتوجد في مطرح ٤٣٤ دكانا، منها ١١ دكانا للهندوس، وثلاثة دكاكين للقصابين، و ٢١ دكانا لصانعي الحلوى. وتوجد في مطرح، وتوابعها مثل المطيرح وريام وأربق، ١٣٣ قارب (الهوري) لحمل المسافرين، و ٣٥ قارب لحمل البضاعة، وحوالى ٤٥ قارب لصيد الأسماك، وذلك في حين سفري إلى هناك (عام ١٩٠٥ للميلاد).

وكل المحصولات والمنتجات من داخل عمان ترد إلى مطرح أولا، ومنها تحمل إلى مسقط. والقوافل التي تحمل الفواكه وغيرها تدخل من بوابة طويان، وترد إلى (العرصة) للمزايدة على بضاعتهم. وهناك تشتري تجار مطرح وسكنتها المنتجات العمانية، وبعد المزاد تحصل الحكومة خمس بيسات عن كل مائة بيسة كرسوم جمركية، بالإضافة إلى عشر بيسات عن كل حمولة جمل، وست بيسات عن كل حمولة حمار. وتجارة التمر والتمر اليابس (الخارك) تزاول في مطرح، وتشتري سكان داخلية عمان احتياجاتهم من الأرز والقهوة والتوابل والسكر وقماش القطن من مطرح نفسها، ولا يشترون من مسقط إلا نادرا».

أوصاف العاصمة مسقط في أوائل القرن العشرين

ويذكر محمد علي خان سديد السلطنة في كتابه «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر» أوصاف العاصمة مسقط في عام ١٩٠٥ للميلاد بما يلي: -

«في سفر ابن بطوطة إلى عمان كانت العاصمة هي نزوى، وميناء (فرضة) عمان كانت بندر قلهات. وبعد الغزو البرتغالي انتقل الميناء إلى مسقط، وحينما أخرج اليعاربة البرتغاليين من موانئ عمان، أصبحت مسقط هي دار الإمارة أو العاصمة.

يقع البحر على شمال مسقط، وعلى الشرق والغرب والجنوب تحيط بها الجبال. وعلى ضلع شمال شرق مسقط، على رأس جبل، تقع قلعة الجلالي، وعلى ضلع شمال الغرب، على رأس جبل آخر، تقع قلعة الميراني. وعندما تصل السفينة إلى بندر مسقط تكون قلعة الميراني على يمينها وقلعة الجلالي على يسارها، وينسبون بناء القلعتين إلى البرتغاليين. ومحافظو القلعتين من البلوش، وهم من سكان مسقط. أصحاب الجنح الصغيرة يحبسون في قلعة الميراني، وأصحاب الجرائم يحبسون في قلعة الجلالي. توجد في قلعة الميراني ١٧ عربة مدفع من الطراز القديم، وتنطلق أصوات المدافع في الأعياد وغيرها من قلعة الميراني.

ومدينة مسقط محاطة بسور، وعلى الشرق توجد بوابة تعرف بالباب الكبير، وعلى السور الشرقي توجد أربعة أبراج. وعلى الجنوب توجد بوابة تعرف بالباب الصغير، وعلى السور الجنوبي توجد ثلاثة أبراج. طول السور الجنوبي ٧٠٠ قدم، وطول المدينة من الشمال ١٠٥٠ قدم، منها ٤٠٠ قدم في مقابل الجبل وقلعة الميراني، في حين أن الباقي وهو ٦٥٠ قدما في مقابل البحر. والسور الغربي يشكل عرض المدينة، وطوله ٤٩٣ قدما. وخارج جنوب السور يوجد شارع، وعلى جنوب هذا الشارع، يبدأ من المغرب مستشفى، ثم الزقاق، ثم ساحة كرة القدم للأوروبيين، وبعدها القنصلية الأمريكية، والتي استأجروها من السيد يوسف الزواوي بإيجار ٢٠٠ ريال شهريا، وعرض هذه القنصلية الذي يقع على الشارع ٣٠ قدما. وبعدها زقاق، وينتهي الشارع إلى نهاية هذا الزقاق، والتي تبعد ٦٠ قدما عن سفح الجبل على شرق مسقط. وعلى جنوب القنصلية الأمريكية وساحة كرة القدم يوجد زقاق، وعلى جنوب هذا الزقاق إلى شرق القنصلية، توجد مباني تتعلق بالسيد يوسف الزواوي وهو من تجار مسقط.

سكان مسقط في داخل البلدة وخارجها لا يتجاوز عددهم العشرة آلاف نسمة، منهم من البلوش حوالى ٤٠٠٠ ومن الإيرانيين ١٧٤ ومن البحارنة ٢٠٠ ومن الهندوس ٥٣ ومن الهنديين المسلمين ١٣ نسمة. هذه الإحصائية أخذتها في عام ١٣٢٣ للهجرة، عندما تواجدت في مسقط (عام ١٩٠٥ للميلاد)».

ويستطرد محمد علي خان سديد السلطنة قائلا: ـ

«في عام ١٨٩٦ للميلاد انتشر الطاعون في الهند، وأوجد تحت مراقبة البريطانيين نظام الحجر الصحي على مستوى الخليج كله. وفي مسقط مكان المحجر الصحي معروف، وهو يقع على شرق مسقط، ويبعد بالقارب حوالى ربع ساعة، ويسمونه أيضا (حرامي) و (حرامل).

كل صلاحيات المحجر الصحي تقع في يد طبيب القنصلية البريطانية، والرواتب تستلم من إمام مسقط. ويعمل فيه أربعة من البلوش، كل واحد منهم يستلم عشر روبيات شهريا، ويرأسهم بلوشي آخر يستلم ١٨ روبية شهريا، ويرأس إدارة المحاجر الصحية، على مستوى عمان، رجل عربي يستلم ٤٠ ريالا شهريا. إدارة الدخل والمصاريف في المحاجر الصحية تقع في يد حكومة مسقط.

توجد في داخل البلدة خمسة مساجد لأهل السنة والأباضة، ومسجد واحد للشيعة، وفي خارج البلدة مسجد واحد للشيعة، ومسجدان للبلوش وهم على المذهب الشافعي.

وكبار القضاة في مسقط ـ وهم على المذهب الأباضي ـ خمسة: سعيد بن ناصر، محمد بن حمد، سليمان بن محمد بن حمد، محمد بن سعيد بن ناصر ـ وهم من بني كندة ـ والخامس هو صالح بن عامر الطيواني. وجدير بالذكر أن محمد بن سعيد هو أستاذ سيد تيمور الإمام الحالي لمسقط.

يوجد في مسقط ٤٥٠ دكانا، ونادرا ما تجد المحليين في أهل الكسبة، منها ١٥ دكانا لصناعة الحلوى، وحلوى مسقط معروف ولذيذ، ولكن حلوى نزوى ألذ منه. ويبيعون منا واحدا من الحلوى بريالين في مسقط. ويدفع مالكو الدكاكين ثلث الإيجار إلى الحكومة. واثنا عشر نفرا من آل بو سعيد قد عينوا محافظين للسوق، وكل واحد منهم يستلم ثلاث ريالات شهريا. ويدفع كل صاحب دكان إلى الحكومة شهريا ثمان ريالات ونصف لرواتب المحافظين وحق الحفاظ على السوق.

الأوزان المستعملة في مسقط كالتالي: ـ

١ ـ **توله**: تساوي ثلث مثقال أو وزن روبية إنكليزية واحدة.

٢ ـ **من**: تساوي ٢٤ قياسا، وكل قياس يساوي وزن ست

ريالات، وكل ريال يساوي سبعة ونصف مثقالا. فلذلك يكون كل (من) يساوي ١٠٨٠ مثقالا.

٣ ـ **حرف**: يزنون به الذهب. وكل روبية إنكليزية تساوي ثلاث حرف وربع.

٤ ـ **فره**: (على وزن درة) ويزنون بها الشعير والقمح والذرة ولوبيا وسائر الحبوبات. وتساوي الفره ٤٠ بالي.

٥ ـ **بالي**: يزنون به الأرز وكل بالي يساوي خمس قياسات.

٦ ـ **بهار**: يزنون به التمر والحطب، وكل بهار يساوي ٢٠٠ منا. ويزنون به الملح أيضا، ولكن كل بهار من الملح يساوي ٤٠٠ منا.

٧ ـ **من دبي**: ويعادل ثلث منا، ويزنون به السكر ودهن الطعام وحب العزيز (البادام).

٨ ـ **فراسله**: ويعادل عشر منا، ويزنون بها السنوت الأسود الكرماني (زيره) والمحلوج ـ وهو القطن قبل حلاجته.

بدأ سك العملة المعدنية في عهد السيد تركي بن سعيد، وكانوا يسمونها البيسة. وكان السك يعهد به إلى حكومة الهند في مقابل ٥٠٠ ريال كإيجار سنوي، وكانت البيسة تصنع من معدن النحاس. وكل ريال يساوي ٢٨٥ بيسة، وكل روبية تساوي ١٦٠ بيسة ـ وعندما يقل عرض الروبية يرتفع السعر إلى ١٩٠ بيسة لكل روبية ـ وهناك أيضا بيسة إنكليزية، وكل روبية تساوي ٦٤ بيسة إنكليزية، ويبقى السعر ثابتا.

والعملة النقدية الرائجة هي الروبية والريال، والروبية هي عملة الهند وبريطانيا، ويعادل وزنها ثلاث مثاقيل من الفضة. أما عملة الريال فلها قيمتها الذاتية ـ لا القيمة الإعتبارية ـ وذلك لقيمة الفضة الموجودة في العملة. فلذلك يجوز سكها في أي مكان، وتقبل في كل الجزيرة

العربية وعمان. وكل ريال يعادل وزنه سبع مثقال ونصف، وكل مائة ريال تساوي ١٤٦ روبية ـ والسعر قابل للإرتفاع والإنخفاض.

سكان مسقط يستفيدون من الآبار لتأمين ماء الشرب. وعلى ناحية الغرب خارج السور، توجد منطقة تعرف بالطويان، فيها ١٦ بئرا يحتوي ماء عذبا زلالا. وكل قربة ماء تباع بعشر بيسات. والطويان منطقة خضراء وهي متنزه للأوروبيين.

وعلى الشرق خارج السور، يوجد برج محكم يسمى (راوية)، بني على سطح الأرض، ويبعد ١٠٠٠ قدم عن الباب الكبير. ويقع على الشرق من هذا البرج بئر كبير، يسحب الماء منه بشكل متواصل ١٢ ساعة في اليوم، ثم يجري الماء في الفلج، الذي بني من الحجارة والاسمنت، إلى البيوت الحكومية.

والهواء في مسقط معتدل ومريح في برج الميزان والعقرب، المعادل لأكتوبر ونوفمبر، وبارد في القوس والجدي والدلو، المعادل لديسمبر ويناير وفبراير، ومعتدل ومريح في الحوت والحمل والثور، المعادل لمارس وإبريل ومايو، وحار في برج الجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، المعادل ليونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر.

وتقع المقبرة الحكومية على الجنوب من برج الراوية، ويحيط بها سور مبني من الحجارة بارتفاع قامة الإنسان. وحتى عام ١٣٢٣ للهجرة عندما تواجدت في مسقط، كان هناك قبر للسيد تركي بن سعيد ـ الإمام السادس من آل بو سعيد ـ وعليه لافتة المرمر، ووفاته في عام ١٣٠٥ للهجرة. حكم ١٧ سنة وثمانية أشهر، وهو أول إمام يدفن في مسقط. وهناك قبر للسيد فهد بن تركي، ثالث أولاد السيد تركي، ووفاته في عام ١٣١١ للهجرة. وهناك أيضا قبر للسيد عبد الله بن محمد بن تركي، ووفاته في عام ١٣٠٣ للهجرة، وقبر لسيف بن حمدان من الحضارمة، وكان

واليا على مطرح، وقائد الجيش في عهد السيد فيصل بن تركي، الذي أمر بدفنه في مقبرة عائلة آل بو سعيد، من فرط حبه وتقديره لقائد جيشه.

وهناك مدرسة واحدة خارج الباب الكبير أسسها المبشرون الأمريكان، ولكن ليس عليها إقبال يذكر. فهناك تسع تلامذة من الأطفال يدرسون الإنكليزية والعربية مجانا، ومدير المدرسة قسيس يسمى كانتن، وهو يسافر أكثر الأحيان إلى داخل عمان لنشر الكتب المقدسة.

ويوجد في مسقط مستشفى تابع للقنصلية البريطانية، ويقع على الجنوب من مبنى القنصلية، وفيه طبيب هندوسي وآخر صيدلي هندوسي يسميان داس وسنت رام، تحت رئاسة طبيب القنصلية، الذي يأتي إلى المستشفى ساعة في كل يوم، كي يصدر التعليمات اللازمة. ويوجد فيه خمس غرف: واحد يستعمل كمطب، والثاني للدواء، والثالث هو منزل الصيدلي، والرابع والخامس للمرضى، وتوجد فيهما تسع أسرّة.

حكومة مسقط تملك مدفعا واحدا صغيرا جدا يسمى (كروب) ذا مائة رصاصة، وقد استلمته هدية من فرنسا، وهو موجود في داخل الحكومة. يعمل عليه ٢٤ مدفعيا، معظمهم يجلبون من إيران، وخمسة أفراد أصحاب مناصب. ويطلق المدفع في مناسبات السلام الوطني.

علم الحكومة يرفرف على دار الإمارة، وفي عام ١٣٢٣ للهجرة عندما تواجدت في مسقط، رأيت العلم منصوبا على الأرض أيضا. لون العلم أحمر وليس فيه علامة.

أهل حضرموت يسمونهم حضارمة، ويوجد حوالى ٦٠٠ نفر من الحضارمة في خدمة الحكومة، وهم مسؤولون عن القلاع (غير الميراني والجلالي) والبروج وأبواب مسقط ومطرح ونزوى. وللمحافظة على أبواب مسقط يشاركونهم ٢٠ بدويا أتوا من نجد، ويعرفون بعرب الغربية».

أوصاف القرى على مقربة من مطرح ومسقط في أوائل القرن العشرين

١ ـ زبادية: تقع قريبا من برج الراوية في شرق مسقط، وأكثر سكانها من البلوش، ويوجد فيها بئر عميق، والماء فيها أعذب من أي منطقة أخرى. والهندوس قد بنوا فيها معبدهم.

ومن مسقط إلى مطرح تمر على القرى التالية: ـ

٢ ـ مكلا ومخازن الفحم الحجري للسفن الحربية: تقع على الساحل بين مسقط وكلبو، وعلى بعد عشرة دقائق من مسقط، بواسطة القارب (الهوري)، ومنها إلى كلبو خمسة دقائق. توجد فيها مخازن لألف طن من الفحم الحجري، لكل من بريطانيا وفرنسا. وتخزن حكومة مسقط ٥٠٠ طن من الفحم الحجري في برج (صيره) في مكلا. هناك مقاول اسمه نصيب، وهو من البلوش، يوصل الفحم إلى مكلا، ويزود السفن الحربية البريطانية. أما فرنسا فعندها موظف مقيم في مسقط، وهو مسؤول عن أمور الفحم

٣ ـ كلبو: تقع على الساحل بين مسقط ومطرح. السفر إليها من مسقط تأخذ ١٥ دقيقة بالقارب (الهوري)، ومنها إلى مطرح أيضا ١٥ دقيقة. توجد فيها عشرة منازل ومسجد واحد. والهندوس قد بنوا هناك غرفة يحرقون فيها موتاهم.

٤ ـ **دوحة**: تقع بين كلبو ومطرح، وفيها مسجد واحد. يسكن فيها حوالى أربعين عائلة.

٥ ـ **ريام**: تقع بين دوحة ومطرح، ويسكن فيها سبع عائلات.

٦ ـ **مطيرح**: تقع بين ريام ومطرح، وهي قرية صغيرة جدا، وتبعد خمسة دقائق عن مطرح بالقارب (هوري).

وعلى الجانب الآخر من مطرح، يسافرون بالقارب إلى دارسيت في عشرين دقيقة: من مطرح إلى أربق خمسة دقائق، ومن أربق إلى شطيفي خمسة دقائق، ومن شطيفي إلى دارسيت عشرة دقائق.

٧ ـ **أربق**: يمكن رؤيتها من مطرح ومن البحر.

٨ ـ **شطيفي**: يسكن فيها عشر عائلات، وبينها وبين أربق جبل.

٩ ـ **دارسيت**: تعرف بغيب الملك أو عنب الملك. تتمتع في الصيف بهواء ممتاز جميل، ولذلك يقيظ فيها أهالي مطرح ومسقط في فصل الصيف. وتوجد فيها آبار ومياه عذبة ومزارع. الحيدراباديون (اللواتية) يملكون فيها مزارع في منطقة معينة. ولا يوجد فيها ساكنون دائمون.

١٠ ـ **بوشر**: تقع على الجنوب الغربي من مسقط، وتبعد عنها ست ساعات برا (على الحمار). وتوجد فيها عيون ماء زلال، وأيضا عيون مياه معدنية يستحمون فيها الناس. وأكثر المزارع والنخيل فيها تخص آل بوسعيد، عائلة إمام مسقط.

١١ ـ **بثرين**: تقع على الجنوب الغربي من مسقط، وتبعد عنها ١٢ ساعة برا. وتستقي الناس والنخيل من ماء الأفلاج.

١٢ ـ **بندر سيب**: توجد فيها قبيلة الحرث وأفراد من آل بوسعيد. ويوجد فيها والي اسمه سيد هلال بن حمد السمار. وأكثر سكانها من

العجم والبلوش. والمنطقة بين سيب إلى صحار تسمى الباطنة (طبعا الباطنة اليوم تشمل المناطق التي بعد صحار أيضا كلوى وشناص مثلا).

١٣ ـ **بندر بركه**: يقيم فيها من العجم ومن كل القبائل، وتوجد فيها قلعة محكمة، وقد أسست فيها إدارة جمركية.

١٤ ـ **بندر سوادي**: ساكنوها من البدو وهم ٦٠٠ نفر من آل حكمان بن اسماعيل.

١٥ ـ **بندر مراغه**: ساكنوها حوالى ألف نفر من بني جراد، وشيخهم محمد بن مسعود.

١٦ ـ **مأمن نوافل**: ساكنوها حوالى ٦٠٠ نفر من قبيلة النوافل، وشيخهم علي بن خلفان.

١٧ ـ **بندر مصنعة ـ بندر سويق ـ بندر خابورة ـ بندر صحم**: أكثر سكانها من آل سعد، وفيها أيضا كثير من العجم.

١٨ ـ **بندر صحار**: المسافة بينها وبين مسقط عن طريق البحر ٨٥ ميل إنكليزي، وفي صحار تنتهي الباطنة. وصحار من المدن القديمة في العالم، ومن الموانئ العمانية المعتبرة، فيها الكثير من أشجار المانجو والليمون، ويصدر منها الليمون اليابس إلى المناطق المجاورة. يسكن فيها حوالى ألفين من العجم، وكثير من القبائل الأخرى. ومن بدائع وعجائب الله جلت قدرته في صحار، أنه حينما يقع الجزر، تظهر عيون مياه عذبة على الساحل، تستقي منها ساكنو صحار».

عهد العائلة السعيدية الكريمة
الذي عاش العلامة في ظله

عاش العلامة السيد حسين الموسوي (الملقب بالعالم) في عهد هذه العائلة السعيدية الكريمة وتحت رعايتهم، يحظى بعطفهم واهتمامهم الخاص. وكما ذكرنا في فصل سابق في رواية أحد الموثقين فإن جلالة السلطان السيد سعيد بن تيمور كان يوليه عنايته ورعايته واهتمامه الخاص، وأنه مرة أرسل عسكرين إلى منزله للمحافظة عليه من بعض أفراد القبيلة الذين كانوا يؤذونه ـ من دون طلب من العلامة وحتى من دون علمه. إلا أن العلامة صرف العسكريين بكل لطف قائلا: «إن أذية بعض الأفراد ما هي إلا (سحابة صيف عن قليل تقشع) وأنه سوف يتصل شخصيا بمعالي الوالي».

وفي اليوم التالي كتب العلامة رسالة شكر بليغة إلى صاحب الجلالة يشكره فيها على اهتمامه وعنايته ورعايته، وعلى خصاله الرفيعة وأخلاقه السامية، تحقيقا ومصداقا لقول الرسول الأعظم ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه»، وقال إنه يعتبر هذه القبيلة مثل أسرته وأولاده، وهو يسعهم بحلمه ورحابة صدره. وقال بأن هؤلاء الأفراد القلائل الذين يؤذونني هم كأبنائي، أغفر لهم زلاتهم، وأعفو عن عثراتهم، وأتغاضى عن سبابهم وشتائمهم، واستطالة لسانهم، وبذاءة أقوالهم وهفواتهم، وأصفح عنهم الصفح الجميل، وأحسن إليهم إن هم أساؤوا إلي.

أو أن صاحب الجلالة كان ينصحه بأن العلماء يزارون ولا يزورون ـ كما مر ذكره. أو أنه أصدر أوامره إلى الدوائر المختصة بأن العلامة السيد حسين العالم يستطيع بكل حرية أن يجري أي صيانة في منزله، أو حتى أن يبني بيتا، من دون الحاجة إلى تصريح رسمي ـ كما مر ذكره أيضا.

إنسانية سلاطين آل سعيد حكام سلطنة عمان

في هذا الفصل أوجز بعضا من فضائل هذه السلالة الكريمة ـ عائلة آل سعيد ـ ومكارم الأخلاق التي سجلت لهم وبقيت في ذاكرة التاريخ ـ وذلك من مصادر شفوية والكتاب الذي كتب قبل حوالى قرن باسم «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر» لمحمد علي خان سديد السلطنة.

روى لي أحد الموثقين نقلا عن الحاج سلطان محمد فاضل بأن أحدا من اللواتية أصابته حمى شديدة، ولم يكن لديهم الشاي الأبيض لمعالجة الحمى ـ يظهر أنه في تلك الأيام كانت الحمى تعالج هكذا ـ فأخذوه في القارب من مطرح إلى مسقط إلى بيت جلالة السلطان السيد فيصل بن تركي آل سعيد. فطرقوا بابه، فخرج الحارس متسائلا من هم. فقالوا له أين الحباب ـ يعني السيد ـ فأخبر الحارس السيد فيصل بذلك. فسمح لهم فورا بالدخول سائلا عن حاجتهم. فقالوا هذا الشخص أصابته حمى شديدة ولا يوجد عندهم الشاي لمعالجته. فأمر بالشاي الأبيض فأعطاهم إياه، فشرب المريض الشاي فشفي فورا. وإنما يحمل الكل على أهل الفضل!

ويذكر محمد علي خان سديد السلطنة في كتابه «تاريخ مسقط وعمان والبحرين وقطر»: ـ

«كانت لأحد تجار مسقط، واسمه عبد الله المؤمن، سفينة شراعية تسمى (عباسي)، وكانت تسافر بين عمان والهند. وفي إحدى أسفارها

كانت تحمل ٧٠٠٠ كيس (جونية) من الأرز، وكان ربان السفينة ابن أخيه راشد المؤمن. وفي طريقها من كراجي إلى مسقط غرقت السفينة. واتفق أن كانت في نفس الموقع آنذاك سفينة تسمى (فيض العالم)، تتعلق بالسيد سعيد نفسه (جلالة السلطان سعيد بن سلطان)، وكانت قادمة من كلكتا بالهند، وتحمل على ظهرها ١٢٠٠٠ كيس من الأرز. فأنقذت هذه السفينة راشد والآخرين الذين كانوا معه، وأوصلتهم إلى مسقط. وكانت العادة المتبعة في ميناء مسقط، أن أي سفينة تصل إلى هناك، يكون المسؤول الحكومي هو أول من يزورها.

وعندما وصلت سفينة (فيض العالم) إلى ميناء مسقط، أخبروا السيد سعيد بقضية غرق السفينة (عباسي). فبعث فورا برسالة إلى عبد الله المؤمن يهنئه بنجاة ابن أخيه راشد والآخرين الذين كانوا على متن السفينة (عباسي)، وذكر أنه يهب له سفينته

(فيض العالم) وما عليها من ١٢٠٠٠ كيس من الأرز، خاتما الرسالة بهذه العبارة:

«تفضل بالقبول واعذر وسامح». وكانت قيمة سفينة فيض العالم ٩٠٠٠٠ روبية وقيمة الأرز ٦٥٠٠٠ روبية».

من يفعل العرف لا يعدم جوائزه   لا يذهب العرف بين الله والناس

وكتب محمد علي خان سديد السلطنة في مناسبة أخرى: «ويقال أن أحدا من السادات طلب منه ٥٠ ريالا، وكتب السيد سعيد له سهوا ٥٠٠ ريال. وعندما ذكره أمين الصندوق بسهوه وخطأه، قال له: «إنه يستحق ذلك ويدفع له ٥٠٠ ريال».

وكتب محمد علي خان سديد السلطنة عن العلاقات التجارية بين عمان وفرنسا قائلا: «عندما هزم الإنكليز قبيلة القواسم، وصفا لهم الجو واستقر لهم الأمن والأمان في البحر، غيروا من سلوكهم تجاه حكومة

مسقط، وأظهروا الجفاء للسيد سعيد. فاستاء السيد سعيد من ذلك، وبدأ يتقرب إلى بلاط نابليون الثالث ملك فرنسا. وفي عام ١٨٤٤ للميلاد وقع المعاهدة التجارية مع فرنسا، وأعطاهم نفس الحقوق التي كان يتمتع بها الإنكليز. وبعد ذلك أرسل السيد سعيد هدايا مع الحاج درويش بن مشكور إلى نابليون الثالث، وهي عبارة عن سيف مرصع ترصيعا خراسانيا غالي الثمن، وعدة من الفرش الغالية، وأشياء أخرى ثمينة.

وفي طريقه إلى فرنسا توقف الحاج درويش بن مشكور في مصر، وانتزع المجوهرات التي كانت على السيف، ووضع بدلها مجوهرات رخيصة الثمن، ثم سلمها إلى البلاط الفرنسي. وهناك اكتشفوا أن مواصفات السيف لم تكن كما ذكرها ممثلهم في مسقط، فأخبروا ممثلهم بذلك، ووصل الخبر إلى السيد سعيد. وكان عند السيد سعيد سيف آخر بنفس المواصفات، فأرسله فورا إلى ممثل فرنسا في مسقط، معتذرا بأن الخطأ صدر عن بلاطه. وعاش الحاج درويش طويلا، ولكن السيد سعيد لم يعاقب ذلك الخائن ولم يطالبه قط، بل وحتى لم يقطع عنه الراتب الذي كان يرسله إليه شهريا. وعندما توفي الخائن، وعلى الرغم من أنه لم يخلف ولدا، استمر هذا الإنسان النبيل الشهم في إرسال الراتب إلى محمد بن أحمد، ابن أخي درويش بن مشكور.

وكتب محمد علي خان سديد السلطنة عن زواج جلالة السلطان سعيد بن سلطان بفتاة إيرانية، وذكر مسلك جلالة السلطان الأسطوري من الشهامة والخلق الكريم، مع الفتاة وأمها، قل نظيره في التاريخ قائلا: ـ

«كان زكي خان (من إيران) قد رتب في الخفاء أمر زواج السيد سعيد من ابنة حسين علي ميرزا فرمانفرما ـ أمير ولاية فارس في إيران. ولذلك أرسل السيد سعيد أربعة من أعيان الشيعة وهم: حاج علي بن فاضل وحاج عبد الأمير وحاج موسى وسيد مصطفى إلى شيراز، وشهدوا هناك بأن السيد سعيد يتبع في الباطن طريقة التشيع، ويطلب من

حسين علي ميرزا فرمانفرما يد ابنته، فوافق المذكور على ذلك. وجرت صيغة العقد في شيراز.

وحملوا العروس في أبهى مظاهر الاحترام والتكريم إلى بندر عباس. وأتى السيد سعيد إلى بندر عباس مع عشرة سفن مشحونة بالنفائس والتحف والهدايا، وتم الزفاف هناك. وبعد ذلك رجع السيد سعيد برفقة العروس وأمها وخمسة من أبناء الأمراء الإيرانيين إلى مسقط. وكان يوم ورودهم إلى مسقط يوما مشهودا، رفعت فيه الأعلام على القلاع، ودوت على مدى ثلاثة أيام أصوات المدافع بالتواصل من البحر والبر. وفي هذه الأيام أكرم السيد سعيد أكثر أهالي مسقط بالهدايا والتحف. وبنى للعروس في وطية ـ والتي تبعد فرسخا واحدا من مسقط ـ قصرا ملكيا، وحديقة غناء، وأحدث فيها الأفلاج.

وفي عام ١٢٤٨ للهجرة اشتاقت البنت إلى والدها، وسمح لها السيد سعيد بالسفر. وكتب إلى الحاج ميرزا محمد أن يستأجر ـ على حساب السيد سعيد ـ ٤٠٠ بغلا لحمل العروس من بندر عباس إلى شيراز. وشايعها السيد سعيد بنفسه إلى بندر عباس، وأغدق عليها من الهبات والهدايا النفيسة، ما لا يعد ولا يحصى، ودفع لها نقدا مائة ألف ريال.

وكان جزاء الحسنة بالسيئة! إذ أن فرمانفرما قلب للسيد سعيد ظهر المجن! وأكره ابنته على الزواج من ابن أخيه، من دون أن يأخذ لها الطلاق من السيد سعيد! وخافت الشيعة المقيمون في مسقط من سخط السيد سعيد. ولكن السيد سعيد لم تظهر عليه آثار السخط والاستياء، لعظمة هيبته ووقاره، ولم يظهر منه أي جفاء حذاء الشيعة، وفي طول حياته لم يتكلم عن هذا العمل الشنيع، ولم ينطق ببنت شفة، إلا مرة واحدة، باح فيها بمكنونات سره إلى الحاج محمد علي ـ جد محمد علي خان سديد السلطنة ـ ولكن ليس في حالة سخط واستياء، بل وعلى وجهه ابتسامة الشهامة.

وفي عام ١٢٥١ للهجرة توفي حسين علي ميرزا فرمانفرما ـ أمير ولاية فارس السابق ـ في سجن محمد شاه، ملك إيران، وانقلبت الآية على هذه العائلة الأميرية في ولاية فارس، وضرسهم الدهر، ودهتهم الشعراء من الدواهي، وبلغ بهم السيل الزبى. وهربت نواب حاجية مع ابنتها ـ زوجة السيد سعيد السابقة ـ إلى بغداد، وكانوا في حال بؤس شديد. ولسان حالهم يقول ما قاله الفرزدق: ـ

فكنت كفاقئ عينيه عمدا فأصبح لا يضيء له النهار

ولسان الحال أبين من لسان المقال.

فكتبت نواب حاجية إلى السيد سعيد مبدية أسفها الشديد عما فعله زوجها فرمانفرما في حقه، واعتذرت إليه. وكتبت بالتفصيل عما تعانيانه من بؤس وشقاء في العراق، وحمل الرسالة الحاج محمد علي المذكور (جد محمد علي خان سديد السلطنة).

وماذا كان رد فعل السيد سعيد!!! لقد سامحهما كأن شيئا لم يقع، وكتب رسالة إليهما تطفح بالملاطفة والمواساة، وأرسل إليهما من طريق البصرة سفينة خاصة فيها نقود كثيرة، وعدة صناديق من لباس الحرير المزركش بالذهب، وعدة صناديق من الظروف الصينية والبلورية، وكما كثيرا من السكر والعنبر والعطور. وقرر لهما راتبا سنويا بمبلغ ١٢٠٠٠ ريال، وعدة صناديق من اللباس والأشياء الضرورية، ترسل كلها إليهما من مسقط سنويا. واستمرت هذه المظاهر من الجود والسخاء حتى عام ١٢٦٤ للهجرة، حينما توفيت نواب حاجية بعد عدة أشهر من وفاة ابنتها».

فعند الرهان تعرف السوابق! وهل يدعى للجلى إلا أخوها! وهل يدعى للعظائم إلا العظيم!!! وكما قال المتنبي: «ويصغر في عين العظيم العظائم».

ويكتب محمد علي خان سديد السلطنة عن تواضع جلالة السلطان السيد سعيد بن سلطان وشجاعته وشهامته، وجوده وسخائه، وعدله بين الرعية، ومداراته واحترامه للناس، وتدينه وحكمته، وحزمه في إدارة أمور الدولة، وعفوه عمن أساء إليه، وإحسانه إلى من أساؤوا إليه، قائلا : -

«عاش السيد سعيد في خشوع وتواضع، وشجاعة وشهامة، وجود وسخاء منقطع النظير، وكان في زمانه فريدا من نوعه، قل أن تجد من أمثاله. كان يذبح الذبائح في عيد الأضحى ويرسلها إلى التجار والأشراف، وفي الأعياد الأخرى كان يرسل الهدايا الثمينة إلى المحترمين من أفراد الشعب في مسقط وزنجبار - كل حسب حالته واستحقاقه. وكان يرسل الفواكه إلى منازل الأعيان والأشراف، وكان يزود سفن التجار بالزاد حينما تقصد السفر. وكان الفقير والغني عنده سواء ويقبل وساطتهم. وعلى الرغم من مرض أوجاع المفاصل، كان يقوم بكل قامته ليحيي الناس بكل احترام وتعظيم.

كان يذهب في أول الفجر إلى المسجد ويؤدي الفريضة والنوافل ويتلو القرآن، وبعدها كان يأتي إلى المجلس ويقابل الخواص. وبعد ساعتين من طلوع الشمس كان يأكل إفطاره، ثم يأتي إلى المجلس العام حيث يقابل الفقير والغني والداني والقصي. ثم يعقد المجلس الخاص حيث يقابل الأعيان والأشراف، وبعدها يقابل أبناء عمومته ويبحث معهم أمورهم الشخصية. ثم يذهب إلى البيت لأداء فريضة الظهر. وبعد أداء فريضة العصر يأتي إلى المجلس، ويقضي وقته فيه حتى ساعة متأخرة من الليل، منهمكا في صبر ورحابة صدر في حل وفصل أمور الناس وقضاياهم. وكان يقضي نهاره وليله على هذا المنوال. وكان يحضر تشييع الجنائز بنفسه، ويدفع المصاريف لمجالس فواتح الأعيان والأشراف.

وكان الشيخ سلطان بن صقر - شيخ قبيلة القواسم - يأتي إليه كل

سنة ويأخذ منه الراتب والهدايا، على الرغم من أن فردا من هذه القبيلة كان قد قتل أباه السيد سلطان. عاش السيد سعيد ٦٧ سنة، وحكم ٥٨ سنة».

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الموانئ بين مسقط والبصرة في أوائل القرن العشرين

ولا يفوتنا أن نذكر الموانئ التي مر عليها العلامة السيد حسين الموسوي العالم في سفره من البصرة إلى مسقط في السفن الشراعية التي كانت سائدة في ذلك الزمان. فالسفينة تبدأ من البصرة ثم تصل إلى الكويت ثم القطيف ثم قطر. ثم بعد ذلك تدخل السفينة الحدود العمانية بدءاً من أبو ظبي إلى جبل غرا إلى درة بكرم، ثم إلى دبي إلى شندقة إلى ليه إلى خان إلى الشارقة، ثم إلى الحمرية وإلى جزيرة ضعاب وإلى أم القوين ورأس الخيمة، ثم إلى رمس وإلى خور خويز وإلى الغليلة ثم إلى الشغم ـ وهنا تنتهي حدود رأس الخيمة ـ ثم إلى غمضة ـ وهنا تبدأ حدود الخصب ـ ثم إلى بخا وإلى جادو وإلى جري وإلى سر زيارت وإلى مخا ثم إلى الخصب، ومن هناك إلى كمزار وإلى دبا وإلى خور فكان وإلى خور كلبا وإلى الملاحة وإلى الخطمة، ثم شناص ولوى وصحار وبركة ثم إلى مسقط. وقد ذكرنا موجزا عن مسقط وعن بركة وعن صحار.

البحر الذي يمتد من الكويت إلى القطيف يسمى عدنان، واللآلئ التي فيها هي من أنفس اللآلئ، ثم تجيء لآلئ البحرين ثم لآلئ عمان ثم لآلئ بنادر اليمن وأخيرا لآلئ سيلان.

والعلامة السيد حسين الموسوي العالم هو لؤلؤة نفيسة أتى إلى عمان من أقاصي بحر عدنان.

مخطوطة من كتاب العلامة السيد حسين العالم باسم المجالس

لقد عثرت في الآونة الأخيرة (حوالى شهر مايو ٢٠٠٦ للميلاد) على مخطوطة قديمة من كتاب للعلامة السيد حسين العالم الموسوي سماه «المجالس» (كتبها السيد منذ حوالى سبعين سنة)، وكانت عند بعض الأقارب ردحا طويلا من الزمن لم ينتبه إلى أهميتها. ولقد ألهمه الله أخيرا بأن يسلم هذه المخطوطة إلي، فوجدت في الكتاب دررا ثمينة من حكمته البالغة، لم يطلع عليها المجتمع حتى الآن، رغم وجوده على ظهرانيتهم منذ أكثر من سبعين سنة. فكنت كما قال الشاعر (ما كان ليلي عن صباح ينجلي). فكانت ليلة اغدودفت، وكان صباحا سماؤه غبطى. وكان الإنتظار كالليل إذا عسعس، وكان الفرج كالصبح إذا تنفس، فلقد تنفست الصعداء!!!

وإني لأظن بأنه لم يكن لينوي نشر هذا الكتاب، لأنه كان يلجأ إلى الكتابة للبث عما في أعماقه من الحكم والمعارف الالهية، لأنه لم يجد آذانا صاغية إلى هذه الدرر في المجتمع الذي حواليه. تماما كما كان يفعل مولانا ومقتدانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حينما كان يلجأ إلى بئر عميق خارج البلدة، عندما يرخي الليل سدوله، ويلقي الظلام أستاره، ليبث في أغواره من أسراره العميقة التي لم تكن النفوس لتتحملها.

فهذه المعارف العالية لا تعيرها الآذان الظاهرية الأهمية التي تستحقها، بل تحتاج إلى آذان باطنية في أعماق وجودك لكي تتلقاها وتستسيغها وتعيرها الإهتمام اللازم. وأنى للمجتمع في أكثريته من هذه الآذان الباطنية!!! فإن أكثرهم لا يعرفون الحي من اللي، ولا يعرفون حقائق الأمور، ولا يجدون القيمة الحقيقية إلا في المصالح الدنيوية والأمور المادية. وإن المعارف العالية بالنسبة إليهم هي زيادة عن الحاجة لا غير، وربما تشدقوا بها في أوقات فراغهم عند هذا وذاك، لإظهار فضلهم الدنيوي، وإثبات أعلميتهم أمام الناس.

وربما تكون عنده كتب أخرى لم نعثر عليها، ففي أول هذا الكتاب مكتوب «الدفتر الثاني»، وعندما سألت عن «الدفتر الأول» لم أجد له أثرا[1].

وهذا الكتاب يدل على مقامه الرفيع، وغزارة علمه التي لم يطلع عليها المجتمع الذي كان يعيش فيه. وأنا لا أسمي هذا «علما» بل هو «فناء في المعلوم». فعادة نجد عند أنصاف العلماء محفوظات ذهنية اكتسبوها بالجد والاجتهاد ويسمونها «العلم». أما عند السيد حسين العالم فهو العلم الذي تجسد في كل وجوده، فصار علما بكل نورانيته يمشي على الأرض، ومن الراسخين في العلم، بكل طهارته وجذباته إلى مبدأ الوجود. وإليك نموذجا من كتابته: ـ

«فعندما يصل العبد إلى هذا المقام، لا يبقى هناك إلا المحبوب

---

(١) نعم في أوائل شهر يوليو ٢٠٠٦ للميلاد حصلت على بعض الكتب القديمة، ومن جملتها مخطوطات أخرى، للسيد حسين العالم. ولكنني سافرت بعدها، وما رجعت من سفري إلا في منتصف شهر أغسطس ٢٠٠٦ للميلاد. وبعدها اكتشفت من بين هذه المخطوطات (الدفتر الثاني) الذي كنت أفتقده. وأيضا وجدت في مخطوطة بأنه ابتاع دفترها الخالي في عام ١٣٤٥ للهجرة، بشلنك ونصف، من ممباسا في شرق أفريقيا ـ أي ما يقرب من ثمانين سنة.

الحقيقي، فكما أن الفراشة عندما تحترق بالنار لا يبقى منها إلا النار، كذلك السالك حينما يفنى في النور، لا يبقى منه إلا النورانية. وعند وصوله إلى هذا المقام، بأي طرف يرنو بنظره لا يرى غير الله، وعندما ينظر إلى نفسه لا يجد لنفسه أثرا، فتخرج الصيحة منه بلا اختياره «لا إله إلا أنا فاعبدوني»، أو «سبحاني ما أعظم شأني»، أو «ليس في جبتي سوى الله تعالى». لماذا يقول ذلك في حين أنه ليس الله؟ يا عزيزي كلما يرنو بنظره لا يرى نفسه... فهو فاني. فماذا يفعل فإنه لا يرى غير المحبوب. وعندها يتكلم لا بلسانه بل بلسان الله يتكلم. أتتعجب من مقالي؟؟؟ في حين أنك تقول إذا حل الشيطان برأس، فإن صاحب ذلك الرأس يتكلم بلسان الشيطان. أليس كذلك؟؟؟ أو تقول إذا شربت قارورة من الخمر، فإن سكر الشراب يظهر منك. أليس كذلك؟؟؟

فيا أيها المسكين أيكون ربك أقل من الشيطان ومن الخمر؟؟؟ فعندما يتجلى نوره في القلب ويحرق قلب المؤمن ويفنيه، فإن ذلك المؤمن يتكلم باللسان الإلهي. أو أنه إذا نور العارف بنوره، وإذا أسكره بخمر الوحدة، أيمكن أن لا يكون العارف متجليا بالوجود الإلهي؟؟؟ فيا عزيزي الحقيقي اذهب والتمسه ...

أوما سمعت قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [**الأنفال**: ١٧] كيف أن يد النبي ﷺ أصبحت يد الله!!! أو ما سمعت «السلام عليك يا ثار الله» كيف أن دم الحسين عليه السلام أصبح دم الله تعالى. هل ترى ذلك بعيدا أن يأخذ بيد أحد محبيه وشيعته ليوصله إلى الرحمن وإلى الفناء فيه!!![١]

---

(١) واسمع ما يقوله مولانا ومقتدانا علي عليه السلام في حديث الشراب: (إن لله تعالى شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا أخلصوا، وإذا أخلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا، لا فرق بينهم وبين حبيبهم).

ولأن كتاب «المجالس» لم ينشر بعد ولا زال في حالة «المخطوطة»، وأن دون تهيئته للنشر عقبات وعقبات[1]، لذلك لا بأس من ذكر مقتطفات من بعض مجالسه رحمه الله في الفصول القادمة.

(١) وذلك لأسباب عديدة أهمها أن أوراقها أصبحت هشة لقدم الكتاب ـ فعمر الكتاب حوالى ثمانين سنة.

هل كان السيد حسين العالم عارفا كبيرا ولم نكن نعرف ذلك؟

نعم لم أكن أعرف حتى مايو عام ٢٠٠٦ للميلاد (قبل حصولي على مخطوطة كتاب المجالس التي خطها بيده)، ولم يكن يعرف أحد في هذا العالم، بأن السيد حسين العالم (قدس سره) كان عارفا كبيرا مغمورا في فسحة هذا الكون الوسيع!!! وهكذا يكون أولياء الله الحقيقيون، كما يقول الله جل وعلا في حديثه القدسي: (أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري)، ويقول الرسول الأعظم ﷺ: «إن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء». فكان والله العظيم ذلك البر التقي الخفي، لا يعرفه غير الله وحده!!!

ويقول الشاذلي قدس سره في حق هؤلاء الأبرار الأخفياء الأتقياء: ـ

«**ومنهم من سترته الأقدار، وحجبته عن الأغيار، لينفرد بالتمكن في حقيقة الأسرار، تعرف كلا بسيماهم، باطنهم مع الحق وظاهرهم مع الخلق**، فهم هم ولا هم هم في الوجود... صفوا وافترقوا في سيرهم سننا... وهم أهل الله وخاصته... حبب إليهم الخلوات، وفتح لهم سبيل المناجاة، فتعرف إليهم فعرفوه، وتحبب إليهم فأحبوه، وهداهم السبيل إليه فسلكوه، فهو بهم وله، لا يدعهم لغيره، ولا يحجبون عنه، **بل هم محجوبون به عن غيره**، لا يعرفون سواه، ولا يحبون إلا إياه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب».

ولقد كتبت ما كتبت من الفصول السابقة في أعوام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠١ للميلاد، ولم أكن أعرف البتة بأنه كان عارفا كبيرا. فما نعرف عنه جميعا أنه مجرد فقيه وعالم الشريعة الإسلامية الغراء، وهكذا المعروف عنه في الأوساط الشيعية في عمان، التي قضى في خدمتهم حوالى خمسين سنة. ولكن خصاله السامية ومكارم أخلاقه، التي ذكرتها في الفصول السابقة والتي يعرفها الناس حق المعرفة، تنبئ بكل وضوح بشخصيته العارفة بالله، وبأنه بكل تأكيد من أولياء الله الصالحين. ولكنه كان في مظهر الشريعة الإسلامية الغراء، لا يحس الناس الذين حواليه إلا بأنه مجرد عالم دين كسائر العلماء.

فإن كل ما ذكرته الآن واضح وضوح الشمس من كتاباتي في بدايات هذا الكتاب ـ اللهم إلا ما ذكرته عن تقديسه للعرفاء كابن العربي في الرسالة التي كتبها لي في أوائل الستينيات من القرن العشرين، أو تقديسه لأخيه العارف الكبير السيد حسن المسقطي، في كلامه للناس الآخرين، الذي سمعته وأنا طفل صغير، وحفر ذلك عميقا في ذاكرتي. ليس هذا فحسب، بل إن كلامه عن كرامات السيد حسن ومقامه الشامخ في العرفان، جعلني أصطبغ بصبغة العرفان، وأنا في ذلك السن الصغير.

فهذه هي صبغة الله التي ذكرها الله في محكم كتابه في سورة البقرة: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]. فهذه الصبغة تتميز بحب الله والميل إليه والتوجه إلى آياته، وأيضا بحب من يحب الله ويميل إليه ويتوجه إلى آياته، بمعنى تقديس العرفاء والإقبال على كل شيء يقال أو يكتب عنهم. ومن أحب شيئا أكثر من ذكره. وهذه الصبغة هي القاعدة التي ارتكزت عليها في مستقبل الأيام لإقبالي المتدفق على العرفان الإسلامي. وهذه الصبغة هي العلم النوراني الذي أشار إليه الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه». وهذا العلم هو الكنز حقا، وأحرى به أن يقال به، تماما كالكنز أحرى به

أن ينفق منه! وهذه الصبغة هي الشيء الوحيد الذي أحبه وأكثر من ذكره. فكما ترى فإنني لا أستطيع الكتابة إلا في هذا الموضوع، فكأنها رسالتي في الحياة!!!

ولا أعرف حقيقة ما هي القوة التي منعتني من نشر الكتاب، رغم أن الكثيرين من قرائي الأعزاء في عمان والقطيف (في السعودية) كانوا يتساءلون لماذا لا أنشر كتابي الذي عنونته آنذاك (السيد حسين العالم ـ علم من أعلام الشريعة الإسلامية)!!! ولم أكن أعطيهم الجواب الشافي، لأني بنفسي لم أكن أعرف لماذا!!!

ولقد تبين الآن أنها كانت قوة غيبية تقول لي (انتظر)، فإن الجانب الأهم من شخصية السيد حسين العالم لما يظهر بعد إلى هذا العالم! فحتى الآن لم يكن هذا الأمر إلا في علم الله وحده، لا يعرفه غيره!!!

والعجيب أن قوة غيبية لعبت دورها العجيب. فلقد أخبرني أحد الأولياء الصالحين (في حوالى مايو ٢٠٠٦) بأنه رأى والدي السيد حسين العالم في كشفه، وليس في المنام، في هيئة نورانية عجيبة، يأتي إليه ويقول له: (اخبر ابني تقي بأن لا يقصر)!!! وكنت في التو اكتشفت مخطوطة كتابه المجالس واطلعت عليها، فقلت له يا أخي إنني اكتشفت بأنه عارف كبير، لأني حصلت على كتابه الذي كتبه بيده الشريفة، واطلعت على محتوياته ومضمونه. فقال: «لو لم يكن عارفا لما جاء في كشفي».

نعم حصلت على هذه المخطوطة، وبدأت في قراءتها ومطالعتها، فوجدت العجب العجاب!!! الشيء الذي دفعني إلى هيجان عجيب لم ألحظ مثله في نفسي قبل ذلك اليوم. فأسرعت إلى تصوير صفحات المخطوطة، وحصلت على بعض الصفحات المصورة. ولكني لم أستطع مواصلة التصوير، لأن المخطوطة كانت قديمة جدا، وأوراقها حمراء

هشة. ومع الأسف الشديد، تفتتت بعض الصفحات لهشاشتها وقدمها، فبدأت بتجليد صفحات الكتاب، كي لا تتفتت الصفحات الأخرى، وكي أعيد الصفحات المفتتة إلى حالتها الأولى، قدر المستطاع، ثم بادرت إلى مواصلة تصوير صفحات هذه المخطوطة.

فقرأت الكتاب واكتشفت عوالم جديدة من شخصية العلامة قدس سره، وعرفت حق المعرفة بأنه كان عارفا كبيرا. أما لماذا لم أكن أعرف هذا الجانب المهم من شخصية السيد العالم؟ فلقد تغربت عن الأوطان لحوالى ٣٥ سنة، وتركت بلدي عمان في سنة ١٩٥٣ للميلاد، وأنا شاب أمرد له من العمر ١٥ سنة، لذلك فلقد عايشته وتواجدت بجانبه فقط في صغري وصباي، ولم يتح لي التعرف جيدا على شخصيته في ذلك السن الصغير. فلو كنت عايشته أكثر فلربما كنت اكتنهت أمره بطريقة ما أثناء مناقشاتي له.

نعم لقد كنت أرجع مرات إلى بلدي عمان، وأقيم فيه لفترة قصيرة، ولكن لم تتح لنا المناقشات، لأننا ـ والدي العلامة وأنا ـ كنا كلانا قليلي الكلام. وقد سألته مرة ـ وأعتقد كان ذلك في عام ١٩٧٥ للميلاد ـ «هل هناك أحد تشرف بزيارة الإمام الحجة ﷺ ورؤيته؟». فأجابني: «نعم إنه في كل زمان يزوره ١٧ فقط من المؤمنين، وكان السيد حسن واحدا منهم ممن تشرف بزيارته ورؤيته». فقلت له: «وهل رأيته أنت؟» فقال في إيجاز شديد: (لا). ويتضح أنه إذا تكلم عن السيد حسن المسقطي، تكلم في حرارة وإسهاب، أما إذا أجبر على التكلم عن نفسه، تكلم في تواضع وإيجاز شديدين. وهكذا يكون أولياء الله الصالحون.

ولم يتطرق إلى ذهني أبدا أنه كتب في العرفان، أو أن له سياحات في العرفان الإسلامي. فلم يخبرني والدي العلامة بذلك، ولا أخبرني أحد من الناس غيره. وكان ذلك الأمر بالتأكيد سرا بينه وبين ربه، لا

يبوح به لأحد أبدا ـ أو ليس هو المثل الأسطوري لما يقال: «صدور الأحرار قبور الأسرار»؟ وربما لم تتم المناقشات وتبادل الآراء والأفكار بيني وبينه في هذا الموضوع، لسبب بسيط، هو أنني لم أكن بعد قد بدأت التربية العرفانية في تلك السنة بالذات (عام ١٩٧٥ للميلاد). فلقد تعرضت لهذه التربية المقدسة منذ عام ١٩٧٦ للميلاد، ولم أتوفق إلى رؤية العلامة بعد ذلك، فكانت وفاته في عام ١٩٨٣ للميلاد.

ولكنني أتذكر أنه قبل أن أتغرب عن الأوطان (أي قبل عام ١٩٥٣ للميلاد)

كان العلامة أحيانا يصعد المنبر بعد صلاة العشاء، في المسجد الكبير، ويبدأ الموعظة. ولكن الناس كانوا يتفرقون بعد الصلاة، ويخرجون من المسجد فور انتهاء الصلاة، ولا يبقى هناك إلا حفنة قليلة من الناس لكي تستمع إلى مواعظه. فأتعجب كيف أنه في مثل هذه الظروف، من جفاء الناس للمواعظ الروحانية، يستطيع مواصلة الوعظ، ناهيك عن التطرق إلى مسائل العرفان الإسلامي، أو ما يسمونه بالفلسفة الإلهية. أو ما سمعت الرسول الأكرم ﷺ يقول: «لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»؟ ويظهر أنه في ذلك الزمان قلما وجد هناك أهل الحكمة!!!

بسبب ذلك بقيت الحكمة سرا بينه وبين ربه، يبوح بها لقراطيسه، متى ما توفر عنده وقت لذلك. ولكن قلما يوجد وقت الفراغ، لأنه كان يقضي معظم أوقاته مع الناس الذين كانوا يتوافدون إلى مجلسه. فكان يحقق لهم حوائجهم الدنيوية، ويصرف المعونات أحيانا للمحتاجين، وأحيانا يستخير الله لطالبي الإستخارة. ولكنه في أكثر الأوقات كان يحل للناس المسائل الفقهية الشرعية، من أحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والحج وغيرها. ولعل أهم المسائل الفقهية التي كان يحلها، ويخصص لها الوقت الطويل نسبيا، كانت مسائل الإرث والوراثة. فأتذكر

أنه كان يسأل السائل عن مرجع تقليده ـ في ذلك الزمان السيد محسن الحكيم أو محمد رضا آل ياسين، بعد وفاة السيد أبي الحسن الأصفهاني والعلامة البروجردي ـ فيخرج رسالته وينقع بها غليل السائلين. ولكن لم يكن هناك بالتأكيد طلاب الحكمة الإلهية في ذلك الزمان، وما أقلهم وما أندرهم!!!

وعندما يتفرغ من زواره كان يقضي أوقاته في الكد والكدح لإمرار معيشته هو وعائلته، فلقد ذكرت آنفا كيف أنه كان يصرف أوقاته في خياطة الملابس، وحتى في أوقات الليل تحت ضوء الفانوس الخافت. وعندما كان يتفرغ من كل ذلك، يذهب إلى قراطيسه، وينكب على الكتابة، لكي يبوح لها بأسرار الحكمة الربانية، كما كان جده الإمام علي عليه السلام يذهب ليلا في الكوفة إلى بئر خارج البلدة، لكي يبوح للبئر بما في صدره الشريف من آيات بينات، لم تكن الصدور لتتحملها، ولم تكن النفوس لتستسيغها. فالناس في طلب الدنيا والمال والجاه والشهوات الجنسية، وغيرها من متاع الدنيا وزبرجها وزينتها، وما أندر طالبي الحكمة والحقيقة!!!

إلا أنه ليس لسلطان العلم زوال، فما هي إلا هنيهة، حتى تبعث الأسرار من جديد، وتنتشر أنوارها حتى تملأ الخافقين.

فإن يك صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدا لناظره قريب

وما أكثر العباقرة الذين عاشوا مغمورين في حياتهم، ولكن سلطان العلم لم يرض إلا أن يفجر الينبوع تفجيرا!!!

أما الأدعياء فهم يتشدقون بأقوال العظماء، وهمهم الكبير إفهام الناس بأعلميتهم. ولكن قلما تجد بينهم طالبي الحكمة، الذين يتواضعون لتلقي الحكمة الربانية من معلميهم. فلولا المربي ما عرفت ربي!!!

فالأدعياء مع الأسف الشديد هم أهل الدنيا، فيهم الجهل والحمق

والكبر والتجبر والتكبر والعجب. فأعمالهم أعمال الجبارين، وإن كانت ثيابهم ثياب الأنبياء، وهم أبغض عباد الله. يقول الرسول الأكرم ﷺ فيهم: «أبغض العباد إلى الله من كان ثوباه خيرا من عمله: أن تكون ثيابه ثياب الأنبياء وعمله عمل الجبارين». وفيهم يقول الحديث القدسي: «يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء، وعند العارفين حمقاء».

فقلما تجد بينهم مؤمنا تكون الحكمة ضالته. أو ما سمعت الرسول الأعظم ﷺ يقول: «الحكمة ضالة المؤمن». أتعرف ما هو الضالة؟ لا أن تكون ريانا وتدعي العطش، بل أن تكون كالعطشان في رمضاء الصحراء وتطلب الماء، فحينذاك يكون الماء ضالتك!!! وما أندر طالبي الحكمة الربانية من هذا النوع!!! أو ما سمعت الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «هلك من لم يكن له حكيم يرشده»؟ فانظر من المتواضع الذي كان له حكيم يرشده، ومن المصاب بداء العجب الذي لم يكن له حكيم يرشده!!! فهم والله كما يقول الشاعر: ـ

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

إلا أن يوجد أولئك القلائل من الناس الذين يقولون: «إن هذا طريق صعب ولكننا نسأل الله أن يجعلنا من السالكين ويعيننا على السلوك». فهذا شيء حسن، وربما جعل الله سبحانه وتعالى هذه الخطوة فأل خير لهؤلاء القلائل. فتواضع واعترف يا عزيزي بجهلك حتى تستحق (مسلك أهل الجذب)، كما يقوله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «واسلك بي مسلك أهل الجذب». فإن العلا لا يدرك من غير كد. أو ما سمعت الشاعر يقول: ـ

ومن طلب العلا من غير كد سيدركها إذا شاب الغراب

أليس الأحرى بك أن تصمت!!! ربما تكون رياضة الصمت عليك صعبة، وربما تضيع عليك فرص كسب الرزق، إن كنت ترتزق من فن

الكلام. ولكن الصمت هو العبادة الوحيدة، وأيسرها وأهونها على البدن، التي تستطيع أن ترتقي بك إلى الملكوت. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن؟ الصمت وحسن الخلق». وإن لك من فن الكلام في سعة الأخلاق عوضا، ففي سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. أليس من الأجدر بك أن ترتقي إلى الملكوت من أسهل الأبواب وأيسرها وأهونها على البدن، ألا هو الصمت وحسن الخلق! وإلا فكيف ينهض البازي بلا جناح!!!

فاختر يا عزيزي ما تشاء، فإما أن تكون من أصحاب الشمال أو من أصحاب اليمين!!! فإن كنت تريد الخلاص من أصحاب الشمال، والإرتقاء إلى أصحاب اليمين، فلا يكون ذلك من غير كد. **فاعلم أنه لا خيار إلا بين هذين الإثنين!!!** فإما هلك وإما ملك! اللهم إلا ان تكون من ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [**الواقعة**: ١٠ ـ ١١] فطوبى لك وحسن مآب، فإنك إذن ممن سبقت لهم من الله الحسنى!!! ولا يكون في هذا المقام إلا الأنبياء والأئمة والعرفاء وأولياء الله الصالحون.

رحلة في المجلس الثاني من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق البهيمة وأودع فيها الغرائز. وقسمها السيد إلى مجموعتين: القوة الشهوانية والقوة الغضبية.

فالسيد يعني بالقوة الشهوانية مجموعة غرائز يجب سدها، لغرض بقاء النفس، والنجاة من الفناء، كالجوع والعطش والنوم، وميل الإنسان إلى الصيد، حتى يؤمن لنفسه الطعام، وعيشه قرب الأنهار والجداول والبرك وأماكن تجمع المياه لتأمين شرابه، وميله للمسكن لتأمين حاجته من النوم والراحة، ولاتقاء الحر والبرد والتقلبات الجوية، وللدفاع عن النفس في مقابل الأعداء من نوعه أو من الأنواع الأخرى. والسيد أيضا يعني بالقوة الشهوانية «الشهوة الجنسية» التي يجب سدها، لغرض بقاء النوع وخلاصه من الإنقراض.

وتبعا لغريزة الصيد وحده أو مع مجموعته، تنبعث عنده غرائز من نوع آخر، كالغضب والحقد والإنتقام، لمساعدته على ممارسة عمل الصيد. وتبعا لعيشه قرب البرك والأنهار مع مجموعته، تنبعث عنده غرائز أخرى، كالحب والتآلف والتعاون، لمساعدته على العيش في وئام مع أفراد نوعه. وأيضا تبعا لانتخابه المسكن، وممارسته الجنس مع زوجته،

ثم عملية التوالد وتكوين الأسرة، تنبعث عنده غرائز الحب والرحمة والالفة مع أولاده وشريكة حياته، بل مع الأسرة جميعها من الأرحام، كالأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبناء العم والخال وغيرهم، لتعاونها على تربية النسل الجديد. وهذه المجموعة من الغرائز التي تتكون من احتكاكه مع نوعه أو النوع الآخر، وتتفاعل بسبب علاقاته الإجتماعية، تسمى القوة الغضبية، وهي تشمل ردود أفعاله العصبية من الغضب والحقد والإنتقام، والتآلف والتعاون والحب والرحمة والالفة وغيرها. وردود أفعاله العصبية هذه هي الغرائز المساعدة للغرائز البهيمية الخمسة الأساسية: وهي الطعام والشراب والنوم والمسكن والشهوة الجنسية، والتي هي بدورها مظاهر من حب الذات وحب النوع، وتساعد على سد الغريزة الكبرى، ألا وهي حفظ بقاء الذات والنوع.

وعلى الطرف الآخر يقول السيد بأن الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة، وأودع فيها القوى والطاقات الروحانية، وهي مسخرة لعبادة الله وحمده والثناء عليه، وتسبيحه وتقديسه وتهليله، في آناء الليل وأطراف النهار. ويعني السيد أن الله قد جردها من غرائز الجوع والعطش والنوم والشهوة الجنسية وحب المسكن، وجردها من الغضب والحقد والإنتقام، وحب الذات وحب النوع، وحب الأولاد والزوجة والأسرة، حيث إن الله تعالى قد أودع فيها حب الله فقط وفقط، فهم منشغلون ليل ونهار بعبادته وحده، وحبه وحده، والعمل بأمره ونهيه وحده.

ويقول السيد إن الإنسان قد خلق مركبا من هاتين الطائفتين، وقد أودع الله فيه القوة الشهوانية والقوة الغضبية كالبهائم، وأودع فيه أيضا القوى الروحانية، والعوالم الملكوتية والجبروتية واللاهوتية، والميل إلى حب الله وعبادته وحمده والثناء عليه، وتسبيحه وتقديسه وتهليله. فهو يعني أن الإنسان إذا استسلم للقوة البهيمية وحدها، التي تشمل القوة الشهوانية والقوة الغضبية، وسد على نفسه أبواب الروحانيات وعوالم

الخلود، فهو يعيش كالبهائم، ويشترك معها في الغرائز الخمسة الأساسية، وفي نمط الحياة التي بنيت هيكلته على هذه الغرائز، ويستثمر جل اهتماماته في مسائل الطعام والشراب والنوم والشهوات الجنسية وحب المسكن. ويضيف إليها حب الملبس الذي تستغني عنه عادة الحيوانات، ويقال إن الإنسان أيضا قد استغنى عنه في عهود عيشه في الغار، ولكنه اكتسبه عبر القرون بسبب العلاقات الإجتماعية الخاصة بالإنسان.

أما عندنا في الثقافة الدينية وفي قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم، فهو وزوجته حواء سترا العورة بأوراق الشجر، عندما تنبها إلى الشهوة الحيوانية عندهما، بعد أكلهما التفاح الذي منعا من أكله. أي أن الحياء صفة عالية من الصفات الخاصة بالإنسان دون البهيمة، وهذا ما أكدت عليه الأحاديث النبوية الشريفة: «الحياء هو الدين كله»، و «الحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان إلا جميعا» وغير ذلك. إلا أن هذا الحياء، الذي يمتاز به الإنسان عن الحيوان، قد ألغته الحضارة الغربية مع الأسف الشديد، وقد ظهرت وتظهر موجات العري والأعمال الجنسية القبيحة عيانا في هذه المجتمعات، من دون رادع ولا وازع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولكن الحيوانات والبهائم تمتاز عن الإنسان بأنها تسد حاجاتها الغريزية حسب الحاجة، من دون إفراط وتفريط. أما الإنسان فهو ليس كذلك، فإن مظاهر الرفاه والترف تبطره إلى حد الفسق والفجور. قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. فهو يتفنن بفنون عجيبة وغريبة لاستكثار الملذات والمتع الجنسية، ويوجد أساليب جديدة كل يوم للإكثار منها. فكأنما الإنسان خلق لهذا! ناسيا أن الحاجات الغريزية يجب سدها على قدرها، وإلا فالعواقب وخيمة.

فمثلا لو جعنا وأكلنا فوق حاجتنا، فإن المرض يدب فينا على المدى الطويل. فرب أكلة تمنع أكلات! وكذلك ممارسات الفسق والفجور تؤدي بنا حتما إلى الدمار، على المدى الطويل، وربما على المدى القصير. أما الإنسان في أيام قوته وكبريائه، وفي أيام هو فيها في غدف وفي سلوة من العيش، ينسى كل ذلك، بسبب الرفاه والترف، ولا يطلب إلا المزيد من اللذات، ويتخذ المتع والملذات هدفه في الحياة، كأنه خلق من أجلها!!! وبسبب ذلك ينحط إلى مستوى أرذل من مستوى البهائم. أليسوا هم، في مستوى البهائم والأنعام، في حيص بيص!!!

أما إذا عزف عن المزيد من الملذات، وأعطى كل حاجة غريزية حقها المشروع والمعقول، وعزف عن دار الغرور، وانقلع عن حب الدنيا، وأناب إلى دار الخلود، واتجه بكليته إلى الآخرة، وأقبل على الله بكل حبه واهتماماته وطموحاته، وصاحب من يصاحب الله، ورافق أحباء الله وأولياءه، إثر مجاهدات جبارة مستمرة، فإنه يكون في مقام أعلى من مقام الملائكة. فإن الملائكة تفعل ما تفعل من الإنشغال بعبادة الله وتسبيحه وتقديسه، من دون رادع ولا مانع. أما الإنسان فإن له في هذه المسيرة الملكوتية روادع وموانع، يزيلها رويدا رويدا إثر جهاده الأكبر مع نفسه، يتجاوزها حتى يصل إلى مستوى يقول فيه الرسول الأكرم ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه». فيكون هذا السالك المجاهد أعلى من مستوى الملائكة.

ثم إن الإنسان إذا فعل ذلك يعود إليه توازن القوى، لأن الغرائز البهيمية ليست إلا جزء من القوى التي يحتويها، ولا يجدر به أن يركز عليها ويكبرها فوق حجمها الطبيعي. فالأجدر بالإنسان أن يخرج اهتماماته من هذه الغرائز البهيمية، ويتجه بكل اهتماماته وطموحاته إلى الغاية من خلقه، التي تتأتى عن طريق القوى الروحانية الكامنة في وجوده. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم

فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى أمره». وجمع الأمر هذا يعني استتباب النظام التام في نفس الإنسان بين القوى التي أودعها الله فيه، وهي مقام النفس المطمئنة التي توصلك إلى ما خلقت من أجله. ويقول ﷺ في موضع آخر: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى». والعجب كل العجب كيف يؤثرون الناس الدنيا الفانية على عالم الخلود وعلى عالم البقاء!!!

ويخاطب السيد حسين العالم قدس سره هذه الطائفة التي هي في مستوى الحيوانات بل أرذل منها بما معناه: يا أيها المساكين، لقد ذهبتم في السمهى! انظروا إلى حياتكم الفعلية كيف تنبعث منها رائحة التعاسة، ثم انظروا مليا في وجودكم، كيف تنتظركم القوى الروحانية العلوية الكامنة في وجودكم، لترفع من قدركم وشأنكم إلى مقام الملائكة أو أعلى منه. فأنتم في وضعكم الفعلي كالديدان في المزابل تتمتعون بفضلاتها وأوساخها، ولا تشعرون بتعاسة الحال، وإذا نزعناكم عن المزابل لا ترتاحون إلى ذلك، بل إنكم في متع المزابل منغمسون، وعن الحياة العلوية الطيبة غافلون. في حين أننا نريد أن نرفعكم إلى عوالم المتع واللذائذ الحقيقية، حيث النفس المطمئنة لا تعرف غير السعادة.

وإذا أردتم هذا الإنعطاف القوي في نمط حياتكم، فإن هناك بابا مفتوحا لكم يسمى باب التوبة وباب الإستغفار، تستطيعون من خلال هذا الباب أن ترتفعوا إلى عوالم عليا من اللذائذ الحقيقية والسعادة الأبدية. وأحسن التوبة هي التوبة النصوح، حيث يكون لك واعظ داخلي باستمرار، مصاحب لك على الدوام، يعرف أفكارك الداخلية. فإذا اتخذ الإنسان ضميره واعظا له، وعمل على الدوام حسب ذلك الوعظ، لم يضل في مسيرته، لأن الضمير ينبه الإنسان حينما تعتريه خواطر فاسدة.

لماذا يجب على الإنسان أن يتوب

إن في وجود الإنسان قوى كثيرة وطاقات عظيمة، والغالبية العظمى من الناس يفرطون في مجموعة معينة من الطاقات، التي تكون منها الإنسان، ويفرطون في الإخرى بل إنهم يهملونها إهمالا تاما. والشهوة البهيمية هي مجموعة من الطاقات والغرائز التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، يكون الإنسان عادة منغمسا فيها، وهي جل همه وطموحاته في هذه الحياة، مثل الطعام والشراب والنوم والشهوة الجنسية والمسكن، والعلاقات الإجتماعية مع الأسرة والأرحام وغيرهم من بني جنسه، وأيضا مثل غرائز الغضب والحقد والرحمة والحب وغيرها، في حين أن هناك كنوزا أخرى من الطاقات الروحية يفرط فيها معظم الناس.

فمن الطبيعي أن يتكون عنده انعدام التوازن في القوى، مما يجعل السعادة مستحيلة عليه، فيكون في حياة الشهوة البهيمية، ينشد السعادة والإستقرار والطمأنينة، ويمارسها للحصول على ذلك، كمن يسعى وراء السراب تعطشا إلى الماء ثم لا يجد الماء. ففي هذه الحالة التي هي السائدة بين البشر، لا بد للإنسان أن يستعيد توازن القوى في وجوده، ويكون ذلك بامتداد طموحاته إلى كنوز الروحانية الموجودة فيه، التي هي مجموعة من الطاقات العظيمة التي توصله إلى المبدأ. وهذا الإمتداد في طموحات الإنسان هو ما نسميه التوبة، وهو العودة والإنابة إلى مبدأ الإنسان، وهو الباب الذي يدخل منه الإنسان، وتدخل منه طموحاته إلى

عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت ثم إلى الهوت، فتحقق عنده السعادة الحقيقية التي ينشدها.

وليست السعادة هي الهدف الوحيد في فطرة الإنسان، بل هناك هدف أسمى في الفطرة البشرية، وهو الخلود الذي عمل له الإنسان منذ بداية وجوده، وعملت له الفراعنة في بنائها الأهرامات، وتخليد ملوكها وبعض أثريائها وكبار القوم فيها في صورة المومياء. وهذا كان مبلغهم من العلم. وجاءت الأنبياء لدعوة البشر إلى حياة الخلود والآخرة. فكانت دعوتهم إلى الله، وإلى الحقيقة التي تقول، بأن للإنسان امتدادا لا نهاية له في حياة حقيقية في عالم الخلود، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وإلى حقيقة أن الحياة الدنيا ليست إلا ممرا وجسرا لبناء الحياة في عالم الآخرة، ولبناء السعادة الأبدية التي تشمل السعادة والطمأنينة في الدنيا وفي الآخرة.

والنفس المطمئنة التي ذكرها القرآن المجيد، هي الثمرة اليانعة لهذا المسعى الشريف، والمجاهدة الرفيعة للإنسان السالك في طريق الله، وهي النفس المتشبعة بالسعادة الحقيقية والطمأنينة والإستقرار في هذه الحياة، وأما مصيرها في عالم الخلود والآخرة فهو كما ذكره الله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

أما هناك القليل من الناس الذين لا يحتاجون إلى البراهين الذهنية لوجوب التوبة، بل إنهم في خلفية بنيتهم الفكرية، أحرار وأبرياء براءة الفطرة، ونزيهون نزاهة الفطرة، إلا أن احتكاكهم بالمجتمع الجاهل وأصدقاء السوء، منذ أيام الصبا، قد لطخ أفكارهم وهيكلتهم الذهنية، فضاعوا بين المثالية والشهوة البهيمية، وطغت الأهواء والشهوات على أفكارهم، وعاشوا في معبد الشيطان، وبيت المعاصي والغفلة، ومنزل الرغبات والشهوات، ردحا من الزمن. وارتكبوا المعاصي والذنوب لا

فعليا وعمليا، بل في أفكارهم وذهنياتهم ونمط الهيكلة الفكرية عندهم، رغم أرضية صفاء الفطرة ونزاهة المسلك التي ضاعت عنهم مؤقتا. وقد أشرت إلى هؤلاء في كتابي «رسالة يقظان بن حي»[1]، وإليك مقتطفات من مقدمة الكتاب تحكي عن هولاء: ـ

وخلاصة الفكرة هي دعوة الإنسان إلى الرجوع والتوبة إلى فطرته، وهي الدين القيم الذي ذكره الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وأمر الله جار في الوجود، ويسمعه ويلبيه موجودات ملكوتية، رغم هبوطهم في أسفل سافلين، كما ذكرتها سورة التين، ورغم إقامتهم المؤقتة في معبد الشيطان وبيت المعاصي والغفلة ومنزل الرغبات والشهوات.

ونحن نخاطب هؤلاء الأحرار الذين ظلموا أنفسهم بأن لا يقنطوا من رحمة الله، وأن يقيموا وجوههم للدين حنيفا فطرة الله... وسلوانهم في ذلك كلام الله المجيد: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وحديث نبينا محمد ﷺ: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار[2]، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة[3]»، وحديثه ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل

(١) اسم الكتاب (الف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حي).

(٢) ويوم عاشوراء هو أكبر مثال على مثل هؤلاء الأشرار ممن قاتلوا الحسين عليه السلام، فقد أمضوا حياتهم في الصلاة والسجدات الطويلة وصلاة الليل والصوم والحج وغير ذلك من الأحكام الظاهرية، ولكن عاقبتهم كانت النار وبئس المصير.

(٣) ويوم عاشوراء هو أكبر مثال على مثل هؤلاء الأخيار الأبرار ممن نصروا الحسين عليه السلام من زهير بن القين وحر بن يزيد الرياحي وغيرهم، فكانت عاقبتهم الجنة فطوبى لهم وحسن مآب.

الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وأن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم عمله بعمل أهل الجنة».

وكم من أمثال الحر بن يزيد الرياحي متواجدون هنا وهناك، تنتظرهم اليد الرحيمة لانتشالهم من مستنقعات الغفلة والسقوط، وتأتي اللحظة المناسبة فينتبهون من غفلتهم، ويستيقظون من سباتهم، ويندمون على العمر الذي ضيعوه في معبد الشيطان، ومرتع الرغبات والشهوات، وبلاد الغفلة، وبيت المعاصي والآثام. فتبرز الفطرة الصافية، ويجيب داعي الله، ويتلقى التعليمات العلوية ويمارسها، وتنفتح عيون بصيرة وآذان واعية سميعة في باطنه، وتبزغ شمس المعرفة، وتتضاءل صفات الغفلة، ويختفي حب الدنيا، ويستأنس بذكر الله، ويستقر طود اليقين، ويدخل ملكوت الله، فيولد هناك مرة أخرى مولودا جديدا عاشقا ومحبا لله، وفي جوار ومصاحبة أنبيائه وأوليائه. وهذا هو الكنز الذي يهدف إليه العرفاء، وهو الكنز الذي ذكره الله في الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»، وهو الفناء في الله والبقاء بالله في أعلى عليين: «يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم».

والإنسان مخلوق عجيب غريب، يولد أبيض ناصعا على الفطرة، ولكن له قابلية التعامل مع الطبيعة عن طريق حواسه الخمس، فيتلون بألوانها المختلفة أبعد ما تكون عن الصفاء والبياض والشفافية. فحياته في طفولته تتسم بأوصاف الفطرة من الصدق، والإبتعاد عن الزيف والزور، ومن البراءة، والخلو من الشهوات، ومن رغبات أساسية خفيفة، ومن الإستقامة والشفافية والخلو من تعقيدات الشخصية، ومن المرونة والقابلية السمحة للتعلم، ومن الإبتعاد عن مظاهر العجب والكبر والغرور، ومن كل الأخلاق الشفافة البعيدة عن التعقيدات والتعصبات. ثم ينحرف عن كل ذلك رويدا رويدا بما يتلقن من إيحاءات من محيطه

وبيئته، ومن الطبيعة التي حواليه، من أنواع الزيف والكذب والرياء، والحقد والكراهية، والكبر والغرور والأنانية، وحب المال والشهوات، وغيرها من مظاهر الفهم الخاطئ والمعوج. وما يستثنى من ذلك إلا القليل من عباد الله الصالحين، وهم الأنبياء والأئمة المعصومون ممن سبقت لهم من الله الحسنى، وممن أوتوا قابلية عجيبة لعدم التعامل مع الطبيعة ومتغيراتها، فهم في أمان وعصمة عن التلقينات الخاطئة الجاهلة، التي تتجافى عن الفطرة والثوابت، وذلك بمدد إلهي: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٨].

أما أكثرية الناس فيقعون طوال عمرهم في حبائل هذه الذنوب والآثام التي اكتسبوها اكتسابا: ﴿بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. وقلما تستيقظ ضمائرهم لنداء الوجود المدوي في أعماقهم، والذي يدعوهم إلى العودة والتوبة إلى فطرتهم، وإلى البراءة والتحرر من الشهوات والرغبات، والإلتحاق والإتصال بخالقهم. إن هناك القليل الذين يستيقظون من سباتهم وغفلتهم، وتنهض هممهم للمجاهدة للتخلص من أغلال المادة، وجاذبية الشهوات، وقفص الجهل والكسل، فيبدئون طريق العودة إلى خالقهم، ويستسيغون الروحانية والطيران في ملكوت الله، في جهاد رائع، وما أروعه من جهاد.

والشخصية التي شرحتها في كتابي «رسالة يقظان بن حي»، رغم انغماسه في الذنوب والآثام، إلا أنه عندما يصل على عتبات الهداية، ويحين أوان اللقاء مع الله، يقفز قفزات في مسيرته ـ مسيرة الهداية ـ ما يصطلح عليه العرفاء بقولهم المشهور: «يسير في ليلة واحدة مسيرة مائة عام». وهذه كرامة من الله للمخلصين من عباده، يسبغها عليهم إسباغا، حتى تكون معلما من معالم مسيرتهم ـ مسيرة النور ـ ليتحفزوا ويتشجعوا لأعمال الرياضة والجهاد الأكبر.

ما هو الإنسان ولماذا خلق

يقول السيد حسين العالم قدس سره، بأن الإنسان مخلوق مركب من الشهوة البهيمية أو الجانب الحيواني، ومن القوة الملكوتية أو مقام الملائكة الذين وهبهم الله جانب الملكوت فقط، حتى لا يعرفوا غير العبادة. ثم إن الله وهب الإنسان الإختيار الكامل في عالم الكون والفساد، بحيث يستطيع تنمية أحد الجانبين في وجوده. فإذا ألقى حبل الجانب الحيواني على غاربه، أصبح أرذل من الحيوانات. أما إذا باشر بتنمية وترقية الجانب الملكوتي، صعد مدارج الترقي في الملكوت بحيث تصبح الملائكة خداما له، لأن الملائكة لا رادع لهم عن العمل بالقوة الملكوتية، في حين أن الإنسان له رادع عن الإرتقاء في القوة الملكوتية. فيجب على الإنسان أن يجاهد في تربية وترقية الجانب الملكوتي إلى أقصى حدود مقدرته واستطاعته، لأن غاية الخلق المعرفة، وأن تلك المعرفة لا تتأتى إلا بترقي الجانب الملكوتي.

إلا أن الطائفة العظمى من الناس متورطون في الشهوة البهيمية ولا يطلبون الخروج منها، بل إنهم على الظاهر متمتعون فيها، ولكنهم ينشدون المتعة الحقيقية والسعادة الثابتة، فينغمسون أكثر فأكثر في الحياة البهيمية لتحقيق هذا الهدف، فلا يجدون تلك السعادة والإستقرار في أنفسهم. ولا يعرفون أن تحقيق هذا الهدف مستحيل، إلا إذا خرجوا من ورطتهم، واتجهوا إلى مقام الملائكة الكامن في أعماق وجودهم، حتى يتحقق التوازن في القوى عندهم، ويصلوا إلى منبع السعادة، بالإستغراق في الجانب الملكوتي. وإذا كان الإنسان في عالم الكون والفساد لا يرى

غير هذه الصفات الحيوانية والتجليات السفلانية، فإنه يباشر بتنمية وترقية الجانب الحيواني أكثر مما هو مأمور به، أي أكثر من الكفاف في إطار الحدود الشرعية التي أمر الإنسان بها.

ورب قائل يقول لقد خلقنا لأجل المتع والملذات الجنسية، وإشباع البطون بالموائد الملونة اللذيذة وغير ذلك، ولنا أعمال تدر علينا دخلا جيدا لتأمين هذه المتع واللذائذ، ولا نشعر بأي حاجة لغير ذلك. والجواب هو أنه لا بأس من المتع والملذات، ولكن في إطارها المتعادل. وقولك بأنك خلقت لأجلها هو رؤية قصيرة جدا، وأنك لم تخلق لتتساوى مع البهائم، وأن مكانتك كبيرة في جدول أعمال الوجود. ففتش عن الغايات الأصلية لممارسة الجنس، وهو بقاء النوع، وحتى عملية بقاء النوع تتم باللذة. وهذا كرم عظيم من الله! وفتش عن الغايات الأصلية لسد الجوع، وهو بقاء النفس، وحتى عملية بقاء النفس تتم باللذة، وهذا جود وكرم من الله! فالمتع والملذات سهلها الله عليك لغرض ممارسة عمل البقاء في هذه الدنيا، سواء بقاء النوع أو بقاء النفس، وهي ليست السعادة التي تنشدها. لأن بقاء النفس وبقاء النوع في هذه الدنيا، لا تمت إلى الخلود بصلة!!!

فاللذة المؤقتة ليست السعادة والطمأنينة المنشودة، والبقاء المؤقت على سطح هذه البسيطة ليس هو الخلود. أما إذا كنت تنشد السعادة المقيمة، والإستقرار والطمأنينة الدائمة، وهي البتة لا تتحقق بالمتع والملذات الدنيوية، وإذا كنت تنشد الخلود، فلا بد أن هاتين الأمنيتين مكتوبتان في فطرتك، ولا بد من وجود مصداقية التحقيق في وجودك لهاتين الدعامتين في فطرتك الصافية. فكل أمنية مكتوبة في فطرتك لا بد أن يكون تحقيقها ممكن، ولكن يجب أن تعرف كيف. وما نذكره من إرشادات في هذه السطور هي التي تحقق ذلك إن اتبعتها، بمعنى أنها تسوقك إلى النفس المطمئنة حيث السعادة المطلقة في دار الدنيا وفي دار

الآخرة، وإلى الروح الملكوتية الجبروتية اللاهوتية حيث السعادة المطلقة في النشأتين: هذه النشأة ونشأة الخلود.

أما السعادة الأبدية الدائمة فإنك لا تحصل عليها إلا إذا وصلت إلى مقام النفس المطمئنة. وللوصول إليها لا بد من تجاوز عقبة الشهوة البهيمية، والعزوف عنها، والإتجاه إلى التوبة، ثم من خلال هذا الباب الواسع، الدخول في اللذائذ الروحية ومناجاة الرب الذي خلقك، ولا زال يخلق فيك ملايين الملايين من الخلايا باستمرار، والذي يدبر ملايين الملايين من شؤونك في كل اللحظات من جريان دمك المستمر، ونبض قلبك الدائم، ونفساتك المتلاحقة، والنظام البديع الذي يعمل على قياسه، كل جوارحك وأعصابك وعضلاتك وغيرها من ملايين الملايين في جسمك الصغير.

وكل هذا يتطلب معرفة الرب الذي تناجيه، والذي يأتي بكل هذه المعجزات والمكرمات في الآفاق وفي نفسك، والتي ستأتيك تدريجيا بعدما تجاوزت باب التوبة، وعلمت أن ما دون الله محض سراب، كما يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وإذا دخلت السير والسلوك، وإذا تواجدت عندك عناصر الإرادة والإخلاص، فإنك ستصل في نهاية المطاف إلى السعادة والأمن النفسي التي تنشدها. يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فلا بد من الإيمان ثم الجهاد الأكبر، لإزالة كل مظاهر الظلم في أعماق نفسك، حتى تصل إلى الأمن المطلوب. ويشير الرسول الأكرم ﷺ إلى معالم هذا الطريق بقوله: «من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

أما الخلود الذي تنشده في كل حياتك، فلا بد من مصداقية تحقيق هذه الأمنية في وجودك. إذن لا بد من معرفة نفسك حتى تعرف أنك لست البدن واليدين والرجلين وما إلى ذلك، وأن اليدين والرجلين وغيرها من جوارحك هي محض أدوات، تستعملها هويتك الثابتة، وهي لا تتحرك إلا بأمر منك. فما هو أنت؟ لا بد من فهم نفسك حتى تعرف أنك الهوية النورانية الثابتة، وأنك الروح الخالدة التي تبقى حتى بعد ذهاب الجسم. فلماذا الغفلة عن ذلك؟ في حين أن الأنبياء أخبروك بخلودك، وبوجوب العمل من أجل النشأة الخالدة. يشاء الله لك الحياة وأنت تريد الموت، فيا عجباه من ذلك!

وهذه الأشياء لا يمكن أن تتحقق إلا بالمعرفة التي هي غاية الخلق. يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف». ويقول في الحديث القدسي: «يابن آدم أنا ملك لا أزال، اعمل بما أمرتك وانته عما نهيتك، حتى أجعلك ملكا لا تزال. يابن آدم أنا حي لا يموت، اعمل بما أمرتك وانته عما نهيتك، حتى أجعلك حيا لا تموت». ويقول عيسى عليه السلام: «اعرف نفسك أيها الإنسان تعرف ربك، ظاهرك للفناء وباطنك للبقاء».

ورب قائل يقول نحن نتعلم الآن في الجامعات ونتخرج منها بشهادات، ثم نحصل على أعمال تدر علينا الدخل الجيد، وتحسن من مستوانا في المجتمع. أقول لك لا تتشدق بهذا، فأولا دعني أخبرك بأن اليابانيين مثلا يكرسون الجهد الكبير للتعلم في الجامعات، ولكنهم لا يهتمون بالشهادات، وربما لم يأخذوها، لسبب بسيط وهو أنهم عند عودتهم إلى اليابان لا تقبل منهم هذه الشهادات، ولكنهم يجب أن يتعرضوا لامتحانات شاقة في اليابان نفسها، وعند نجاحهم يحصلون على الأعمال اللائقة بهم.

وكثير منهم يطلبون العلم من المهد إلى اللحد كما أمر بها نبينا ﷺ، في حين أن شبابنا يتنفسون الصعداء عند تخرجهم، ولا يرجعون إلى طلب العلم مرة أخرى. ثانيا إن الدخل الجيد هو لإرضاء الغرائز من مطعم ومشرب ومسكن وملبس ونوم وراحة والشهوة الجنسية، أي عناصر الشهوة البهيمية التي تكلمنا عنها كثيرا، بمعنى أنها لا تخرجك من الورطة آنفة الذكر. وثالثا نحن نتكلم عن الهداية والتوبة، وأن العلوم الظاهرية التي تعلمتها لا توصلك حتما إلى الهداية. فما أكثر العلماء الطبيعيين الذين بقوا ملحدين لا يؤمنون بالغيب ولا بالهداية ولا بالروح، ولا حتى بوجود الله ﷻ.

أما هناك نوع آخر من المعارف والعلوم، لا تتيسر إلا بعد تجاوز باب التوبة والإستغفار، وهي علوم لا تكتسب، وإنما هي أنوار تقذف في قلب المؤمن قذفا. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». ويقول الله تعالى في سورة النور: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. فهي أنوار ترفعك إلى أعلى عليين وإلى عوالم الملأ الأعلى، وتجذبك جذبا إلى المبدأ وهو الله سبحانه وتعالى. فهذه المعارف هي الغاية من الخلق، وتكون أنت السالك الذي تتحقق فيك هذه الغاية العظمى من خلق الوجود كله. لأنك عرفت الله ووصلت إليه، فطوبى لك ثم طوبى لك!!!

ووصولك إلى هذا النمط الأعلى من معيشتك لا يحرمك من الدنيا ومن لذائذها، بل إن الدنيا وملذاتها تكسب طعما آخر في فم السالك لا يعرفها إلا أهلها، وتزداد فيها بركة ومتعة وسعادة واستقرارا وطمأنينة. لماذا لأنهم ليسوا متهافتين على الدنيا، فلذلك تلاحقهم الدنيا أينما ذهبوا. فالقانون هو أنه من أقبل على الدنيا هربت منهم الدنيا بلذائذها، وخلفت وراءها في قلب طالبها مكاره وجدانية، ومشقات روحية، وإحباطات نفسية، وتبعات سيئة. يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«إن الله يقول للدنيا: اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك». أليس من الأجدر أن تتبع ما قاله الرسول الأكرم ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها». وهذا هو الهدف من مسعى الإنسان في الحياة الدنيا، إلا أن الإنسان لا يحقق الهدف من مسعاه. أليس كذلك؟ لأنه لا يعرف، ونحن هنا لكي نعرفه على الطريق الصحيح.

فإذا أردت السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، فاطرق أولا باب التوبة والإنابة إلى الله. والزهد الذي ندعوك إليه ليس هو ترك الدنيا وكل ما فيها، ولكن أن تملك كل شيء ولا يملكك شيء كما قال مولانا علي عليه السلام. فاخرج من عبودية الدنيا تكون الدنيا مسخرة لك، أما إذا بقيت في عبوديتها، فأنت مسخر لها وبيدها والويل لك! رغم كل القصور والزبرج والزينة ومتاع الدنيا التي تملكها بالظاهر. **فهناك فرق كبير بين من يطلب الدنيا والدنيا تفر منه بالطعم الحقيقي من متعها ومحاسنها، وبين من يعزف عن الدنيا والدنيا تقبل عليه بالطعم الحقيقي من متعها ومحاسنها.** ولكن الدنيا لا تشكل عندهم من الأهمية شروى نقير. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «أعظم الناس في الدنيا خطرا من لم يجعل للدنيا عنده خطرا».

فانظر أيها الإنسان المسكين ما الذي تختاره؟ أن تعزف عن الدنيا ثم هي تلاحقك بكل محاسنها، وأنت لا تعيرها من اهتمامك شروى نقير، أو أن تقبل على الدنيا بكل اهتماماتك وأمنياتك، ثم إنها تهرب منك، فتصبح أمنياتك إحباطات وآمالك سرابا لا يطاق. إننا ندعوك إلى أن تصير إنسانا كبيرا، تسع كل هذه الطاقات والكنوز، وتستفيد منها كلها. أو أنك تريد أن تنام وتحت وسادتك كل هذه الكنوز، ثم تموت عنها في ندامة وحسرة لم تستفد منها شيئا، ومن القصور والزبرج والزينة ومتاع الدنيا لم تملك من قطمير؟؟؟

المجلس الثاني من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

إن الله سبحانه وتعالى هو مصور بني آدم، وهو الذي أخرج الانسان من كتم العدم إلى ميدان الوجود، ووهبه شرفا على سائر مخلوقاته. وتبارك الله الذي خلق الانسان في أحسن تقويم، وافتخر في كتابه المجيد بخلقة الانسان إذ قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وفي موضع آخر ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]. ولقد ميز الله سبحانه وتعالى الانسان عن سائر مخلوقاته حتى يكون الشرف الانساني واضحا.

فانظر إلى حال الملائكة الذين وهبهم الله جانب الملكوت فقط حتى لا يعرفوا غير العبادة، كما جاء في الأحاديث الشريفة ما معناه أنه لا يوجد مكان في السموات لا يكون فيه ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبدون الله على تلك الهيئة، فالملائكة لم يوهبوا أصلا القوى الحيوانية والشهوات النفسانية.

وعلى جانب آخر ألق بنظرك إلى الحيوان الذي وهبه الله سبحانه وتعالى الجانب الحيواني فقط، لا يعرف أصلا شيئا عن الجانب الملكوتي، ولا يعرف غير الأكل والشرب واتباع الهوى والوساوس النفسانية. والحيوانات بعضها مستغرقة في بحر الغضب، والبعض واقعة في وادي الشهوات، والبعض مستغرقة في الأكل والشرب والنوم.

فكما ترى أن هذين النوعين من المخلوقات كل يملك قسما من القوى، إلا أن الانسان المسكين لكونه أشرف المخلوقات يجمع بين القوتين، فهو يملك الجانب الحيواني، وأيضا أودع الله فيه القوة الملكوتية، ووهبه الاختيار الكامل في عالم الكون والفساد، بحيث يستطيع تنمية أحد الجانبين في وجوده. فإذا ألقى حبل الجانب الحيواني على غاربه وصل الكمال في هذا الجانب، حتى أنه يصبح أسفل وأرذل من الحيوانات التي هي منبع هذه القوة الحيوانية، كما قال الله تعالى في سورة الأعراف في شأن الكفار[1]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ **[الأعراف: ١٧٩]**، أي أنهم بعيدون عن الانسانية ولو كانوا على صورة البشر، بل إنهم في سيرتهم كالأنعام بل هم أضل. فالإنسان الذي أودعه الله الجانب الملكوتي وجوهر العقل اللطيف[2]، إذا تصرف حسب الهوى والوساوس النفسانية، فالضرورة تستدعي كونه من الأنعام بل أضل من الأنعام، فالأنعام لا يوجد عندها رادع ومانع من ركوب الهوى، أما الانسان فعنده هذا الرادع والمانع في وجوده.

ومن جانب آخر إذا باشر الانسان بتنمية وترقية الجانب الملكوتي، صعد مدارج الترقي في الملكوت بحيث تصبح الملائكة ـ منبع القوى الملكوتية ـ خداما للانسان، لأن الملائكة لا رادع لهم عن العمل بالقوة الملكوتية، في حين أن الانسان له رادع عن الارتقاء في القوة الملكوتية. لهذا السبب في الليلة التي عرج فيها بالنبي ﷺ إلى السماء، وصل إلى مكان توقف فيه طاووس الملائكة وقال: «لو دنوت أنملة لاحترقت»،

---

(١) في اللغة كفر الشيء بمعنى غطاه، أي أن الكفار هم في غطاء عن عالم اللطائف والملكوت.

(٢) جوهر العقل اللطيف هو العقل الذي له امتداداته في عالم الملكوت. فكما أن العقل المادي يميز الخير عن الشر في عالم الدنيا، فهو يتسع بفضل الجوهر اللطيف ليكون عقلا روحانيا ملكوتيا يميز الخير عن الشر في عالم الملكوت.

لأن هذا المكان[1] يصعد منه الانسان الكامل فقط وهو النبي الأكرم ﷺ، وليس للملائكة ولا حتى لطاووس الملائكة حق الصعود منه، ولا لهم القابلية لهذا الأمر. فالخلاق العليم أمر الانسان، الذي هو مجمع هذه القوى، أن يستعمل القوة الحيوانية على قدر الحاجة، بحيث يمكنه العيش في الأيام القليلة في هذه الدنيا. لأن الانسان مثلا إذا لم يأكل صعبت عليه الحياة، وإذا لم يجامع انقطع نسل البشر، وهكذا الصفات الحيوانية الأخرى. وأيضا أمر الله سبحانه وتعالى الانسان أن يجاهد في تربية وترقية الجانب الملكوتي إلى أقصى حدود مقدرته واستطاعته، لأن غاية الخلق المعرفة[2]، وأن تلك المعرفة لا تتأتى إلا بترقي الجانب الملكوتي، وأن الانسان لا يصل إلى منبع السعادة إلا بالاستغراق في هذا الجانب.

فالإنسان الذي يملك هاتين القوتين فرضت عليه أيضا مثل هذه المأمورية، وإذا كان هذا الانسان في عالم الكون والفساد لا يرى غير هذه الصفات الحيوانية والتجليات السفلانية، فهو بالضرورة يخالف أمر الله سبحانه وتعالى، ويباشر بتنمية وترقية الجانب الحيواني أكثر مما هو مأمور به. لهذا السبب جعل الله، خالق ما سواه، طريقا مفتوحا للإنسان العاصي حتى يتمكن بذريعة هذا الطريق أن يصل إلى منبع السعادة، ولولا هذا الطريق المفتوح لذهب أكثر خلق الله إلى جهنم، ولما تحققت غاية الخلق ألا وهي المعرفة. لذلك فإن الخلاق العليم فتح طريقا واسعا على العاصين وسماه التوبة، حتى يتمكن صاحب المعصية بواسطتها أن ينطلق آنا من الثرى إلى الثريا، وأن ينقلع من بئر الطبيعة ومستنقعات المعصية انطلاقا إلى الفردوس والى منبع السعادة.

---

(١) وهو سدرة المنتهى

(٢) كما في الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

التوبة النصوح

فلأن أمر التوبة أمر مهم، لذا ذكرها الله سبحانه وتعالى في مواضع عدة من كتابه المجيد كما في الآية الكريمة في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، فالتوبة النصوح هي توبة إنسان ينصح نفسه على الدوام. فالإنسان له واعظان: واعظ خارجي وواعظ داخلي، أما وعظ الواعظ الخارجي فلا يعطي أثرا تاما، لأن الإنسان حينما يستمع إلى وعظه ينتبه من سباته، ولكن إذا انتهى الواعظ من وعظه، ينسى الانسان بسرعة تلك الحالة التي كانت تهيمن عليه أثناء الوعظ، بسبب الغفلة التي تعتريه. أما الواعظ الداخلي فهو عقل[١] الانسان لأنه مصاحب

(١) العقل نوعان: عقل المعاش، وعقل المعاد أو العقل الروحاني أو عقل الملكوت. وأكثرية الناس يمتلكون عقل المعاش الذي بواسطته يصرفون أمور دنياهم، ويميزون به بين الخطأ والصواب في أمور دنياهم. أما المعني هنا من كلمات العلامة السيد حسين العالم فهو عقل المعاد أو العقل الروحاني الذي يقود الانسان إلى تحسين وضع معاده والترقي بنفسه إلى العوالم الملكوتية. ولا يجوز الخلط بين هذين العقلين كما يحدث غالبا. فالغالبية العظمى من الناس يجعلون عقل المعاش مسطرة ليقيسوا بها أمور التمييز بين الخطأ والصواب في أمور المعاد وفي أمور العوالم الملكوتية، وهذا هو عين الضلال الذي يقعون فيه وهم لا يشعرون، لأن المهم هو الميزان فإن لم يكن الميزان صحيحا كانت النتائج خاطئة ومضلة. فعالم الملكوت غير عالم الملك ويحتاج إلى ميزان من نوع آخر لاتباع الطريق الصحيح واقتطاف النتائج المطلوبة. فعقل المعاش الذي يمتلكه أغلب الناس هو الذي يجعلهم في أكثر الأحيان جاحدين لكل ما يقال عن الأسرار في=

للإنسان على الدوام، ويعرف أفكاره الداخلية. فإذا اتخذ الانسان عقله واعظا له، وعمل على الدوام حسب ذلك الوعظ، لم يضل في مسيرته، لأن العقل ينبه الانسان حينما تعتريه خواطر فاسدة. لذا فقد قال الخالق العليم أن توبوا توبة من يكون عنده واعظ داخلي الذي يعظه باستمرار، وجعل جزاء من تاب مثل هذه التوبة ما ذكره سبحانه وتعالى في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨]. فطوبى له من جنات لم يسمع أحد بأوصافها ولم ير شرواها أحد، حيث تتحقق له فيها السعادة الأبدية والراحة السرمدية. وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ويذكر المستغفرين في قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وأيضا ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، والآيات بهذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم.

فيا من يطلب البصيرة افتح عينيك وامسح المعاصي عن نفسك ببركة التوبة حتى تفوز بالسعادة الأبدية. وهذا المعنى لم يذكر فقط في القرآن المجيد، بل إن الأحاديث النبوية بهذا المضمون يفوق الحد والإحصاء، فالرسول الأكرم ﷺ، الذي هو حكيم إلهي ويعرف أقسام الأدوية للأمراض النفسانية، قال يوما لأصحابه الكرام: «ألا أخبركم بدائكم ودوائكم» قالوا بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «داؤكم الذنوب ودواؤكم الإستغفار». يعني ألا أخبركم بأمراضكم التي بسببها اسودت

= عوالم الملكوت، لأنهم لم يشاهدوها وتبعا لذلك لا يعرفوها، و(الناس أعداء ما جهلوا)، بسبب التعصب والجهل، إلا من رحم ربي. أما الذي يحن إلى تطهير نفسه والإرتقاء بها إلى عالم الملكوت، وينتمي إلى عالم الآخرة، المشمول بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فهذا الانسان قد وهبه الله العقل الروحاني الذي هو أوسع من عقل المعاش.

القلوب، وأصبحت مساكن الشياطين، وابتعدت الملائكة عن زواياها، وانقطع عنها سطوع النور الإلهي. وألا أخبركم بدواء هذه الأمراض الذي يعالجها بسرعة، ويستبدل سوادها بالبياض، ويحول محل الشياطين إلى مهبط الملائكة. قال ﷺ أمراض قلوبكم المعاصي ودواؤها التوبة.

وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». واعلم أن التوبة ليس لها وقت مخصوص ولا مورد معين، ففي أي زمان وأي مكان إذا توجهت إلى الكريم المطلق بقلب منكسر وبحالة الندامة، فإنه لا يردك محروما من كرمه الواسع. فأمعن نظرك طويلا في الحديث الشريف إذ قال ﷺ: «من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته»، ثم قال ﷺ: «إن السنة لكثيرة من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته»، ثم قال ﷺ: «إن الشهر لكثير من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته»، ثم قال ﷺ: «إن الجمعة لكثيرة من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته»، ثم قال ﷺ: «إن اليوم لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»، يعني إن اليوم لكثير من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته. فيا أخي العزيز لا يغرنك الشيطان الملعون ويؤخر لحظة توبتك التي هي سبب السعادة الأبدية إلى أن يحضر عزرائيل[1]، فلات حين مناص! فالتوبة آنذاك لا نتيجة لها ولا ثمرة! أما ترى فرعون كيف أهلك نفسه بهذا الفكر الفاسد الذي لم يتب حتى أدركه الغرق، فآنذاك حين عاين موته قال آمنت!!! في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ولكن أي فائدة من هذه التوبة! فجاءه الجواب مجلجلا في قوله تعالى أيضا في سورة يونس: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، يعني آلآن وقد وصلت إلى عالم الشهود تعلن توبتك؟

---

(١) وما أكثر ما يحضر ملك الموت بغتة من دون إنذار ومن دون مقدمة.

والتوبة أمان من العذاب الإلهي، فلقد قال أمير المؤمنين وسيد العارفين عليه السلام ما معناه إن في الأرض أمانان ذهب الواحد منهما وبقي الآخر فتمسكوا بهذا الأمان، فالأول هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي ارتحل من الدنيا إلى دار البقاء، والثاني هو التوبة والإستغفار في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فالله سبحانه وتعالى لم يفتح باب التوبة على هذه الأمة المرحومة فقط، بل جعل هذا الباب مفتوحا على بني آدم منذ أول الخلقة، لأن رحمته سبقت غضبه. ففي رواية أن آدم على نبينا وآله وعليه السلام خاطب ربه قائلا: «ربياه سلطت علي الشيطان وأجريته في عروق بدني، فمن علي شيئا في مقابل ذلك». فجاءه الخطاب الإلهي: «أي آدم لقد قررت لذريتك إذا أرادوا ارتكاب المعصية لم تكتب عليهم معصية وإذا ارتكبوا المعصية لم تكتب عليهم أكثر من سيئة واحدة وإذا أرادوا عمل الحسنة تكتب لهم حسنة واحدة وإذا عملوا حسنة تكتب لهم عشر حسنات». وأيضا نزلت الآية الكريمة بهذا المعنى في سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فقال آدم عليه السلام يا رب زدني. فجاءه الخطاب القدسي: «لقد جعلت التوبة لذريتك بابا مفتوحا يعرجون بسببها معارج السعادة».

من انقطع إلينا رفعناه إلى مكان منيع

وإذا تفحصت في صفحات التاريخ، عن طريق الأحاديث، سترى أشخاصا مستغرقين في بحر المعاصي، وقد نجوا من الغرق في هذا البحر بسبب التوبة. فقد نقل أنه كان هناك في زمن بني إسرائيل شاب فاسق فاجر، وقد تضايق الناس كثيرا من استهتاره وفسقه وفجوره. فرفعوا أيديهم إلى السماء شاكين إلى الله تعالى من عمل هذا الفاسق الفاجر. فجاء الخطاب الإلهي إلى موسى، على نبينا وآله وعليه السلام، أن يا موسى لقد أصبح عبادي في ضنك شديد بسبب هذا الشاب العاصي، فأخرجه من البلدة. فأخرجه موسى من البلدة. فجاء الشاب العاصي إلى بلدة أخرى. فجاء الخطاب الإلهي إلى موسى عليه السلام أن يا موسى أخرجه من هذه البلدة أيضا، لأن نار غضبي نازلة لا محالة عليها، إن هو بقي فيها، فأخرجه موسى عليه السلام منها أيضا. فلما استيأس الشاب من أن يجد له مكانا في البلدان، خرج إلى الصحراء مهموما مغموما، إلى أن وصل إلى مغارة غير ذي زرع، لم تتواجد في أطرافها مناطق مسكونة، ولا طار عبر هوائها طير.

فأصيب الشاب بمرض بسبب الوحدة والغربة. فلما اشتد مرضه، وضع جبينه على التراب، وأسرع إلى الباري تعالى بقلب منكسر ومجروح، وناجى ربه: «إلهي لو كانت أمي معي في هذه الغربة لبكت وسكبت الدموع علي بسبب غربتي، ولو كان أبي حاضرا لتكفل بغسلي

وكفني ودفني بعد موتي، ولو كانت زوجتي وأولادي معي لتألموا من حالتي المنكوبة، وتوسلوا إليك أن يا رباه اغفر لأبينا العاصي، الذي طرد من بلدة إلى بلدة، إلى أن استجار بمغارة في جبل». واستمر في مناجاته مع قاضي الحاجات، إلى أن هاجت بحار الرحمة الإلهية دفعة واحدة. فأرسل ربه بعض الحوريات على صورة أمه وزوجته، وبعض الغلمان على صورة أولاده، وملكا على صورة أبيه، فحضروا حول الشاب وبكوا على حالته المزرية. فاطمأن الشاب العاصي إلى أن حاجته قد قضيت، وأن هؤلاء هم أبوه وأمه وزوجته وأولاده، قد حضروا عنده يسكبون الدموع عليه، ففارق الحياة في راحة تامة.

فجلجل الخطاب الإلهي إلى موسى ﷺ: «**يا موسى ما هو قعودك هنا في غفلة؟ عجل بأسرع ما يمكن، فإن واحدا من أوليائي قد فارق الحياة بالقرب من مغارة كذا وكذا**، فقم بغسله وكفنه وصل عليه ثم ادفنه». فتحير الكليم ﷺ متسائلا من يكون هذا الشخص الذي عنده هذا المقام المنيع وهذه المرتبة العالية؟ فأسرع خطاه حتى وصل إلى باب المغارة، فوجد ذلك الشاب الذي كان قد أخرجه من البلدان وقد فارق الحياة، ورأى ملكا وغلمانا وحوريات حوله. فكلم موسى ﷺ ربه: «يا إلهي هذا هو العبد العاصي الذي أمرتني أن أخرجه من البلدان». فجاء الخطاب الإلهي: «يا موسى هذا هو الشاب بعينه لكنه انقطع إلينا بقلب منكسر وحال مضطرب فرفعناه إلى هذا المقام المنيع».

ونقل أيضا أن شخصا قتل سبعة أنفار، ثم ندم على فعلته، فذهب إلى عابد في صومعة وشرح له حاله، فأدار العابد وجهه عنه فقتل العابد أيضا. فذهب إلى عابد ثان وثالث، فأداروا وجوههم عنه فقتلهم. ثم ذهب إلى عابد رابع فقال له العابد: «إن معصيتك كبيرة، ولكن رحمة الله أكبر منها، إذا تبت فلعل رحمة الحق تشملك. واعلم أن في جوارنا قريتين إحداها تسمى «نصرة» والأخرى «كفرة»، فتوجه إلى القريتين. فإن

سلكت طريق «نصرة» فإن الله قد غفر لك، وإن سلكت طريق «كفرة» فإن توبتك غير مقبولة». فرحل العاصي حتى وصل إلى مفترق الطرق، ووقف متحيرا حتى وافته المنية هناك. فجاؤوا ملائكة العذاب وملائكة الثواب، ووقفوا متحيرين في أمر هذا العاصي. فجاء الخطاب الإلهي إلى الملائكة: «أن قيسوا المسافة من مفترق الطرق إلى القريتين. فإن كان أقرب إلى قرية «كفرة» فلتأخذه ملائكة العذاب، وإذا كان أقرب إلى قرية «نصرة» فلتأخذه ملائكة الرحمة. فقاسوا ورأوا بأنه أقرب إلى «نصرة» منه إلى «كفرة» بمقدار إصبع، فأخذته ملائكة الرحمة إلى جوار الرحمة الإلهية.

هذا هو مقام ومرتبة التائب الذي يتنبه إلى معاصيه. أما سمعت مولى الموالي أمير المؤمنين ﷺ، على الرغم من أنه قسيم الجنة والنار، وأنه مبرأ من المعاصي، وأنه المخلع بخلعة العصمة، إلا أنه كان يذهب إلى نخيل الكوفة بالليل، وكان يمسك تارة بلحيته المباركة مخاطبا الدنيا: «يا دنيا أتريدين أن تغري عليا، علي لا يغتر بك، علي قد طلقك ثلاثة، غري غيري». وتارة أخرى يبكي على بعد السفر ووحشة الطريق قائلا: «آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق».

قوم يونس وتوبتهم الجماعية

ولا تظن أن من تاب شملته الرحمة الإلهية وحده دون غيره، بل إذا تاب قوم شملتهم الرحمة الإلهية جميعا. فانظر إلى قوم يونس الذين كانوا يزيدون عن مائة ألف، وكيف أنهم ببركة التوبة نجوا من العذاب الإلهي وشملتهم الرحمة الإلهية. فالقصة على هذا المنوال أن يونس بعث نبيا وهو في الثلاثين من عمره، ودعا قومه إلى الله لمدة ثلاث وثلاثين سنة، وأراهم طريق الحق. فكذبه قومه جميعا إلا اثنان منهم، آمنا به وصدقاه، وهما تنوخا وروبيل. وكان روبيل من أسرة علمية وكان هو أيضا عالما، وكان تنوخا جاهلا. فلما رأى يونس أنه في هذه المدة الطويلة لم يؤمن به غير اثنين ضاق صدره. فقال إلهي بعثتني إلى هذا القوم ولم يؤمن بي إلا اثنان، والآن يريدون إيذائي وقتلي، فأنزل عليهم عذابك.

فجاءه النداء الإلهي: «أي يونس قومك يزيدون عن مائة ألف وفيهم أطفال رضع ونساء عجز وشيوخ معمرون وهم مخلوقاتي أي يونس إن نوحا الذي اجتبيته للرسالة أقام في أمته مدة أطول منك وصبر عليهم أكثر منك وتعب في نشر رسالته أكثر منك وأنكره قومه أكثر مما أنكرك قومك». فقال يونس إلهي لقد نفد صبري وإن هذا القوم لن يهتدوا. فجاءه النداء الإلهي: «أي يونس سأنزل عليهم عذابي يوم الأربعاء وسط شوال فأنذرهم بذلك». فسر يونس كثيرا وأسرع إلى تنوخا وأخبره بما

أخبره به ربه من إرسال العذاب، فسر تنوخا بذلك. وقال يونس يجب أن أخبر قومي بأن العذاب آت. فقال له تنوخا لا تخبرهم ودعهم في حالة كفرهم وعصيانهم حتى ينزل العذاب الإلهي عليهم. وفي آخر الأمر ذهب يونس وتنوخا إلى روبيل، فتألم روبيل كثيرا من هذه الواقعة. وبعد تبادل بعض الكلمات بين روبيل وتنوخا ويونس، أخيرا بقي روبيل بين قومه، وخرج يونس في معية تنوخا من البلد.

وبعد ذلك رجع يونس وأخبر قومه بنزول العذاب، فأنكروا عليه كلامه وأخرجوه بعنف من البلدة. وبعد ذلك أقام يونس وتنوخا بعيدا عن البلد في انتظار العذاب الإلهي، حتى وصل شهر شوال. فصعد روبيل إلى الجبل ونادى قومه وقال لهم: «أنا روبيل وأنحدر من عائلة الأنبياء، وأنا عالم ببعض علوم البداء، وأكلمكم لا عن هوى نفساني، ولكن عن محبة فيكم. فاعلموا أن يونس نبي مرسل من قبل الله، وأن الله وعده العذاب في وسط هذا الشهر، وأن هذا الوعد غير مكذوب، فارحموا أنفسكم». فلما سمع القوم كلاما بهذا الأسلوب حصل لهم اليقين بما قال لهم روبيل، فقالوا يا روبيل ما هو علاجنا الآن؟ فقال لهم روبيل: «العلاج ينحصر في أنه في صباح يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال وعند طلوع الشمس، أن تخرجوا جميعا إلى سفح الجبل مع أطفالكم ونسائكم وحيواناتكم، وأن ينفصل الرجال عن النساء، والنساء عن الأطفال، وأن تبعدوا صغار الغنم عن أمهاتها. وحينما تجدون ريحا صفراء تهب من المشرق، أطلقوا صيحات الأنين والإستغاثة، وأنيبوا وتوبوا إلى الله، فحينذاك يرحمكم ربي ويزيح عنكم العذاب».

فاتفق قوم يونس جميعا على هذا الأمر. وحينما وصل اليوم الموعود ذهبوا جميعا إلى سفح الجبل، ووقف روبيل بجانب يونس وتنوخا في موضع بعيد يراقبون أحوال القوم. وعندما كان قوم يونس واقفين ينتظرون العذاب، فجأة هبت ريح صفراء في غاية الشدة من ناحية

المشرق، فارتفعت أصوات الصراخ وصياح الأنين، وبكى الأطفال من بعد أمهاتهم، وأنّت الرضع في طلب الرضاع، وصرخت الأغنام من الجوع. وكان النبي يونس ﷺ يسمع صراخهم وصياحهم من بعيد. وعندما حان وقت الظهر، تحركت الرحمة الإلهية، وأمر الله إسرافيل قائلا: «عجل بتمام السرعة إلى الأرض وارفع العذاب عن عبادي فإن عبدي يونس طلب مني نزول العذاب على قومه ولم يطلب هلاكهم وها أنا ذا أنزلت العذاب ولكنهم تابوا إلي وأنا أرحم الراحمين». فقال إسرافيل: «وأنا أرحم الراحمين يا خالقي لقد وصل العذاب إلى أذقانهم وأخاف أن يهلكهم العذاب قبل أن أصل إلى الأرض».

فجاء النداء: «يا إسرافيل لقد مسكت الملائكة العذاب بإذني». فنزل إسرافيل وأبعد العذاب عنهم بجناحيه. وعندما أتى الليل، وعرف قوم يونس أن العذاب ارتفع عنهم، عادوا إلى منازلهم. وعندما طلع الصبح قال يونس: «يا تنوخا لا أسمع للقوم صوتا فلعلهم هلكوا»، فجاءا إلى القرية يتقصيان كيفية هلاكهم. وفجأة رأيا حمالي الأشواك وغيرهم مشغولين بأعمالهم مثل ما كانوا فيما مضى. فاغتاظ يونس وقال إن العذاب لم ينزل عليهم، وإذا رأوني نادوني كذابا. فخرج إلى البحر وهو مغضب على قومه. وعندما وصل إلى البحر ركب السفينة. وفي وسط البحر اقترب النون (وهو حوت عظيم) من السفينة، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وحين اقترب الحوت من السفينة، كان يذهب إلى الطرف الذي يجلس فيه يونس. وعندما وقعت القرعة باسم يونس، ألقوا بيونس في فم الحوت. وفي الظلمات، والتي هي ظلمة بطن الحوت وظلمة بطن البحر وظلمة الليل، أخذ يونس بمناجاته مع قاضي الحاجات قائلا: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين». وبعد أيام ألقى الحوت يونس

على ساحل نينوى بأمر من الله. ولأن جسم يونس في بطن الحوت أصبح لطيفا، أنبت الله سبحانه وتعالى عليه شجرة من يقطين، كما ذكره الله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ **[الصافات: ١٤٦]**. وبعد أيام ذهب إلى قومه الذين كانوا يزيدون عن مئة ألف والذين أصبحوا من المؤمنين.

رحلة في المجلس الثامن عشر من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

لقد قال السيد حسين العالم بأن أكمل وأعلى مراتب الإيمان هو الإيمان القلبي الشهودي، والتي هي المرتبة الأخيرة من الإيمان. وأن مقدمة الوصول إلى ذلك هي اليقين، وأنه بدون اليقين لا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان. وما يعنيه السيد لا يتحقق البتة عن طريق الفلسفة، فالثابت أن الفلاسفة كثيرا ما تناولوا البراهين التي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى، والأمور الغيبية الأخرى، كالفارابي وأبي علي بن سينا وغيرهم، واستدلوا بالآثار وبالعلل حتى وصلوا إلى المؤثر وإلى علة العلل. ولكن الفلسفة نشاط ذهني يحبها المثقفون والمتعلمون، ولا علاقة لها بأمور اليقين وبالإيمان القلبي الشهودي. وحتى أن الكثير من فلاسفة العرفان النظري، ينقلون الوقائع الغيبية والإستدلالات الفلسفية، لإثبات المقامات العرفانية، ولكن ذلك نشاط ذهني محض، يعتمد على النقل وإفرازات المخ، ولا ينبعث عن اليقين لديهم، ناهيك عن أمور الإيمان القلبي والكشف والشهود.

والمثال التالي سيقرب إلى ذهنك ما هو الفرق بين اليقين بوجود الشيء، وبين الإستدلات الفلسفية والذهنية لإثبات وجود ذلك الشيء. فمثلا عندنا في التاريخ عالم مبرز وفيلسوف شهير اسمه أبو علي بن سينا، حقق في كل العلوم تقريبا، وأعطى للعالم نتاجا جبارا في الطب

وفي الفلسفة وغيرها. حتى أنه قلد ابن طفيل وكتب رسالة حي بن يقظان، على غرار رسالة ابن طفيل بنفس الإسم، لإثبات نظريته بأن الإنسان إذا ترك للفطرة، من دون تدخل العوامل الخارجية، كالأسرة والمجتمع والأصدقاء وغيرهم، ممن لهم التأثير التربوي والإعلامي على الإنسان، فإن الإنسان حتما سيصل إلى اعتقاد جازم بالله سبحانه وتعالى.

هذا الفيلسوف الشهير قطع الفيافي والقفار لزيارة العارف الشهير أبي سعيد أبي الخير، وكان متواجدا حينذاك في الحمام العمومي. وسأله ابن سينا أسئلة كثيرة للإطلاع على العوالم الغيبية. وبعد ما خرج من عنده سأله الناس عن نتيجة هذه المقابلة. فقال لهم كنت كالأعمى أتحسس بعصاي ما كان يراه أبو سعيد أبو الخير. ولما خرج أبو سعيد أبو الخير سأله الناس فقال لهم، إن هذا الأعمى العنيد كان يتحسس بعصاه كل شيء أراه في العوالم الغيبية. وأظن أنك فهمت الآن الفرق بين العرفان وبين الفلسفة.

يقول مولانا ومقتدانا الإمام الحسين روحي له الفداء في دعاء عرفة: «إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك. كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك». وهذه الكلمات المباركة من هذا الفم المبارك تنطق، بكل فصاحة وبلاغة، بالحقائق الكونية، وهذه الآثار هي التي حصر الفلاسفة نشاطهم الذهني فيها لإثبات وجود الله. فكيف يستدل عليه بما هو في وجوده مفتقر إليه!!!

والذي جاء به الأنبياء والمرسلون، وعلى الأخص خاتم الأنبياء محمد ﷺ، هو هذه الرؤية العرفانية التي تعتمد على الرؤية واليقين، لا الإستدلالات الذهنية التي يشوبها الشك والريبة. وهناك كتاب اسمه

«السحر» كتبه الدكتور الياباني يوشي ميكي مايدا، دوّن فيه تمام تفاصيل مقابلته مع شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره، أذكر بعض المقتطفات منه: ـ

«لقد ظهر الأنبياء وكانت خلاصة دعوتهم: «يا أيها الناس أربابكم محدودة ومتغيرة، وكل محدود ومتغير محتاج إلى غيره وفاقد للعلم. إن الله الذي ندعوكم إليه قادر على كل شيء، وعليم بكل شيء، ونحن مرتبطون به ونعرفه، والذي نقوله هو كلام الله». فكانوا صادقين في أقوالهم وأعمالهم، وكانت عقائدهم صحيحة بالكامل. وأخيرا بعد اللتيا والتي، وبعد الإستدلالات والحروب الكثيرة، قبل الناس على الظاهر عقائدهم، وحطموا أوثانهم ورموها بعيدا عنهم، ولكن أكثرهم قبلوا الله تعبدا، بمعنى أنهم لم يعرفوا الله قط ولا ارتبطوا به، **وظنوا أن عليهم أن يفهموا أقوال الأنبياء بقوة أفكارهم!!!**

ونتيجة لذلك ظهرت بالتدريج مكاتب فلسفية مختلفة مبنية على أفكار أصحابها. فهم في الحقيقة لم يصلحوا أخطائهم السابقة فحسب، بل ارتكبوا أخطاء أكبر من الأولى أيضا. فهذا صحيح بأنهم حطموا الأصنام المنصوبة في معابدهم، ولكنهم بنوا عمليا أصناما أكبر في أفكارهم وعقولهم، وانشغلوا بعبادتها في المعابد والكنائس والمساجد. فبرزت شرائح كبيرة من الفلاسفة، بأساليب ومكاتب فكرية مختلفة. وهذه الفرق على العموم قسمتها إلى مجموعتين أصليتين كبيرتين: «أصحاب الفلسفة الإلهية والفلسفة المادية».

فانشد اليقين يا صاح، فببركة اليقين يزيد ميلك وشوقك إلى المبدأ الحقيقي، ولا تظن أن طريقك إلى الكمال هو في إطار الأمور الحسية، فكمال الإنسان لا يتأتى إلا بالإرتقاء من عالم المحسوسات إلى عوالم المجردات. يقال بأن العارف الكبير جلال الدين مير أبا الفضل العنقا، جد مولانا صادق العنقا قدس سره، كان في صباه يتعلم النحو في إحدى

المدارس، فجاءه أحد الأولياء وسأله ماذا تتعلم هنا؟ فقال علم النحو. فقال له الولي: **«أو ما تريد أن تتعلم علم المحو؟»**. فتغيرت حالات مير أبي الفضل العنقا، ومنذ ذلك اليوم غاص في علم المحو، حتى صار من أقطاب الطريقة الأويسية.

علم اليقين ومفارقته عن الفلسفة الإلهية

الفرق بين علم اليقين والفلسفة الإلهية هو الفرق ما بين السماء والأرض. فعلم اليقين نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما في الحديث النبوي الشريف: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، فلذلك فعلم اليقين ينتمي إلى السماء. في حين أن الفلسفة ـ بشعبتيها الإلهية والمادية ـ اختراع بشري صرف، وهو من إفرازات المخ، التي تستمد قوتها من المحسوسات والحواس الخمس، فلذلك فعلم الفلسفة ينتمي إلى الأرض.

وإنه من الأهمية بمكان، أن نضع الخط الفاصل بين علم اليقين، من ناحية، وبين علم الفلسفة وإفرازات المخ البشري والعلوم المعقولة والمنقولة، من ناحية أخرى، بحيث لا يحدث خلط عشوائي. ولا يظن القارئ المثقف خطأ، أنه بمحض القراءات في الكتب أو السماع من الخطباء على المنابر، يمكن الوصول إلى ما ذكره السيد حسين العالم قدس سره من علم اليقين، ومن ثم الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان، التي هي أكمل وأعلى مراتب الإيمان، ألا وهو الإيمان القلبي الشهودي.

وإنه من الأهمية بمكان، أن نذكر هذه الحقيقة، بأن مرحلة ما قبل اليقين من الإستدلالات الذهنية والبراهين الفكرية من علم الفلسفة، التي تشوبها الشكوك والريب، لا تقاس ولا تقارن البتة بمرحلة ما بعد اليقين،

من نوع الإستدلالات والبراهين، التي ذكرها السيد حسين العالم قدس سره، والتي تتميز بالإعتقاد الثابت الجازم بالأمور الغيبية الواقعة، ولا يتزعزع أصحابها عن إيمانهم قيد أنملة، ولو سلطت عليهم آلاف السيوف، ولا يمكن للظلمة أن تغشاهم لأن قلوبهم تنورت بالنور الإلهي. فهم الذين نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السماء وإلى المخلوقات الأخرى، فتعلموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكروا في الآثار الإلهية، **فأزيحت حجب الظلمة دفعة واحدة عن قلوبهم**، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصمد، اليقين الذي لا يتزعزع بفعل تيارات الرياح المخالفة. فأين الثرى وأين الثريا!!!

فمرتبة علم اليقين الذي يتكلم عنها السيد حسين العالم قدس سره لا علاقة لها بالفلسفة واستنباطاتها، والعلوم البشرية واجتهاداتها، المنقولة منها والمعقولة، وإفرازات المخ التي تستمد قوتها من حواس الإنسان الخمس. لأن علم اليقين ليس علما مكتسبا، بل إنه علم يحصل للسالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهي يبزغ في قلب السالك، من نوع العلم الذي ذكره الرسول الأكرم ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

أما الفلسفة بشعبتيها الإلهية والمادية فهي لا علاقة لها بأمور اليقين ولا بمرتبة علم اليقين، وكيف ذلك في حين أن علم اليقين هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء. أما الفلسفة فهي اختراع بشري صرف، يستلهم أصحابها العلم من عالم المحسوسات، أو يعتقد أصحابها بأصالة الأفكار التي هي من إفرازات الخلايا المخية، وتفاعلاتها الكهربائية والمغناطيسية والكيماوية.

ويليق بنا أن نذكر في هذا المقام تجربة النبي إبراهيم عليه السلام، وتحقيقاته واستدلالاته، وتفكراته في النجوم التي تزين السماء الدنيا، وفي بزوغ القمر والشمس ثم أفولهما، كمثال حي على ما ذكره السيد

حسين العالم قدس سره عن مرتبة علم اليقين، الذي يتأتى بترتيب المقدمات والإستدلالات، وبالتفكر في الآثار الإلهية. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ **[الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].**

من الواضح أن هذه الإستدلالات الملكوتية تيسرت لإبراهيم عليه السلام، لأن الله أراد أن يريه ملكوت السماوات والأرض، **وليكون من الموقنين.** فحصل له نور اليقين، وحصل له التوجه الكلي إلى الله، ووجه وجهه إلى الذي فطر السماوات والأرض، الذي هو يبقى ويفنى كل شيء. والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنفوس، فيختار لنفسه أزكاها وأخلصها وأكثرها استعدادا للنور والهداية. ثم ينظر في النفوس الأخرى، فلا يرى تزكية ولا إخلاصا ولا استعدادا للنور والهداية، ولا حتى نية من هذا النوع. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فمثل هذه النفوس تتوق إلى الدنيا، وهي محشورة في أنانيتها وإثبات أعلميتها، ولا تريد أن تتخلص من العجب والكبر، فيتركها الله إلى ما هاجرت إليه، فتنشغل بالفلسفات التي لا تؤدي بها إلى اليقين، ولا إلى الإيمان القلبي الشهودي، ولا إلى الوصول إلى رب العالمين، بل تزيد النفوس ظلمة إلى ظلمة، وتنزلها من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين أكثر فأكثر. فالمطلوب أن تخرج نيتك من دنيا تصيبها أو امرأة

تنكحها، وأن تضع النية كلها في حب الله وحب الوصول إليه، وحب الرسول ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ، والإقتداء بهم، وحذوهم حذو النعل بالنعل، وحب أحباب الله وأوليائه ومصاحبتهم. فلا تتردد في ذلك، ولا تقدم رجلا وتؤخر أخرى!!!

أما ترى الحسين ﷺ يناجي ربه: «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الإستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الإعتماد عليها»؟ فهو يهدف إلى الوصول إليه فقط وفقط، مصون السر عن النظر إلى الآثار، ومرفوع الهمة عن الإعتماد على الآثار. وهو يهدف إلى كسوة الأنوار وهداية الإستبصار، تماما كجده إبراهيم ﷺ، لا الضياع في الإستدلالات الذهنية والبراهين الفكرية. وحاشاه من ذلك! فإنها أضيع من سراج في شمس!!!

فاجعل هدفك لقاء الله وحده، واجعله نصب عينيك، ولا تنس ذلك أبدا، ثم انظر ماذا يسر الله لك، إن يسر لك الإستدلالات والبراهين حتى تصل إلى المؤثر عن طريق الأثر، فليكن ذلك، ولكن لا تنس أن تلحفه بالسؤال بأن يعجل لك الوصول إليه فقط وفقط، وأن تظهر الإستقامة في طلبك، والإرادة في التعجيل للقائه، والإدبار عن دار الغرور، والإقبال على دار الخلود. يقال إن الفيلسوف الشهير ملا صدرا الشيرازي الذي أمضى ثلاثين سنة في تأليف فلسفته الإلهية، حينما اقترب من سكرات الموت، تفوه بهذه الكلمة المشهورة: ـ

يا ليتني فهمت حق الفهم هذه الآية الصغيرة من القرآن الكريم: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وأمضيت في العمل بها عمري، بدل أن أضيع ثلاثين سنة من عمري في متاهات الفلسفة!!!

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

فاعتبروا يا أولي الألباب! فانظر ماذا تكون كلمتك الأخيرة عند اقتراب الموت، صدقا وإنصافا أمام الله، لا نفاقا ورياء أمام الناس؟ أتكون «فزت ورب الكعبة»؟ أو ﴿ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]؟

العرفان ومفارقته عن الفلسفة بشعبتيها الإلهية والمادية

فلنرجع إلى مقتطفات من كتاب السحر وإلى كلمات شيخي ومولاي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره: ـ

«خلاصة عقائد الفلاسفة الإلهيين الذين كتبوها في كتبهم، هو أنهم معتقدون بأن الأشياء كلها خلقت بيد قدرة ميتافيزيقية مجهولة، في مقابل الفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بالطبيعة أو المادة المحسوسة فقط. وأنا أعني بالفلاسفة الماديين أولئك الذين يعتقدون في فلسفة المادة، لا العلماء الطبيعيين الذين يجرون تحقيقاتهم التجربية على أساس المادة، لأن الكثير من العلماء الطبيعيين ينتمون إلى الفلسفة الإلهية.

فمنذ الأزمنة القديمة، فإن المباحثات والإستدلالات بين هاتين الطبقتين جارية ولا زالت. فمن الممكن أن تتخذ المادة الموضوعية واستدلالاتهم صيغا متفاوتة في أزمنة مختلفة، ولكن النتيجة النهائية واحدة.

فمثلا في الحضارة اليونانية أتى الفيلسوف اليوناني (ديموكريتوس) بنظرية الذرة التي لا تتجزأ، وعلى أساسها قال بأن الأشياء تتجزأ إلى أن تصل إلى ذرة لا يمكن تجزئتها، أي لا يمكن شطرها إلى نصفين. فلاقت هذه النظرية اعتراض الفلاسفة الإلهيين، واستدلوا بأنه لو فرضنا ألفين

من هذه الذرات، ثم قسمناها إلى مجموعتين، كل مجموعة تضم ألفا من الذرات، ثم وضعناها متوازيتين متقاربتين في خطين مستقيمين، ثم إذا وضعنا ذرة بين هاتين المجموعتين، فنحن نسأل (ديموكريتوس) إذا ما أردنا أن نوصل مجموعة إلى أخرى، فماذا يكون وضع الذرة التي بينهما؟ أتكون هذه الذرة مانعة لاتصالهما؟ فإذا كان الجواب نعم، فإن الذرة لها سطوح جانبية، أي أن لها طرفين، ولأن لها سطحين فيمكن تجزئتها وشطرها. وإذا شطرنا الذرة نصفين مرة أخرى، فهل يكون لها سطحان جانبيان أم لا؟ فإذا أجاب (ديموكريتوس) بأن هذه الذرة لا تمنع اتصال المجموعتين من الذرات، فجوابه واضح بأن لا وجود لشيء بين المجموعتين.

فإذا دققنا في طرق استدلال هاتين الشريحتين من الفلاسفة، نرى أن لهما وجوها مشتركة في الفكر، إلا أن لهما طريقتين في الإستدلال. **فإن الفلاسفة الإلهيين يقولون: «كل شيء ينبع عن أفكارنا فهو صحيح، بمعنى أن الآثار الناتجة عن خلايا المخ صحيحة». في حين أن الفلاسفة الماديين يقولون: «حواسنا هي الحقيقة، بمعنى أن المواد الخارجية التي نحسها ونراها هي الحقيقة، وبالنتيجة فإن المادة أصيلة».**

فهاتان الشريحتان من الفلاسفة لا تعرفان **بأن حواس الإنسان وأيضا أفكاره ليست حقيقة**، وبالأصل فإن انقسامهم إلى شريحتين أو طبقتين ليس في محله، وكان الأجدر بهما أن تقولا نحن شريحة واحدة ولا نفهم شيئا. لأن شريحة الإلهيين، بأفكارهم وأذهانهم، رجعوا إلى أوثانهم القديمة، في شكل قوة مجهولة، في حين أن الماديين يعتبرون المادة أصيلة. والنتيجة المنطقية هي أن الشريحتين ترتكبان خطأ أكبر من خطأ الوثنيين القدامى.

في الوقت الحاضر فإن الماديين يخجلون من أن يقولوا بأن الله جسم، ولكنهم يعبرون عن هذه الحقيقة بقولهم: «إن المادة موجودة،

ولكن الله غير موجود»، مقارنة مع الوثنيين القدامى الذين كانوا يقولون: «إن الله غير موجود، وإذا كان موجودا فهو هذا الوثن». فما هو الفرق بين الأسلوبين في الإستدلال؟ في حين أن الإلهيين يقولون بأن الجسم ليس الله، ولكن هناك قوة مجهولة يسمونها الله. وهذا إقرار منهم بجهالتهم وعدم معرفتهم بالمبدأ الذي يشيرون إليه بأنه قوة مجهولة.

وإذا فرضنا وجود هذه القوة المجهولة بجانب ذلك الجسم، تكون النتيجة شخصا ثالثا الذي هو الوثن الجاهل الأكبر، الذي يحمل في طياته مجموعة من جهالات الإلهيين والماديين. وإنه من البساطة بمكان، أن نفهم بأن الأفكار ـ فكرة فكرة ـ في هذه الفلسفات تشكل مجموعة من الأخطاء، بمعنى أن الماديين لا يعرفون شيئا عن فلسفة الإلهيين، وأن الإلهيين غرباء عن فلسفة الماديين.

وهذه المطالب شرحتها في كتابي «زوايا الحياة المخفية»، والذي هو عبارة عن أجوبة على أسئلة الجمعية العالمية لبحوث العلوم المختلفة. فلقد ذكرت بأن العلماء الطبيعيين لم يعطوا مسائل ما وراء الطبيعة حقها من البحث والتحقيق، لأن حجتهم في ذلك أن قوى ما وراء الطبيعة غير المرئية هي في الحقيقة من نوع المجردات، التي لا تقاس ماديا، ولا تعرف بواسطة القوانين الطبيعية الموجودة، فلذلك فهم يقولون بأنها غير موجودة، أو على الأقل لا نعرف عنها شيئا.

وعلى الطرف الآخر فإن العلماء الإلهيين وفلاسفة ما وراء الطبيعة في الشرق والغرب اتخذوا أيضا نفس النهج، واعتمدوا على الإستدلال الصرف أو على تجاربهم العملية، فقالوا بأن المادة المحدودة لا يمكن أن تكون مفتاحا لكشف المعضلات المعنوية المجردة الدقيقة، وأن بحوث الطبيعيين، وإن كانت مفيدة للحياة الطبيعية، إلا أنها لا تصلح أن تكون معيارا للمعرفة المعنوية.

ولإثبات ما أقوله بأن الماديين والإلهيين مخطئون في استدلالاتهم وطرق انتخاب عقيدتهم، لا بد أن نتناول الموضوع من زاوية أخرى، ونعطيها حقها من البسط والتوضيح، لعل هذا الأمر يتضح جيدا.

من الثابت أن كل شيء متحرك، فإن حركته تنبعث من غير ذلك الشيء. فمتى وردت طاقة محركة على جسم، فإن هذه الطاقة تؤثر على الجسم كله بشكل مساوي. أو أن كل شيء متحرك، نقول عنه بأن فيه أثرا من حياة، أو نقول بأن ذلك الشيء حي، لأن الحركة هي من علامات الحياة. فمثلا الماديون يقولون بأن الأشياء مستقلة، فلما سألتهم: «**هل الجسم هي الحياة، أو أن الحياة تقع خارج الجسم؟**». فيجيبون بكل بساطة: «**إن الحياة تجيء من خارج الجسم**». فما نستنتجه هو **أن فلسفة الماديين أولا ليست ملمة بحقيقة الحياة، وثانيا أنها لا تعرف عن واقعية الجسم نفسه شيئا.**

أما الفلاسفة الإلهيون فيقولون في جواب هذا السؤال: «**إن حركة هذا الجسم تتعلق بطاقة خارجية تأتي من اللامتناهي**».

فإذا قارنا هذين الأسلوبين من الإستدلال، يتضح بكل بساطة بأن الفلسفتين في الحقيقة تقولان نفس الشيء. **فواحدة تقول بأن الطاقة المحركة تأتي من الطبيعة، في حين أن الأخرى تسميها الله.** ستلاحظون بأن اختلافهما هو فقط في استعمال كلمتين متفاوتتين، وإلا فالهدف واحد، وفي الحقيقة إن كليهما لا يعرفان شيئا.

فعندما يقول صاحب الفلسفة المادية بأن الحياة هي خارج الجسم، فهذا يثبت بما لا مجال فيه للشك، **بأن الفلسفة المادية خطأ محض.** فهم في الحقيقة يقولون بأننا لا نعرف شيئا عن الحياة، وأن الوجود للمادة فقط. أما الإلهيون فيستدلون بأن المادة لا يمكن أن توجد بنفسها، وأن كل شيء له صانع، وهذا العالم أيضا له خالق، فلا بد أن يكون هو الله. وهذا النوع من الإستدلال أيضا شيء مجهول.

فالذي أقصده هو أن تفكرات الفيلسوف المادي أو الفيلسوف الإلهي واستنتاجاتهما كلها خطأ، وكلها تنبعث من الجهالة. فلا بد أن نحقق الآن في هذا الموضوع المهم، وهو كيف أن أقوال الأنبياء حقيقة. فلقد اتضح لنا بما لا مجال فيه للشك، بأن الإستدلالات آنفة الذكر توضح بأن الفلاسفة الماديين والإلهيين يقولون بأنفسهم بأننا لا نملك الحقيقة. فإذا جمعنا الفكرتين ـ الفلسفة المادية والفلسفة الإلهية ـ في مكان واحد، فإنهما لا تقولان شيئا مما يقوله الأنبياء، لأن أقوال الأنبياء شيء آخر.

فالأنبياء يقولون: «**إننا نعرف الله ونراه وإننا مرتبطون به**». فلهذا يجب أن نقول بأنه لو كانت الحقيقة مع الأنبياء، فالمنطق الصحيح هو أن الذين يتبعون أفكار الفلاسفة من الإلهيين أو الماديين، فإنهم لا يتبعون الحق والحقيقة ولا يصلون إلى الله. دعنا نذكر حديث محمد ﷺ، الذي هو أحد الأنبياء بل خاتمهم وأعلمهم وأحكمهم: «**كل ما ميزتموه بأوهامكم بأدق معانيه فهو مخلوق عنكم ومردود إليكم**». يعني الناتج عن تمييزاتكم في أدق معانيها، هو مخلوقكم الفكري، ولا يستحق العبادة، أي أنه ليس من الحقيقة في شيء. وهذا الأمر هو من الأصول والقوانين التي يجب أن تراعى في مكتب العرفان الإسلامي في الطريقة الأويسية.

فلهذا يجب على الإنسان أن يعلم عن المادة، ويعلم أيضا عن تلك القوة المجهولة، وأن يعرفهما بمعنى أن تحصل له المعرفة والعرفان الذي يؤدي إلى معرفة الله. فلهذا أقول الآتي: ـ

ألف ـ يجب أن ترى الحقيقة، والأدلة لا تستطيع قط أن تظهر لك الحقيقة.

ب ـ إن التعريفات الإسمية والتجريبية هي حجاب يخفي عنك الحقائق.

فلأضرب لك مثالا، وهو أنك في اليابان إذا أردت أن تذكر لأحد أوصافي بأدق العبارات، مثلا تقول إن عدد شعره مليونان، وأن أذنه بيضاوي الشكل، وأن لون عيونه رمادي، وأن أسلوب تفكره كذا وكذا، إلى آخره، فالذي يرسمه المستمع في خياله، من خلال الأوصاف التي ذكرتها، ليس أنا، لأن ذاك الرسم مخلوق أفكار المستمع، وإذا لم يرني ذلك المستمع لا يستطيع أن يعرفني. يعني أن كل شيء نميزه بأفكارنا وحواسنا، هو مخلوق منا، وهو وثننا وليست الحقيقة، بل لا تشبه الحقيقة في شيء.

ما هي جذور عبودية الله في فطرتك

إن علم اليقين باب يفتحه الله على عبده بعد التوبة النصوح، ونور يشرقه الله في قلب التائب السالك في سيره وسلوكه إلى الله سبحانه وتعالى. يقول إمامنا ومقتدانا الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك».

فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما هي جذور حبنا وعبوديتنا لله في فطرتنا؟ وكيف أن طلب الله يلح علينا في داخلنا عند التوبة النصوح؟ وكيف أن شيئا ما في وجودنا، بعد التوبة النصوح، يلومنا على الدوام على الآثام والمعاصي التي ارتكبناها ونرتكبها، والتي تبعدنا عن الله، ثم ينصحنا ذلك الشيء بأن لا نعود إلى الآثام مرة أخرى؟ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

ولماذا تحدث كل هذه الأشياء في وجودنا، رغم أننا مرتاحون ظاهريا في الدنيا، لحصولنا على المطعم والمشرب والنوم والجنس والمسكن والملبس، أي على إرضاء حوائجنا الإنسانية الأساسية الستة؟ علما بأن حوائجنا البهيمية الأساسية هي خمسة، وهي المطعم والمشرب والنوم والجنس والمسكن.

يجب الوغول في أعماق نفسك للتعرف على ما هو مكتوب في فطرتك منذ تكوينك في رحم أمك. سترى حوائجك الستة الأساسية، لأنك تسعى ليل نهار لإرضائها. ولكن هل ترى أشياء أخرى في وجودك تحتاجها غير هذه الحوائج الأساسية الستة؟ هل ترى أشياء وحوائج أخرى تؤرقك رغم حصولك على حوائجك الأساسية؟

نعم إنه الله، وهو ربك الذي خلقك ويخلقك الآن، ويخلق الآن في وجودك ملايين الملايين من الخلايا الحية، التي تحل محل خلاياك التي تموت باستمرار. نعم إنه الله، وهو ربك الذي يربيك في كل اللحظات، لا يتوقف عن تربيتك طرفة عين، ويدبر كل أمور حياتك، من تناوب موت الخلايا وخلقها من جديد، ومن تناوب النوم واليقظة، ومن تناوب الليل والنهار، ومن تناوب النور والظلمة، ومن تناوب الصحة والمرض، ومن تناوب المطعم والمشرب ودفعهما، ومن نبض القلب المستمر، والنفس الذي لا يتوقف، ودورة الدم في شرايينك وعروقك، وعمل ووظائف كل جوارحك، وغيرها وغيرها، مما لا تعد ولا تحصى، في نظام بديع، لا يستطيع العباقرة والنوابغ فعل جزء صغير جدا جدا من هذه المعجزات البديعة.

نعم ستعرفه، لا عن طريق غيرك، بل في نفسك، لأنه مألوف لديك. ولكنك تبعده عنك بفعل الطبع والعادة التي رانت على قلبك، ووضعت عليه الأغلال والسلاسل، حتى باتت القلوب لا تفقه، والعيون لا تبصر، والآذان لا تسمع. أو ما سمعت قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فاكسر العادة، فإن كسر العادة عبادة، كما يقوله مولاي وشيخي صادق العنقا قدس سره. فوالله الذي لا إله غيره، لو انزاحت عنك

حجب العادة، وظنون التعود، وقسوة القلب، وتصلب الحواس، لكنت وجها لوجه أمام روعة الخالق وآياته ومعجزاته، في عجب وحيرة دائبتين دائمتين، لا يبقى لك وقت للنظر إلى غيرها!!! أو ما يقول الله تعالى في حق النبي المصطفى ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]! أو ما يقول الله تعالى في حق أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]! فهم والله ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالتبرؤ من العادات، وعدم التعود على الآيات، كأنهم يرون كل شيء وكأنه يحدث لأول مرة في حياتهم!!! أما حصل لك أن رأيت شيئا لأول مرة في حياتك! كيف كان عجبك وحيرتك!!! ولكنك مع الأسف تتعود عليها، فيذهب بريق العجب عنك. أما في العرفاء وأولياء الله الصالحين فإن بريق العجب معهم في أي زمان وفي أي مكان.

يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وفي سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]. فما أن ولدت في هذه الدنيا، حتى احتوتك الأسرة والمجتمع وأصدقاء السوء، بعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، واحتواك الطبع بأغلاله وسلاسله، كما تتسلط العنكبوت على فريستها في شباكها، وأبعدك الطبع عن فطرتك التي فيها هذه العهود والمواثيق، فأصبحت غريبة عليك وغير مألوفة، كأني أتحدث عن الغرباء لا عن فطرتك أنت!!!

ألم تقل بلى شهدنا؟ ألم يعهد إليك أن لا تعبد الشيطان؟ ألم يعهد إليك أن تعبده وحده؟ ألم يقل لك إن الشيطان لكم عدو مبين؟ ألم يقل لك ما هو الصراط المستقيم؟ إن كل ذلك مكتوب في فطرتك، فاعرف نفسك يا أيها المسكين! **أتنتظر أن يقول لك غيرك ما هي الأسرار التي**

نقشت وحفرت في وجودك؟ إنها في وجودك أنت فاقرأها. ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، كما يقوله الله تعالى في سورة الإسراء. فانهض من سباتك، واستعد وعي الأزلية والسرمدية، الذي كتبت وحفرت فيه المواثيق والعهود الربانية.

أتنتظر من الفلسفات أن تقول لك شيئا من أسرارك؟ فإذا أصغيت إليها هلكت، لأنها توغلك في الظلمات. أم تنتظر من المحاضرات أن تنور قلبك؟ ألا إن نور العلم يقذفه الله في قلب من يشاء ـ كما يقول المصطفى ﷺ! ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]ـ كما جاء في سورة النور. فانشد النور يا عزيزي لا المعلومات والمحفوظات والمنقولات والمعقولات. فكما يقول المثل: (ثكلتك أمك أي جرد ترقع). فإنك تطلب ما لا نفع فيه، وتنشد الترهات لقتل أوقات الفراغ. أليس الأحسن والأجدى لك أن تنشد النور، وتطلبه من الله نور السماوات والأرض. تعرض للتربية المباركة، وأسقط الإضافات عن فطرتك، وانزع عنك جلدة الطبع السميكة، لعلك تجد إلى وسائط فيض ربك ورحمته سبيلا!!!

أما تسمع السيد حسين العالم قدس سره ينادي بأعلى صوته؟: «أيها الناس إن اليقين هو الذي يصل بالإنسان إلى مقام الشهود والإيمان الكامل، وإن كان ذلك الإنسان عاصيا لله في بداية أمره، ولكن إذا لازمه اليقين، صعد إلى أوج سعادته. فانظر إلى أحوال بشر بن الحارث المشهور ببشر الحافي، كان من أهل المعصية في بداية أمره، ولكنه كان متيقنا بحقانية الإمام، وكان معتقدا تمام الإعتقاد بالأصول، فلذلك أثر عليه كلام الإمام أثرا بليغا، حيث غير مسيرة حياته إلى طريق لا رجعة له منه». ويقول في مكان آخر: «فلقد وصل بشر إلى مرتبة الإيمان الكشفي، ووصل إلى مقام من القرب والزلفى، بحيث شمل المغناطيس الإلهي روحه وبدنه وجميع جوارحه، المغناطيس الذي كان يجذب العاصين جذبا إلى الله تعالى».

تعرض للتربية المباركة والنفحات الربانية، وأسقط عنك ما كسبته طوال حياتك، من الإضافات على فطرتك، من المعلومات الدنيوية (وأنا أتسامى عن أن أسميها علوما)، التي ربت فيك العجب، وغذت فيك الغرور، وسلبت منك التواضع، حتى ظننت أنك أعلم الناس، في حين أنك في أسفل السافلين من جهالتك، حتى أصبحت كمثل ابنة الجبل مهما يقل تقل، تكرر المحفوظات والمنقولات والمعلومات التي تصدر من هذا أو ذاك من الأدعياء! أو ما قال لك الله ﷻ في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ألا إن نور العلم هو فيك، فاكتشفه يا فتى في فطرتك، واسع إلى التزكية وإلى جهاد النفس، الذي هو الجهاد الأكبر. فإن لم تفعل كان سمعك وبصرك وفؤادك كل أولئك كان عنه مسؤولاً. وإن لم تفعل فاستعد لنداء التوقيف الذي يدوي يوم القيامة: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. واستمع إلى ما يقوله السيد حسين العالم قدس سره، شارحا أسباب تسميته بالجهاد الأكبر: ـ

«فقتل الكفار بالسيوف وتضحية النفس في الحروب جهاد أصغر، ومحاربة النفس ومقارعة الشيطان جهاد أكبر. والسبب في ذلك أن في جهاد النفس عدوك في داخلك، ولهذا العدو مكائد كثيرة، وهذه المكائد خفية ودقيقة جدا تتناسب مع مشرب كل واحد منكم. إضافة إلى ذلك، إن القوى والجوارح التي يتمتع بها العدو في داخل النفس الإنسانية، هي نفس القوى والجوارح التي يجب على العقل استعمالها في دفع ذلك العدو اللدود. وعلاوة على ذلك، إن في الجهاد الخارجي قتل العدو وهلاكه مفيد وليس مضرا، في حين أن في الجهاد الداخلي هلاك العدو غير جائز، لأن العدو هنا عبارة عن النفس، وإذا هلكت النفس هلك الإنسان. ولكن يجب جهاد النفس بأسلوب يجعلها مطيعة للأحكام الإلهية. فلذلك لم يقل الرسول الأكرم ﷺ بأنه قتل شيطانه، بل قال: «أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه».

أنوار اليقين

إن مكتب السير والسلوك ليس مدرسة نظامية، حيث تبدأ بدراسة السير والسلوك حين الدخول إليها. فهذه المدرسة لا يدخلها إلا من وجد في نفسه ميلا عظيما يجذبه إلى الله، على الرغم من ارتياحه الظاهري في الحياة، وقفصه الذهبي في الدنيا، وتمكنه من تأسيس حياة طيبة لنفسه، من الدراسة المتقدمة، والعمل العالي المدر للدخل الطيب، ومنزل يسكنه، وسيارة تسهل عليه الحركة، وزوجة وأولاد وما إلى ذلك.

بعبارة أخرى إن السير والسلوك عملية يسرها الله للكثيرين قبل أن يصلوا إلى المعلم الرباني. فعندما تصل إلى الأستاذ تكون قد قطعت شوطا في السير إلى الله، وكنت قد تجاوزت الكثير من مراحل القبض والبسط والشك واليقين. فاحتياجنا إلى المعلم يكون لتكميل المشوار، بحيث يعطينا المعلم أو الشيخ جهة واضحة من معالم الطريق في سيرنا إلى الله، وزخما لاندفاعنا نحو الله، بحيث نتجه إلى الله في قفزات وخطوات كبيرة، تسهل علينا الوصول إلى الله أسرع بكثير، وأسهل بكثير، مما لو اندفعنا وحدنا في هذا الطريق.

إن ما يحدث في باطن السالك في بداية الطريق، هو ما أسميه بأنوار اليقين، تشرق في قلب العبد، فيشتاق إلى طريقة السير والسلوك، والتحرر من قفصه الذهبي، ويجذبه حب الله إلى تغيير نمطه في التفكير، بحيث تؤثر كثيرا على نمط الحياة التي يعيشها. «أنت الذي أشرقت

الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك» (من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام). كيف يحدث ذلك؟ وما هي التطورات التي تطرأ في قلب العبد؟ أحاول أن أعطيك مثالا من كتابي (الف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حي)[1]، وكيف أشرقت أنوار اليقين في قلب يقظان بن حي: -

«وأحيانا كان يسمع من أعماقه همسات لطيفة تدعوه إلى الحرية وإلى الخروج من قفصه الذهبي، ولكنه لا يعيرها أذنا صاغية. وأحيانا يرى بصيصا من النور ينفذ إليه من كوة القلعة، ولكنه يدير ظهره، ويعزف عن النظر إليه. ورويدا رويدا تحولت الهمسات إلى نداء وهاتف، يدعوه إلى العروج إلى السماء، والإنقلاع عن الأرض، كأنه نداء الوجود يدعو ابنه الضال المسكين إلى الإتجاه إليه، والتوجه إلى معارجه، وإلى الرجوع إلى أصله، والتوبة والإنابة إلى خالقه وفاطره، والإشتياق إلى أنواره، والتوق إلى نجواه، والعروج إلى سماواته، والإلتحاق بموكب النور، والإتصال بمولاه. وشيئا فشيئا بدأ يقظان يزيح عن عينيه أغشية العمى، ويستيقظ من سباته العميق، ويستعيد وعي الأزلية والسرمدية، ويتذكر الميثاق الذي أعطاه في عالم الذرة عندما سئل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ - فأجاب: -... بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وتذكر عبوديته لرب العالمين، وتعجب كيف انجرف وراء السراب، وحيلة المضلين، هاربا من جنة النعيم إلى جهنم الأوهام، التي تستعر بنار الجهالة، ومن رب شفيق رقيق، إلى وسوسة الشيطان، ومصائد إبليس.

فاعترته حالة غير مألوفة: يهرب من الناس، ويتوارى عن الأنظار، ويقضي ساعات طويلة في خلواته وصلواته، يبكي بكاء الحزين، ويئن أنين الكليم، يذرف دموعا على أيام جهالته وطيشه وغفلته وغروره وتكبره

---

(١) صفحات ١٨ إلى ٢٥ من كتاب (الف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حي) للمؤلف.

وعجرفته، لا يتنعم بالحياة الطبيعية، ولا تبهجه عادات القوم، وأغلال الرسوم والتقاليد، ولا يهب مع الجماعة لإشعال نار شهواته. وكان يتكلم كلاما غير مألوف لا يفهمه أصحاب الغفلة، وكانوا يسخرون منه، لأنهم كانوا يجهلون كلامه. ويعتقد بعضهم أنه مسحور ويقولون: طرأت عليه أحوال عجيبة، ونظراته زائغة، وأقواله مبهمة، ينزوي عن الناس، ويحب الخلوات، يبقى صامتا مفكرا لفترات طويلة، لا يعير اهتماما لما حوله، كأنه في عالم بعيد.

ويعتقد البعض الآخر أنه قد مسه الجنون، فهو يتكلم عن نداء يسمعه، بل أحيانا عن مشاهد يراها، مما لا يراها الآخرون، ويتمتم بكلمات غامضة، ويسهر الليالي في خلواته، ويعزف عن ملذاتهم وشهواتهم، وحتى عن الرغبات والمطامع التي هي حطب الدنيا ومصدر حركتها. ولطالما غذى حياته البهيمية بحطب آماله اليابسة، ولطالما تبع تمنياته الزائفة، وعاش معهم في سجن الطبع وإسارته، يتحرك فيه في حلقات مفرغة، يكدح ويسعى كحمار الطاحون، لا ينفد من جلدة الطبع المخيف، إلى عالم آخر متحرر من الجهل والظنون، ومن رعاية وتربية الماضي المجهول، **إلى عالم تشرق عليه الأنوار، وتسود فيه المعرفة واليقين**. ويتعجب أصحاب الغفلة ويظنون أنه مريض أو مسحور، أو أنه قد خولط في عقله ـ كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة همام في نهج البلاغة:

«ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون».

ويقال: إنه حاول مرارا الفرار من معبد الشيطان ـ حيث الشهوات والرغبات ـ ولكن القلعة السوداء تحرسها غلب الرجال، بيدهم مقامع من حديد، فمنعه الحراس من الفرار. وفي الأيام التالية اجتمع حوله

مدعو النزاهة والإستقامة، وحاولوا إبداء النصيحة له بترك الأوهام، وبألا يفسد على نفسه وعلى الآخرين راحة البال التي اعتادوها، تحت خيمة الملذات والرغبات والشهوات.

إلا أن يقظان موجود ملكوتي، انهال عليه ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، وهو في طريقه إلى الأرض الملعونة، أثناء هبوطه من العوالم العلوية. فهذا الركام الأسود من القمامة والأوساخ، **في داخله درة هي أكثر شفافية وأرق من جاذبية المغناطيس، وألطف وأحنى من رحم الأم، تحمل في ثناياها روح المعرفة والعرفان حية نابضة وبيضاء ناصعة**، فمتى تزال الأتربة ويغسل الغبار الأسود من فوق هذه الدرة البيضاء؟

فهو لا يقتنع بكلام أهل الدنيا، ومنهم من يتظاهرون بالدين، وازدانوا بثياب الصلاح والسداد، ولكن ديدنهم حب المال والنساء والشهوات. وحتى العوالم العلوية التي تكلم عنها الأنبياء والأولياء قد تصلبت في أيديهم، وأضحت حديثا عن النساء والشهوات والخمر والمسكرات، وتبلورت حديثا دنيويا لا تشتم منه رائحة التوحيد والتجريد والملأ الأعلى والموجودات الملكوتية. فقد غطت المادة أذهانهم، فهل إلى النورانيات والروحانيات من سبيل؟

فهل تنهار القصور الرملية من فوق الأذهان، وتبدأ الصلاة بحضور القلب، ويطلع على الخلود والملأ الأعلى من نافذة القلب؟ فمتى يخشع القلب ويبدأ الجمع في نورانيته، ومتى يتبدد الظلام وتشرق الأنوار، ومتى يهدأ لغو اللسان، ويستقر القلب، وتشرق الأنوار في الجنان، وتسكن الأصوات، ويضمحل الهرج والمرج من القلب الذي هو منزل القدسيات، وتنزل السكينة على روحه الحساسة المعذبة التواقة إلى ربها؟

يهتدي يقظان بنجم الشعرى في الليلة الظلماء، ويتيقن أنه لا يمكن

الوصول إلى دار السكينة والسلام من دون المعرفة. فيسلك سبيل العرفان، ويبدأ بإسقاط أردية الموت عن روحه، كما تسقط الشجرة أوراقها في الخريف، وينفض غبار الظلم عن كل جوارحه، جارحة جارحة، ويكشف حجب الظلمات عن ذهنياته وأفكاره، ويبحث عن جذور الذنوب والمعاصي في أعماق أعماقه، ويصارع الشياطين في ظلمات نفسه، ويبدأ بمعرفة نفسه ودقائقها وحيلها ومصائدها ومكرها وخداعها، حتى لا يلوم غير نفسه عدالة وإنصافا، وحتى يجد بأم عينه كيف تلعب الفئران والجرذان في ظلمات نفسه.

وكيف يتأتى ذلك من دون التعرض لدروس المعرفة والحكمة، والإصغاء إلى النغمات اللطيفة من عالم العلويات، ومن دون التسليم للتعليمات السماوية، وتطبيقها في نفسه درسا درسا؟ إلا أنها أصعب لون من ألوان التلمذة، لا يحفظ فيها التلميذ دروسه ويحشي ذهنه، **بل يطبقها في نفسه، ويسقط كل الإضافات على فطرته العلوية، وذلك بتصفية ذهنياته من كل ما اكتسبه خلال عمره من محيطه وبيئته من علم ناقص،** ربما كان ضربا من ضروب الجهل المركب. وطبعا تسهل صعوبات هذه التلمذة عندما تكون باحثا عن ضالتك... وهل تصل إلى السعادة إلا عندما تجد ضالتك، وهل ضالة المؤمن غير الحكمة؟

وأحكم شيء يربطك بالعالم السفلي هو التعلقات القلبية بمتاع الدنيا. وبالمعرفة يتيقن الإنسان بأن المتاع لا يستحق كل هذه التعلقات القلبية، وكل هذه الرغبات والشهوات والغرائز .**فما أحسن أن ينقلع الإنسان عن المتاع، وأن يوجه كل قواه القلبية والغريزية لإنقاذ الدرة البيضاء من هيمنة القمامة والأوساخ التي تراكمت عليها**. ورب قائل يقول: سأضحى فقيرا ومحتاجا إن أنا تركت تعلقاتي بمتاع الدنيا، وهل الحاجة والفقر هي رسالة العرفان؟ الجواب هو طبعا «كلا»، فالزهد الذي يوصي به هو «أن لا تأسى على ما فاتك وأن لا تفرح بما أتاك»،

وهو السمو والتحرر عن تعلقاتك القلبية بما فاتك أو أتاك من المتاع الدنيوي. فالعرفان لا يلغي قوة العقل المادي أو عقل المعاش، فما أكثر الغنى والثروة بين العرفاء، فغنى النبي سليمان عليه السلام ليس بسبب علاقته بالمال، وفقر النبي عيسى عليه السلام ليس بسبب قصر عقله المادي. فكلاهما عارف زاهد في متاع الدنيا، لسموهما وتحررهما من العالم السفلي، وحب المال والجاه والدولة الأرضية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[القصص: ٨٣]**.

لقد اهتدى يقظان إلى النور في آخر النفق...

المجلس الثامن عشر من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

لقد ذكرنا في المجالس السابقة بأن أكمل وأعلى مراتب الإيمان هو الإيمان القلبي الشهودي، والتي هي المرتبة الأخيرة من الإيمان. وأيضا ذكرنا بأن مقدمة الوصول إلى ذلك هو اليقين، وأنه بدون اليقين لا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان. وعندما وصلت[1] إلى اليقين ودخلت في الإيمان الشهودي الكشفي، فاعلم بأن هذا الإيمان له ثلاثة مراتب: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. أما مرتبة علم اليقين فهي أولى مراتب اليقين، وهي عبارة عن اعتقاد ثابت جازم بالأمور الغيبية الواقعة، وأن ذلك يتأتى بترتيب المقدمات والإستدلالات حتى تصل إلى المؤثر عن طريق الأثر، كمثل من رأى دخانا واستيقن من ذلك بوجود النار. فمن رأى دخانا عظيما، وحصل له اليقين بوجود النار في ذلك الموضع، كمثل من وصل إلى مرتبة اليقين، فكلما حاولوا بأن يغيروا رأيه بأن لا وجود للنار لم يكن ليقبل ذلك. فافتح عينيك يا عزيزي وانظر كيف يرتقي الإيمان ويصل إلى هذا الحد. فالذين استيقنوا بعلم

---

(١) استعماله الفعل الماضي يدل على أنه لا يتكلم عن العرفان الإسلامي النظري، وإنما عن العرفان الإسلامي العملي، أي ممارسة الكشف القلبي الشهودي فعلا. وعندما وصلت إلى ذلك تكون مؤهلا لكي تعرف بأن هذا المقام الرفيع له ثلاثة مراتب إلى آخره...

اليقين بوجود الأحد السرمد القديم، وثبت عندهم ذلك، لا يتزعزعون عن إيمانهم قيد أنملة ولو سلطت عليهم آلاف السيوف. كيف يمكن للظلمة أن تغشاهم في حين أن قلوبهم منورة بالنور الالهي؟ لقد مشينا على الأرض ونظرنا إلى الأرض، ونظرنا إلى البحار، ونظرنا إلى نجوم السماء، ولكن مع الأسف الشديد ـ إن لم يغضبنا ذلك ـ فنحن كالأنعام[١] لم نمعن النظر أصلا، ولم نتأمل ولم نتفكر بأننا نرى الآيات الالهية وعجائب الملك اللاهوتي وغرائبها! ثم تعلو أصوات أنانيتنا الوقحة إلى السماء قائلين: لا نفترض وجود غيرنا في هذا العالم!

طوبى للذين مشوا على الأرض هونا، وأي مشية مشوا! نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السماء وإلى المخلوقات الأخرى فتعلموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكروا في الآثار الالهية، فأزيحت حجب الظلمة دفعة واحدة عن قلوبهم، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصمد، وأي يقين ذلك الذي لا يتزعزع بفعل تيارات الرياح المخالفة!!! في كل يوم نرى الأشجار وأوراقها ونأكل من ثمارها ونتنعم بها، وإذا سألنا أحد ماذا فهمتم حتى الآن من كل ذلك نطأطئ برؤوسنا قائلين: لم نفهم منها غير الأكل. ولكن العارف إذا رأى ورق الشجر انقلبت حالاته قائلا: ما أروع الورق الأخضر، فكل واحدة منها كتاب أقرأ فيه كل يوم برهانا على التوحيد الإلهي، بل إن كل شيء في الوجود برهان على وجوده!

---

(١) وهذه العبارات الصريحة إن دلت على شيء فهي تدل على أن السيد حسين العالم قدس سره لم يكتب كتابه هذا لغرض النشر، بل كانت الكتابة هي الملجأ الذي يلجأ إليه للإفصاح عن الحقائق الغيبية التي لم يكن ليتفهمها أو ليتحملها المجتمع الذي كان يعيش حوله، دقيقا كما كان الحال مع الإمام علي ﷺ حينما كان يخرج من بيته في ظلام الليل إلى بئر خارج البلد، فيفصح في البئر بما في قلبه العظيم من حقائق كونية غيبية التي لم يكن عصره ليتحملها. فكتاب المجالس إنما هو صرخة ضمير السيد حسين العالم ووجدانه في عالم الظلمات الذي حوله.

واعجباه كيف يعصى الإله وكيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فانظر كيف تباحث الإمام الصادق عليه السلام مع الزنديق الهندي رغم أنه كان متكلما بارعا، ولكن الإمام عليه السلام، بحر العلم الإلهي والإمام الناطق بالحق، قد أثبت له التوحيد الإلهي من خلال فاكهة، بحيث بقي الزنديق حيرانا لا يكاد ينطق ببنت شفة.

السيد نعمة الله الكهناني وقصته مع السلطان شاهرخ

والذين وصلوا إلى هذه المرتبة من الايمان، ألا وهي مرتبة علم اليقين، تكون قلوبهم منورة بالنور الإلهي، بحيث يكونون مطلعين على الأمور الغيبية. فرغم جلوسهم في زوايا بيوتهم، إلا أنهم أهل السير في العالم، فالجاهلون يظنون بأنهم لا يعلمون شيئا عن العالم. فلقد ذكر القاضي نعمة الله التستري في مجالسه، بأن سلطان ممالك الطريقة، وسياح مسالك الحقيقة، السيد نعمة الله الكهناني، كان ذا مشرب عال في العرفان. وكانت تصله الهدايا دائما من الحكام وأهل الدنيا، وكان السيد يأكل منها ويوصلها إلى المستحقين. ففي يوم من الأيام سأله السلطان شاهرخ[١]: لقد سمعت بأنك تأكل الشبهات فما هي الحكمة من ذلك؟ فكتب إليه السيد: «لو تلطخ كل العالم بالدماء لما أكل رجال الله إلا الحلال».

فلم يرتح السلطان شاهرخ ميرزا إلى هذا الكلام، وبعد أيام أراد أن يمتحن السيد، فأمر وزيره بأن يستولي غصبا على خروف من امرأة طاعنة في السن، ويأتي بذلك ويطبخ منه طعاما. فعمل الوزير بأوامر الملك، وخرج من المدينة ورأى امرأة طاعنة في السن تحمل على

---

(١) لقد كان السلطان شاهرخ أول سلطان مغولي في ايران يعلن إسلامه.

ظهرها خروفا سمينا، فضربها بالسياط واستولى على الخروف، وأتى به إلى المطبخ، وأعد منه طعاما. فاستضاف السلطان شاهرخ السيد نعمة الله الكهناني، وأكلوا جميعا من ذلك الطعام. وفي أثناء الأكل سأل السلطان شاهرخ السيد: لقد كنت تقول بأنك لا تأكل إلا الحلال، في حين أنني استوليت ظلما على هذا الخروف من امرأة طاعنة في السن. فقال السيد يا أيها السلطان الأجدر بك التحقيق في الموضوع، فلعل لله في هذا الأمر مصلحة.

فأمر السلطان شاهرخ بأن يحضروا تلك المرأة وسألها: «إلى أين كنت تحملين هذا الخروف، ومن أين أتيت به، ومن أين حصلت عليه؟». فقالت المرأة: «أنا أرملة وعندي مجموعة من الغنم والخروف التي ورثتها من زوجي المتوفى، وعندي ولد كان قد خرج هذا الأسبوع ببعض أغنامي ولم يعد، وسمعت عنه أخبارا سيئة. وفي هذا الأثناء سمعت بأن السيد نعمة الله الكهناني قد وصل إلى الهرات من كرمان، فنذرت له نذرا أن أحمل إليه هذا الخروف، إن رجع ولدي سالما. وبالأمس رجع إلي ولدي سالما، وكنت من شدة الفرح أن أخذت الخروف على ظهري، وقصدت المدينة كي أوصله إلى السيد نعمة الله الكهناني، ولكن وزيرك أخذ مني الخروف ظلما وعدوانا، وتضرعت إليه من دون جدوى كي لا يأخذه مني». فعرف السلطان شاهرخ بأن الحق سبحانه وتعالى يحفظ باطن الأولياء من الحرام والشبهة، فاعتذر من السيد ولم يعد إلى امتحانه مرة أخرى.

أسرار الكروبيين والروح الأعظم

نعم ببركة اليقين يزيد ميل الانسان وشوقه إلى المبدأ الحقيقي، وتبعا لذلك يتغلب التجرد على الانسان حتى يدخل في سلك المجردين ويصبح من أولياء الله. ولا شك بأن المجرد ليس زمانيا مكانيا بل هو محيط بهما، وهو مطلع على كل شيء بمقدار سعة وجوده. وكيف يكون صاحب هذه المرتبة لم يصل إلى مقام الكمال، ولم يهيمن التجرد على وجوده، في حين أنه حصل على انشراح الصدر بالنور الإلهي ونور اليقين، وأن الله سبحانه وتعالى ذكره في كتابه المجيد قائلا: «فمن شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه». يا أعزائي لا تظنوا أبدا بأن المخلوقات الإلهية منحصرون في المحسوسات، وأن وصول الإنسان إلى الكمال منحصر بالأمور الحسية. كلا كلا! ففوق هذا العالم توجد عوالم أخرى، وعلاوة على هذه المخلوقات توجد مخلوقات أخرى، بحيث إن كمال الإنسان يتيسر بتجاوز هذا الباب، وأن يفرغ الانسان من الأنس بهؤلاء الناس، ويضع قدمه في عوالم أخرى، وأن يستأنس بالمقربين في عرش القدس. وهذا الأمر لا يقع في نطاق الأمور الحسية، فعلاوة على عالم الملك توجد موجودات ملكوتية، بحيث إن كمال الإنسان لا يتأتى إلا بالإرتقاء من عالم المحسوسات، كما قال الحبيب ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا».

وإذا كنت تريد أن أذكر لك بعضا من درجات ومراتب واقسام

الموجودات الملكوتية... فلعله يحصل للنفوس جلاؤها، وينبعث في القلوب الميتة شوقها، فاعلم بأن الموجودات الملكوتية على قسمين: فبعضها لا تتعلق أصلا بعالم الأجسام لا بالحلول ولا بالعلائق التدبيرية والإستكمالية، والبعض الآخر تتعلق بالأجسام. وأما موجودات عالم الملكوت التي لا تتعلق أصلا بالأجسام فيسمونها كروبيين. والكروبيون على قسمين: -

فالقسم الأول هم الملائكة المسبحون المستغرقون في بحار الأحدية، المتحيرون في عظمة الربوبية. ورغم أنهم ذوات منورة تنوروا بالنور الإلهي، إلا أنهم في محو الجمال الأزلي الأبدي، إلى حد أنهم لا يلتفتون إلى أنفسهم، فكيف يلتفتون إلى غيرهم؟ والأحاديث النبوية الشريفة تنبؤنا بحالاتهم، إذ قال الرسول الأكرم ﷺ: «إن لله أرضا بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما هي مثل أيام الدنيا ثلاثين مرة مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله خلق آدم وإبليس».

والقسم الثاني من الكروبيين هم الذين خلقهم رب العالمين، وجعلهم وسائط فيض وجوده ورحمته، وجعلهم حجب جلاله، وهم مبادئ وغايات سلسلة الوجود، بهم فتح الله وبهم يختم. ومعظمهم الروح الأعظم الذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]. ويكفي في عظمة شأنه أن الله تعالى ذكره عالما منفصلا في مقابل جميع الملائكة. والروح الأعظم باعتبار هو القلم الأعلى في حديث: «أول ما خلق الله القلم»، وباعتبار آخر هو العقل الأول في حديث: «أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال فبعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك فيك آخذ وبك أثيب وبك أعاقب». فالعقل الأول والقلم الأعلى والروح الأعظم في الحقيقة شيء واحد بأسامي مختلفة. وقد ورد في حديث لأمير المؤمنين علي عليه السلام بأن الروح ملك من الملائكة له ألف وجه، ولكل وجه سبعون

ألف لسان، ولكل لسان سبعون لغة، يسبح لله سبحانه وتعالى بجميع هذه اللغات، ومن كل تسبيح من تسبيحاته يخلق الله عالما ملكيا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. وهذا الروح الأعظم يتكون من طبقات، أولها طبقة الكروبيين وآخرها روح القدس الذي يسمونه جبرائيل. وفي طبقة الكروبيين كل عال سبب، وكل دان مسبب، ولكل منها مقام معلوم.

وأما القسم الثاني من الموجودات الملكوتية، فهي موجودات تتعلق بالأجسام، وهي عبارة عن أرواح متعلقة بعالم الأجسام ويسمونها الروحانيات. وهي على قسمين: القسم الأول هي الأرواح المتعلقة بالأجسام السماوية، وهي التي تتصرف في الأجرام السماوية بتصرف التدبير والتحريك، وتسمى الملكوت الأعلى. والقسم الثاني هي الأرواح المتعلقة بالأجسام العنصرية، وتسمى الملكوت الأسفل، وهي أنواع وأجناس وأفراد. والغرض من هذا التطويل هو البيان بأنه إضافة إلى عالم الحس هناك عوالم أخرى، وكل جسم علوي وسفلي يتمتع بالجوهر الملكوتي، وكل ذلك في يد قدرة قادر مطلق ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]. وهذه هي السنة الإلهية أن تكون كل مرتبة فوقها مرتبة أخرى، إلى أن تصل إلى مرتبة لا فوق لها ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

قصة بشر الحافي مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام

فالشيء الذي يخلص الانسان من قيد البدن ويجعله مجردا هو اليقين. ففي حال غياب اليقين لا تجد للإنسان همة، ولا يكون في صدد الترقي، ولا يكون له حافز للخروج من حجاب البدن. فالذي وصل إلى مرتبة اليقين تغيرت عنده تصوراته عن العالم، وصدق بعوالم أخرى، وتمنى أن يتخلص من قيود التعلقات... وبغتة يفتح عليه[1]، وتشمله الرحمة الالهية، وعندها يقول بوجد: «لقد آن الأوان أن أكون عريانا، وأن أزيح عني الحجاب الغليظ، واللباس الكثيف يعني البدن، وأن أطير إلى أعلى عليين».

أيها الناس إن اليقين هو الذي يصل بالانسان إلى مقام الشهود والإيمان الكامل، وإن كان ذلك الانسان عاصيا لله في بداية أمره، ولكن إذا لازمه اليقين، صعد إلى أوج سعادته. فانظر إلى أحوال بشر بن الحارث المشهور ببشر الحافي، كان من أهل المعصية في بداية أمره، ولكنه كان متيقنا بحقانية الإمام، وكان معتقدا تمام الاعتقاد بالأصول، فلذلك أثر عليه كلام الإمام أثرا بليغا، حيث غير مسيرة حياته إلى طريق لا رجعة له منه. فلقد كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام يمر ذات يوم على

(١) وهذا النوع من الفتح يسمونه «فتوحات العارفين» كما في الدعاء: «رب افتح علي فتوحات العارفين».

منزل بشر، وسمع هناك صوت طبل وغناء، وكانت تقف على باب منزله جارية، فسألها الإمام عليه السلام: «هل صاحبك حر أو عبد؟» فأجابت الجارية: «بل هو حر». فقال الإمام عليه السلام: «صدقت لو كان عبدا لمارس العبودية والخوف من ربه». فدخلت الجارية إلى المنزل وأخبرت بشرا بما جرى، فانتبه بشر إلى نفسه (وكأنه كان في سبات عميق)، فخرج من منزله حافي القدمين، وجرى مسرعا وراء الإمام عليه السلام حتى وصل إليه، ورمى بنفسه على قدمي الإمام عليه السلام، وأعلن التوبة على يده الكريمة. وكان لا يرى بعد ذلك اليوم إلا حافي القدمين حتى وصول أجله، ولذلك سمي ببشر الحافي. فلقد وصل بشر إلى مرتبة الإيمان الكشفي، ووصل إلى مقام من القرب والزلفى، بحيث شمل المغناطيس الإلهي روحه وبدنه وجميع جوارحه، المغناطيس الذي كان يجذب العاصين جذبا إلى الله تعالى. فيا فداء روحي لهؤلاء العظماء عباد الله الصالحين!!![1]

نقل عن أبي علي الرودباري أنه قال: «كان في جوارنا في بغداد عشرة شبان وكانوا يرتكبون المعاصي مجتمعين. ففي يوم من الأيام أرسلوا واحدا منهم إلى دكة الخمار فغاب عنهم طويلا، فغضبوا منه كثيرا. وفجأة رجع إلى البيت وفي يديه شمام وهو يشمه ويقبله. فصرخ عليه أصدقاؤه قائلين لقد تركتنا ننتظرك طويلا، وأخيرا ترجع وفي يدك شمام لتضحك علينا. فقال لهم لقد تأخرت عليكم ولكني أتيتكم بفائدة عظمى. لقد وجدت بشر الحافي على دكان وهو يضع يده على شمام، فصبرت حتى أقنعت صاحب الدكان، ودفعت له عشرة دراهم واشتريت منه الشمام. ولما سمع أصدقاؤه هذا الكلام قال أحدهم لقد كان بشر في يوم من الأيام مستهترا مثلنا، وقال الآخر لقد وصل بشر إلى هذا المقام

---

(١) فهذه العبارة لا تدل على تقديره للعرفاء فحسب، بل على تقديسه لهم، بل إن هذه العبارة تدل دلالة واضحة على تناغمه الكامل معهم، وأنه هو نفسه، أي السيد حسين العالم قدس سره، من العرفاء الشامخين.

المنيع بسبب التقوى والعمل الصالح. ثم أعلن هدايته وقال: «أشهد الله أولا ثم أشهدكم بأني تائب قربة إلى الله من كل معصية ومن كل ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، وإن شاء الله سأدخل في السالكين في طريقة بشر الحافي». فقال كل واحد منهم: «أنا أيضا تائب» فتابوا جميعا ورجعوا إلى الله تعالى، ثم ذهبوا جميعا إلى طرطوس في إحدى الغزوات ونالوا هناك جميعا شرف الشهادة».

معجزة الرسول الأعظم ﷺ يوم الخندق في بيت جابر الأنصاري

أتظن أنه بالأكل والنوم يستطيع الانسان أن يصل إلى مرتبة الإيمان الكشفي، كلا كلا! هذا الأمر يحتاج إلى مجاهدة. فلقد قال الرسول الأكرم ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فقتل الكفار بالسيوف وتضحية النفس في الحروب جهاد أصغر، ومحاربة النفس ومقارعة الشيطان جهاد أكبر. والسبب في ذلك أن في جهاد النفس عدوك في داخلك، ولهذا العدو مكائد كثيرة، وهذه المكائد خفية ودقيقة جدا تتناسب مع مشرب كل واحد منكم. إضافة إلى ذلك، أن القوى والجوارح التي يتمتع بها العدو في داخل النفس الانسانية، هي نفس القوى والجوارح التي يجب على العقل استعمالها في دفع ذلك العدو اللدود. وعلاوة على ذلك، أن في الجهاد الخارجي قتل العدو وهلاكه مفيد وليس مضرا، في حين أن في الجهاد الداخلي هلاك العدو غير جائز، لأن العدو هنا عبارة عن النفس، وإذا هلكت النفس هلك الإنسان. ولكن يجب علينا جهاد النفس بأسلوب يجعلها مطيعة للأحكام الإلهية. فلذلك لم يقل الرسول الأكرم ﷺ بأنه قتل شيطانه، بل قال: «أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه».

طوبى لعظماء الدين الذين جاهدوا، ووجدوا أثر الجهاد في أنفسهم. فالرسول الأعظم ﷺ في إثر مجاهداته كان يعاني الجوع بحيث يلتصق بطنه المبارك بظهره، ولكن ببركة الرسول ﷺ وعلى إثر مجاهداته حينما كان يصله الطعام من رب العالمين بواسطة إنسانية أو غير إنسانية، بدل أن يشبعه وحده كان يشبع الآلاف غيره وينجيهم من الجوع. بلى السالك إلى الله شأنه عظيم بحيث ينجي الآخرين أيضا. فلقد روى علي بن إبراهيم وابن شهرآشوب وغيرهما عن جابر الأنصاري (رض) قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يوما من الأيام في حرب الخندق نائما، وقد ربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع. فأسرعت إلى بيتي وكان لي هناك غنم وصاع من الشعير، فأخبرت زوجتي بأني وجدت الرسول ﷺ على تلك الحالة، وعليها أن تطبخ لحم الغنم وتعد خبز الشعير، حتى أخبر الرسول ﷺ بذلك. فقالت زوجتي إذهب إليه ﷺ واستأذنه في ذلك، فإن أذن أعددت الطعام. فذهبت إليه ﷺ وقلت له يا رسول الله ﷺ ألتمس منك أن تتناول الطعام اليوم في بيتي. فقال ﷺ ماذا يوجد عندك في البيت؟ فقلت له يوجد عندي غنم واحد وصاع من الشعير. فقال ﷺ هل آتي وحدي أو مع من شئت؟ فاستحييت أن أقول له وحدك فقلت له مع من شئت، وظننت أنه سيصحب معه عليا عليه السلام. فرجعت وأخبرت زوجتي بذلك وقلت لها عليها أن تعد خبز الشعير وأنا سأطبخ اللحم. فذبحت الغنم وقطعت اللحم قطعا قطعا، ووضعتها في القدر وأضفت إليها الماء والملح وطبختها. ثم جئت إلى الرسول ﷺ وقلت يا رسول الله الطعام مهيأ. فقام ﷺ ووقف على جانب الخندق ونادى بأعلى صوته يا أيها المسلمون أجيبوا دعوة جابر إلى الطعام. فخرج جميع المهاجرين والأنصار من الخندق وأتوا إلى بيت جابر، وكان كلما مر على جمع من أهل المدينة قال لهم ﷺ أجيبوا دعوة جابر إلى الطعام، فاجتمع في بيت جابر سبعمائة أو ثمانمائة أو ألف نفر على

مختلف الروايات. فقال جابر فاضطربت كثيرا وأسرعت إلى بيتي وقلت لزوجتي إن جمعا كثيرا من الناس، يفوقون الحد والإحصاء، يصحبون الرسول ﷺ إلى بيتنا. فقالت زوجتي هل أخبرت الرسول ﷺ بما عندنا في البيت؟ فقلت لها نعم، فقالت لا عليك إن الرسول ﷺ أعرف منا. فكانت زوجتي والله أعلم مني. فأمر الرسول ﷺ الناس أن يجلسوا خارج البيت، ودخل هو وأمير المؤمنين ﷺ البيت. وفي رواية أخرى أدخل الجميع إلى البيت، وكان البيت لا يسع هذا الجمع الغفير، فكلما دخلت طائفة أشار الرسول ﷺ إلى الجدار، فيتراجع الجدار إلى الوراء، وكان البيت يتسع تدريجيا، حتى اتسع في النهاية للجميع. فحضر الرسول ﷺ إلى التنور وقذف بلعاب فمه المبارك في التنور، وفتح القدر ثم نظر فيه، وقال لزوجتي أن أخرجي الخبز من التنور وناولنيه واحدا واحدا. فكانت زوجتي تخرج الخبز من التنور وتناوله للرسول ﷺ، وكان ﷺ يناوله لأمير المؤمنين ﷺ الذي كان يضعه في وسط ملة الثريد. وعندما امتلأت ملة الثريد، قال يا جابر ناولني ذراع الغنم مع المرق، فناولته إياه فصبه على الثريد، فأكل عشرة من أصحابه حتى شبعوا. وفي المرة الثانية ملأ الملة من الثريد، وطلب ذراعا آخر فأتاه به جابر، وأكل عشرة آخرون من أصحابه. وفي المرة الثالثة ملأ الملة، وطلب ذراعا آخر وأتاه به جابر، وأكل عشرة من أصحابه. وفي المرة الرابعة حينما طلب ذراعا من جابر، قال جابر يا رسول الله إن الغنم لا يملك أكثر من ذراعين، وإلى الآن أتيتك بثلاثة. فقال ﷺ لو سكت لأطعمت الجميع من ذراع هذا الغنم. فعلى هذا النحو كان يطلب عشرة عشرة من أصحابه حتى شبعوا جميعا. ثم قال ﷺ يا جابر تعال حتى نأكل أنا وعلي وأنت، فأكلنا ثم خرجنا من البيت. وكان التنور والقدر على حالهما لم ينقص منهما شيء، وأكلنا أيضا بعد ذلك من هذا الطعام لعدة أيام.

لقد جاهدوا في سبيل الله فوهبهم الله ما يشاؤون. وكما قال جابر

إن الغنم لا يملك أكثر من ذراعين، ولكنها هبة الله يأتي بالذراع واحدا تلو الآخر من العدم إلى الوجود، ويوصلها إلى ضيوف الرحمن. فوالله إن هذه الأسرة[١] لا تعرف غير العبودية لله، ولا يفهم من سلوكها غير العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى.

(١) يعني محمد ﷺ وآله الأطهار ﵈.

رحلة في المجلس العشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن مراتب الإيمان الشهودي القلبي ثلاثة: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. ويقول قدس سره بأن مرتبة حق اليقين هي مرتبة شامخة لا يصل إليها أي أحد، لأنها المرتبة التي يكون فيها العاقل والمعقول وحدة معنوية وربطا حقيقا، بحيث إن العاقل يجد ذاته رشحة من سحاب فيض المعقول ومرتبطا به.

لقد سبق للسيد حسين العالم قدس سره أن شرح في الفصلين السابقين مواضيع التوبة وعلم اليقين وعين اليقين. وهو الآن يريد التطرق إلى موضوع مرتبة حق اليقين. ولكي يوفي الموضوع حقه من الشرح، لا مناص من المقدمات التي تشرح مواضيع النفس الأمارة والنفس اللوامة، ورياضة النفس التي تؤدي بالإنسان إلى النفس المطمئنة.

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن سعادة الإنسان وحياته الأبدية منوطة بنيل الكمالات، والقرب والزلفى إلى المبدأ المتعالي. وحين تصل إلى اليقين بهذا الأمر، تشتاق إلى سفر عالم القدس، والنيل بمقام القرب والزلفى. وبعد ذلك تكون طالبا للسفر إلى الله، وراغبا في الفناء في الله. وحينذاك تدخل لا محالة في المرتبة الثانية، وهي عبارة عن الرياضة. والرياضة هي منع النفس عن الحركات الشهوانية

والحيوانية، كما أن رياضة البهائم هي عبارة عن منعها عن إتيان الحركات التي لا يريدها الرائض، وإجبار البهائم على الحركات التي يرضاها الرائض، حتى يؤدي هذا المنع إلى أن يتعود الحيوان على إطاعة رائضه.

فما الذي يعنيه السيد؟ إنه يعني أن البهيمة في داخلك، ويجب أن تروضها كما يروض الرائض حيوانه الوحشي، حتى يصبح أليفا، ويتعود على إطاعة رائضه. وربما يستغرب الكثيرون من هذا الكلام، ويقولون بأنهم مهذبون وعلى مستوى عال من التعليم، ويشعرون بالإهانة، ويعترضون قائلين كيف أن فيهم بهيمة يجب أن تروض كما تروض الحيوانات الوحشية. ومن الإحتمال بمكان، أن يقذفوا بالكتاب بعيدا، محتقرين كاتبه، ومتهمينه بالجهل والرجعية، عازمين على أن لا يعاودوا قراءته مرة أخرى.

نعم إن الكثيرين منا على هذه الحالة من العجب والغرور والفرعنة والتجبر والتكبر، وراضون عن أنفسهم، وبعيدون جدا عن التواضع. أما رأيت الديدان كيف أنهم راضون في أوساخ المزابل؟ وكيف أن الدودة تقاوم وتعترض وتشعر بالإهانة إن أنت أردت رفعها عن المزبلة؟ وكيف أنها مرتاحة في المزبلة ارتياح النمل على العسل؟ فإذا أطللت على النمل من عل، تشفق عليها، لأنك تعلم بأنها سائرة إلى الهاوية، ولا محالة إنها ستموت في داخل العسل!!!

وما أشبه هؤلاء بالذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

إن الكثيرين من هؤلاء قد سخرت القوة الحيوانية البهيمية فيهم القوة العاقلة، لأغراضها الشهوانية، ولإرضاء كبرهم وغرورهم، وهم لا يشعرون. يقول السيد حسين العالم قدس سره: -

«وما أكثر ما تسخر القوة الحيوانية القوة العاقلة، التي هي سلطان مملكة الإنسان، لأغراضها الشهوانية والغضبية. فحينذاك تتحول نفس الإنسان إلى النفس الأمارة، التي تعمل بالقوى الحيوانية، مستعملة القوة العقلية لأغراضها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأنا أقول لهذا الإنسان المتعلم المهذب! انظر إلى ما يقوله السيد حسين العالم قدس سره في مسألة الرياضة، بأنك أولا يجب أن تصل إلى اليقين بأن الإنسان وحياته الأبدية منوطة بنيل الكمالات، والقرب والزلفى إلى المبدأ المتعالي. وثانيا أن تشتاق إلى سفر عالم القدس، والنيل بمقام القرب والزلفى. وثالثا أن تكون طالبا للسفر إلى الله، وراغبا في الفناء في الله. ثم بعد ذلك تبدأ برياضة النفس وبالجهاد الأكبر.

فلما لم تكن معتقدا بنيل الكمالات، ولا بالقرب والزلفى إلى الله، ولا تشتاق إلى السفر في أعلى عليين، ولا تكون راغبا في الفناء في الله، فكيف تفهم معنى رياضة النفس ومعنى الجهاد الأكبر؟ إنك تعتقد أن هذه الأشياء هي للأنبياء والأئمة ﷺ، وليس لك في الموضوع من شيء، إلا أن تسرد قصص الأنبياء والأئمة ﷺ، أو تستمع إلى قصص الأنبياء والأئمة ﷺ، ثم تكررها آلاف المرات، غير آبه بأن تتبع خطاهم، ولا معتقدا باتباع خطاهم، ولكنك تقول بأن هذه الأشياء هي للأنبياء وللأئمة ﷺ فقط وفقط دون غيرهم. وتقول بأن الصوفية فقط تعتقد باتباع الخطى وما أسخفهم! وكيف تفهم المعاني الكبرى، التي هي على مستوى الجامعة مثلا، لتلميذ في الإبتدائية، لا يريد التطور منها إلى ما هو أعلى منها، ولا هو معتقد بهذا التطور؟ وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟ يقول إمامنا علي ﷺ: «مغبون من تساوى يوماه».

هذا عن البهيمة، وأما عن الرياضة والترويض، فلا عجب أن الكثيرين يستهزئون بموضوع الرياضة، ويقولون بأن الصوفية تفعل ذلك، وأنها ليست من الإسلام في شيء!!! عجبا كيف أن الرياضة ليست من الإسلام في شيء، والرسول الأكرم ﷺ يقول: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فيقول بعض أصحابه وما هو الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ فقال: «هو جهاد النفس». ويقول الإمام علي عليه السلام: «إنما هي نفسي أروضها بالتقوى». من الطبيعي أن أصحاب النفس الأمارة لا علم لهم بالنفس البشرية، ناهيك عن جهادها وترويضها. فكيف تريهم السهى وهم يرونك القمر!!! أم ربما تريد يا صاح العروج إلى السموات السبع، من دون كد ولا رياضة ولا جهد، بل بطريقة عاجلة، كما يقول جرير: -

إني لأرجو منك شيئا عاجلا   والنفس مولعة بحب العاجل

ما هي النفس الأمارة والنفس اللوامة

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن القوة الحيوانية في الإنسان، إذا لم تكن في طاعة القوة العاقلة، فهي بمنزلة البهيمة التي لم تروض. وهذه القوة الحيوانية تظهر تارة على صورة الشهوة، وتارة أخرى على صورة الغضب، أي ما يسمى بالقوى الشهوانية والغضبية، والتي يمكن أن تهيج وتطغى بسبب التخيلات والتوهمات تارة، وبسبب الحواس الظاهرة تارة أخرى، كي تصل إلى مقصودها.

ولكن حينما يستيقظ ضمير المرء، ويتيقظ من سباته، ويتنبه إلى وضعه التعيس، يميل إلى التوبة، ويبدأ بجهاد النفس وترويضها، كما تروض البهيمة بيد رائضها، حتى تستقيم بهيمة النفس رويدا رويدا، وتصل بعد اللتيا والتي إلى مرتبة الإستقامة المطلقة، ألا وهي مرتبة النفس المطمئنة.

يقول السيد حسين العالم قدس سره أن بين هاتين المرتبتين تقع النفس اللوامة، حيث تسلك النفس مراتب كثيرة لا هي أمارة ولا هي مطمئنة، بمعنى أن القوى الحيوانية تصبح تابعة للقوة العاقلة، ولكنها تطغى عليها أحيانا، فتبدأ النفس بملامة ذاتها لخروج القوى الحيوانية على القوة العاقلة، فتسمى آنذاك النفس اللوامة. فنفس الإنسان تكون أمارة حين تدبر كليا عن الحق، وتكون مطمئنة حين تقبل كليا على الحق

تعالى. وبين هذا وذاك تكون لوامة، بمعنى أنها تدبر عن الحق تارة، وتقبل على الحق تارة أخرى.

فماذا يعنيه السيد حسين العالم قدس سره بالنفس الأمارة؟ إن النفس الأمارة هي النفس التي يطغى عليها الشيطان، بحيث لا يمكنك التمييز بين الشيطان وبين الشخص نفسه. بمعنى أن الشخص أصبح هو الشيطان ذاته، يتصرف بلا حياء ولا خجل كما تتصرف الشياطين. والمعروف أن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم كما يقول الرسول الأكرم ﷺ. ويمكن للبعض أن يراعي الحياء والخجل لظروف اجتماعية، حينما يصطدمون بالمجتمع وطريقة حياتهم، إلا أنهم في الخلاء هم الشياطين أنفسهم، لا رادع ولا مانع لهم من فعل الفواحش والسيئات.

أما النفس الأمارة الغارقة في الآثام والذنوب، المستغرقة في جلدة الطبع والعادة التي تعودت عليها، فإنها لا يمكن أن تقوم بهذه السهولة، وأن دون استقامتها عقبة كأداء، يجب اجتيازها برياضة النفس وترويضها، في إصرار وإلحاف وإرادة وعزيمة لا تنثني، وفي مثابرة واستدامة لا تعرف التعب ولا الكلل. فهي صعبة جدا، وتريد العودة إلى عادتها القديمة. فإن رأت منك الصفات التي شرحناها من الإصرار والعزيمة والإرادة والمثابرة خضعت، وإلا فلا. فعند النطاح يغلب الكبش الأجم!!! وأرجو من الله تعالى أن تكون نفسك ذلك الكبش الأجم في حذاء قوتك وصمودك. وعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان!!! وأرجو من الله ﷻ أن تكرم في هذا الإمتحان الصعب.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ولكن من الذي يجب أن يقوم بالمبادرة لترويض النفس، في إصرار وعزيمة لا تنثني، وإرادة ومثابرة لا تتوقف؟ إن السيد حسين العالم يستعمل عبارة «القوة العاقلة» لهذا الغرض. ولكن الكثيرين من أصحاب النفس الأمارة يدعون القوة العقلية، في حين أن القوة العقلية عندهم مسخرة من قبل القوة الحيوانية، تستعملها

لأغراضها، وهم لا يشعرون. فهناك يختلط الحابل بالنابل، وتبرز القوة الحيوانية بكل قوتها في لباس القوة العقلية. فمصداقية القوة العقلية التي يعنيها السيد حسين العالم هي في السير والسلوك فحسب لا غير. فعندما يبدأ الإنسان بالنفس اللوامة، وينصف نفسه قائلا: «وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء والفحشاء»، فحينئذ يبدأ عندها الإنصاف وعلامات التحرر من القوة الحيوانية، وهذا الأمر هو بداية بدايات السير والسلوك.

يقول السيد حسين العالم قدس سره: ـ

«وما أكثر ما تسخر القوة الحيوانية القوة العاقلة، التي هي سلطان مملكة الإنسان، لأغراضها الشهوانية والغضبية. فحينذاك تتحول نفس الإنسان إلى النفس الأمارة، التي تعمل بالقوى الحيوانية، مستعملة القوة العقلية لأغراضها».

ولوضع النقاط على الحروف، وتحاشي الفوضى الذي يختلط فيه الحابل والنابل، استعمل عبارة (الموجود الملكوتي) أو (الدرة البيضاء)[1] في داخلك، والتي انهال عليها ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، من الذنوب والآثام، في فترة الهبوط والإنحطاط في هذه الدنيا، فضاعت ردحا من الزمن تحت الجبال والآكام من الركام، ثم استيقظت بعد التوبة، واستعادت قوتها بعد الإضطهاد. وإليك مقتطف من فصل الموجود الملكوتي في كتابي[2]: ـ

«إلا أن يقظان موجود ملكوتي، انهال عليه ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، وهو في طريقه إلى الأرض الملعونة، أثناء هبوطه من

---

(١) إشارة إلى الفطرة الصافية في وجودك، والتي تراكم عليها الركام الأسود من القمامة والأوساخ من الذنوب والآثام، بعد هبوط الإنسان من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، في فترة الإنحطاط من حياة الإنسان على هذه الأرض.

(٢) كتاب (الف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حي) صفحة ٢١ للمؤلف.

العوالم العلوية. فهذا الركام الأسود من القمامة والأوساخ، **في داخله درة هي أكثر شفافية وأرق من جاذبية المغناطيس، وألطف وأحنى من رحم الأم، تحمل في ثناياها روح المعرفة والعرفان حية نابضة وبيضاء ناصعة،** فمتى تزال الأتربة، ويغسل الغبار الأسود، من فوق هذه الدرة البيضاء؟».

فالعبارتان «القوة العاقلة» و «الدرة البيضاء الناصعة» تعني نفس الشيء - عباراتنا شتى وحسنك واحد - فها هو السيد حسين العالم قدس سره يقول: -

«ولكن إذا مسكت القوة العاقلة بالمبادرة، ولعبت دور الرائض في ترويض النفس الحيوانية، وبدأت بمنعها عن التخيلات والتوهمات، وعن النظر الحرام وسماع السوء، وعن اللمس المحرم والمحرمات التي تؤدي إلى الشهوة والغضب، ومارست القوة والإجبار كي تطيع القوة الحيوانية القوة العاقلة، وتتصرف حسبما تريد منها القوة العاقلة، هنالك تبدأ القوى الحيوانية تدريجيا بالتمرن على طاعة العاقلة، وتسخر دائما في خدمتها، وتأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها. وهنالك يستتب النظام في مملكة النفس، وتتحول نفس الإنسان إلى نفس مطمئنة - ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]».

ما هي رياضة النفس

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن الرياضة هي منع النفس عن الحركات الشهوانية والحيوانية، كما أن رياضة البهائم هي عبارة عن منعها عن إتيان الحركات التي لا يريدها الرائض، وإجبار البهائم على الحركات التي يرضاها الرائض، حتى يؤدي هذا المنع إلى أن يتعود الحيوان على إطاعة رائضه.

ويقول السيد حسين العالم قدس سره: «وبعد حصول الإرادة، لا بد من كسب المواهب والإستعدادات، التي تتأتى بزوال الموانع الخارجية والداخلية، والتي لا يمكن زوالها إلا ببركة الرياضات. أما الموانع الخارجية فهي اشتغال النفس بغير الحق، فلا بد لطالب مرتبة حق اليقين أن يتنحى بقلبه عما سوى الحق، بمعنى أن يضع قدمه على كل ما هو سوى الله تعالى، وأن لا يرى غير الله في كل أفعاله وحركاته وسكناته ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. ويجب أن يكون في كل الأحوال مشغولا بذكر الله تعالى - ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. ولقد قال أحد العرفاء: «لقد مضى علي عشرون عاما، لم أتكلم فيها إلى غير الله». وأما الموانع الداخلية فهو عدم السماح للشهوة والغضب والقوى الحيوانية أن تتصرف كما تشاء. يجب تطويع النفس الأمارة كي تتحول إلى النفس المطمئنة، بمعنى أن تنقاد القوى الحيوانية إلى القوة العاقلة، وأن تساق التخيلات والتوهمات سوقا

من العالم السفلي إلى عالم القدس، وتبعا لذلك تساق القوى الحيوانية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين».

فما هي هذه الرياضات التي يعنيها السيد؟ هناك رياضات في فروع الدين لعامة المسلمين، هي فرائض يجب عليهم تأديتها كل يوم كالصلاة والزكاة، وشهرا واحدا في السنة كالصوم، ومرة في العمر كحج بيت الله الحرام. فالصلاة هي للتمرن على الاتصال بالله والمعراج إليه. والزكاة لتزكية النفس عن حب المال والدنيا. والصوم رياضة صعبة للتعود على الجوع والعطش. والحج للتوجه إلى الله والاجتماع بالمسلمين قاطبة من أصقاع الدنيا. وكل هذه الفرائض الأصل فيها هو التوجه إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول العرفاء قدس سرهم: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق». فالرياضة في العرفان ليس لها منهج خاص، أما الهدف النهائي فهو الوصول إلى الله سبحانه وتعالى. ويتغير المنهج حسب صعوبة النفس التي تحملها، وحسب المقام الذي خلقك الله عليه. أما في بداية الطريق فالمعروف أن النفس الأمارة تحمل أفكارا وخواطر وقوى مبعثرة، ولا بد من جمعها. فإذا نجحت في جمع قواك وأفكارك، تتحول إلى ورد واحد، وإلى نهر متدفق في جهة واحدة، تستطيع بواسطة تركيز القوى، وبهذه الطاقة الموحدة، أن تحدث أثرا كبيرا في تطورك، وفي كبح جماح البهيمة التي تقبع فيك.

وقد ينعش الله الفتى بعد عثرة وقد يجمع الله الشتيت من الشمل

أما ترى أن ضوء الشمس لا يحرق القرطاس، أما إذا جمعته بواسطة عدسة مقعرة، فإن هذا الضوء المجمع سيحرق القرطاس! كذلك أفكارك إن جمعتها تحدث أثرا كبيرا! أما إذا بقيت مبعثرة، فلا أثر لها. كما أنك إذا أردت أن تحرك شيئا إلى الأمام، وشددت ذلك الشيء بالحبال من كل الأطراف، فإن ذلك الشيء لن يتحرك. أما إذا شددته

بحبل في جهة واحدة، وسحبته في تلك الجهة، فإن ذلك الشيء سيتحرك إلى الأمام في تلك الجهة الواحدة.

العارف يركز على قلبه لأن القلب هي النافذة على الملأ الأعلى، وفي القلب نقطة نورانية هي معقد الأنوار، وهي أقوى خازن مغناطيسي في جسمك، إضافة إلى خازنات أخرى في بدنك. والمطلوب من السالك أن يركز على هذه النقطة النورانية في القلب، ولا يفتأ يفعل ذلك حتى تفتح عليه أبواب السماء، وينكشف الشهود، ويرى القلب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر[1] .

ولتسهيل هذا الأمر، عليك أن تركز على نقطة ترسمها على جدار لحوالى عشرة دقائق يوميا، وتتوقف عن التفكير لهذه المدة على الأقل كل يوم. وبعد المثابرة عليها ستجد العجب العجاب، ستجد الطاقة مجمعة بأم عينيك، وستجد الأنوار العجيبة. هذه الأفكار المتدفقة هي كالنهر المتدفق في قوته العظيمة، فإذا وقفت ضد تيارها، بل أوقفتها ولو لمدة عشرة دقائق، ستجد العجب العجاب!!!

طريق العرفان هو أن تملك كل شيء ومن جملتها أفكارك. فإذا ملكت أفكارك، أصبحت في جعبتك قوة عظمى تزيد من قوتك الروحية والمغناطيسية، التي بواسطتها تعطي زخما للمضي قدما إلى النفس المطمئنة، ومن ثم الوصول إلى الله تعالى.

هذه الرياضة في بداية الطريق مفيد ومجدي جدا جدا، ولأنواع أخرى من الرياضة في وسط الطريق وفي أواخره، استمع إلى السيد حسين العالم قدس سره: -

«ولأن الأغراض العقلية مختلفة، لذلك يكون كل مرتاض ينشد

---

(١) صفحة ٥٧ من كتاب (الف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حي) للمؤلف.

غرضا ما، ويحث الخطى إلى هدف ما. ولهذا السبب تكون الرياضات مختلفة، فبعضها رياضات عقلية، والبعض الآخر رياضات سمعية، والتي تسمى بالعبادات الشرعية.

والرياضة التي هي أعلى وأشمخ من كل الرياضات هي رياضة العارفين، لأنهم ينشدون المرتبة الشامخة والمقام المنيع، ألا هو وجه الله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ـ ويريدون أن يصلوا إلى مرتبة حق اليقين، بمعنى أنهم يجاهدون ويبذلون جهدا كبيرا، كي يتركوا بقلوبهم ما سوى الله، حتى يصلوا إلى الله تعالى ويتصلوا به».

رياضة صوم الحواس والسهر والسهاد

وهناك رياضات تسمى بصوم الحواس، بأن تصوم عن حواسك واحدة واحدة. فمثلا صوم العين هو أن تغض بصرك بكل إصرار عند رؤيتك للنساء بحيث لا تنظر إليهن. وليس غض البصر عن المحرمات فقط، بل أن تتفرغ لرؤية الأنوار الربانية فقط، وأن تنفتح عيون الباطن التي هي فيك. أو ما سمعت الله تعالى يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؟

أريد أن أخرجك من عالم الأنعام إلى قمة الإنسانية، إلى عوالم الملائكة، ولكن ديدنك هو الإستهزاء والسخرية. يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصافات: ١٢ ـ ١٤]. فما أعجب هذا الإنسان، يحب أن يبقى في مستنقعات أسفل سافلين، على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم (كما يقول الله تعالى في سورة التوبة)، في حين أن محله الفطري هو مقام «أحسن تقويم»، كما ذكره الله تعالى في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. أتحب أن تكون ممن قال الله ﷻ فيهم في أواخر سورة الكهف: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، أم تريد أن تكون من سقط المتاع في نظر العزيز الجبار!

وما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع

وهناك صوم السماع بأن تغلق الراديو أو التلفزيون فورا بكل إصرار إذا سمعت أغنية تثير الشهوة ـ وفي هذه الأيام الأغاني مقرونة بمناظر شهوانية تثير الغرائز الجنسية أكثر من كلمات الأغنية نفسها. أو أن تخرج من المكان الذي تسمع فيها غيبة تحمل أنواعا من الحقد والكراهية، وهل الغيبة إلا ضغائن كامنة في النفس، يفرغها المغتاب بلسانه حتى يسكن حريق الأحقاد والكراهية في نفسه! يقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. أو أن تحفظ سمعك عن سماع اللغو والكلام الهراء. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]. وليس المطلوب غض السمع عن المحرمات فحسب، بل في الوقت نفسه أن تتفرغ لسماع ذكر الله فقط وفقط. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «ما جلس قوم يذكرون الله تعالى ويقومون حتى يقال لهم قوموا قد غفر الله لكم ذنوبكم وبدل سيئاتكم حسنات».

وهناك صوم اللسان عن كل ما سوى الله، وذكر الله فقط. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «ذكر الله شفاء القلوب». ويقول ﷺ: «الذكر خير من الصدقة». ويقول ﷺ: «ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حسر عليها يوم القيامة». ويقول ﷺ: «إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكرا ونظري عبرة». ويقول ﷺ: «علامة حب الله تعالى حب ذكر الله، وعلامة بغض الله بغض ذكر الله ﷻ».

وهناك صوم اللسان عن اللغو والكلام الهراء، والتزام الصمت ما استطعت. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما». ويقول ﷺ: «طوبى لمن ملك لسانه وبكى على خطيئته». ويقول ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان». ويقول ﷺ: «من حفظ ما بين لحييه وما بين

رجليه دخل الجنة». ويقول ﷺ: «إن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفم والفرج». ويقول ﷺ: «إن الله تعالى ينهاكم عن قيل وقال». ويقول ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي ثلاث منجيات، تكف لسانك، وتبكي على خطيئتك، ويسعك بيتك».

الصمت وما أدراك ما الصمت! فما أعظم رياضة الصمت! يقول الرسول الأكرم والمعلم الأعظم ﷺ: «**لولا لغو في لسانك وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع**». فما الذي كان يراه محمد ﷺ؟ وما الذي كان يسمعه؟ إنه ميسر لك أيضا، فانظر ماذا تختار! أتختار اللغو في أكثر أوقاتك لإثبات أعلميتك، أم تختار الصمت حتى تفهم أنك لا تعلم شيئا، وأن تفهم أنه كلما كان الطبل أجوفا زاد ضوضاؤه؟

أما تمريج القلوب وما أدراك ما تمريج القلوب! فهذه العلة هي أصعب شيء يلقاه السالك في طريقه، فابدأ بمعالجتها برياضة التركيز على النقطة النورانية في قلبك، كما ذكرته آنفا في الفصل السابق، لعل الله يسهل عليك شيئا فشيئا!

وقد ذكرت شيئا عن صوم الحواس[1] شعرا في كتابي «السموات السبع»[2]، أورد مقتطفات منها: ـ

صاموا الحواس وجاهدوا طغيانها	بدأوا بصوم الأذن من ضوضاها
حفظوا سماعهم لحكمة أحمد	ولدرة الرحمن عمق خفاها

---

(١) وهذا الصوم هو ما يعنيه الله جل وعلا في الحديث القدسي: (يا أحمد الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين. فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر، فأول ما أبصره عيوب نفسه، حتى يشتغل عن عيوب غيره، وأبصره دقائق العلم، حتى لا يدخل عليه الشيطان).

(٢) صفحات ٤٨ إلى ٥٠ من كتاب (السموات السبع) للمؤلف.

صانوا حريم السمع ليل نهارهم سمعوا كلام الله من علياها
فاستوطنوا شغفا مجالس ذكره أصغوا لذكر الله حق نداها
عشقوا الشفاه الطاهرات لمرشد روى فؤادهم بشربة طه
عشقوا غناء العندليب بسرهم آذانهم طربت لحسن غناها
طربوا بسكرة كأسه وشرابه باتوا سكارى في سرى عنقاها
ألفوا رفاق العشق في حصارك أزواج طهر في جنان علاها
باتوا بصومة الحيارى سجدا ألفوا ديار الله في مأواها
وحشوا سماعهم بنور ولاية كانت لهم حصنا لمن رمضاها
ملأوا وجودهم بهمسة ربهم قد أعزبوا عن ذكر عم سواها
عزفوا عن الأغيار في خاناتهم عزفوا عن الذؤبان في دنياها
حفظوا لسانهم لذكر حبيبهم فكأن بين شفاههم مولاها
سكت اللسان عن الحديث بغيره قامت قيامتهم أزيل غطاها
نظروا إلى عرصات يوم مرعب حشر الخلائق خاب من دساها
ورجوا من الباري نجاتهم بها وخلاصهم وفلاح من زكاها

أما أصعب الرياضات فهي الوقوف والصمود أمام سلطان النوم، فبدون هذه الرياضة لا يستطيع السالك أن ينفذ من أقطار السموات والأرض إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت. يقول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. ولقد ذكرت شيئا عن رياضة النوم في كتابي (السموات السبع) صفحات ٥٧ إلى ٦٠، أذكر مقتطفات منها:

فأتاه أمر بعد تعميد وخر قة صفة والذكر في علياها
أن ودع النوم الليالي كلها قم في عبادة ربها بدجاها
غمض عيونك إن أردت بباطن فتح العيون ورؤية ولقاها
حتى تفتح في القلوب عيونها آذان قلبك إن أردت جلاها

فقه القلوب إذا أردت تفجرا — فاسجد له في الليل في ظلماها
سبح حبيبك طول ليل مظلم — واركع له في خشية وطواها
وتهجدوا بنوافل في ليلها — فعسى يشف شهودها فعساها
وتقوم في ليل بهمة أحمد — وبفقر سلمان وأهل صفاها
فإذا أردت شهود آيات الهدى — فاسهر ليال في طوى وقذاها
فعسى تنال رعاية وترفقا — من خالق الكونين من رحماها
ثابر على سهر وسهد عبادة — جاهد فتورك يا فتى وهواها
أو ما تحب بأن تلاقي وجهه — أو ما تحب وصاله بطواها
فانطق دعاء ما أمرت به ولا — تلج الطريق الوعر في وعثاها
جلسوا ليالي في انتظار قدومه — يحدوهم شوق لروع لقاها
باتوا طويلا في إطاعة أمره — لا يهجعون الليل في ذكراها
وجنوبهم متجافيات في الدجى — عن مضجع عن ناعمات وطاها
وبقت نداء إمامهم في أذنهم — موتوا ألا في موتكم محياها
دوت بصومعة الحيارى صوتكم — ضجت ملائكة بعرش سماها
دوت تهاليل لمن أفواهكم — فكأنما أرواحكم أفواها
ضجت عروش الرب من أصواتكم — خلت الوجود جميعه ضوضاها
نزلت ملائكة تبشر روحكم — من فوق عرش القدس من أعلاها
أن يا لطيفة ربها أوبي فآ — ن أوان عودتها إلى مولاها
واستنزلي نجوى الحبيب فإنه — يشتاق شوقا في الدجى لدعاها
لفت بكم أكفان خرقتكم فها — أنتم كمن في القبر تحت ثراها

ولذكر الله أكبر

وأهم شيء يجب أن يلتزم به السالك هو رياضة الذكر المستمر. إنها فعلا رياضة صعبة وعلى الأخص في بدايات الطريق. فبعد ما يمر بعض الوقت على الذكر والأوراد المستمرة، تبدأ النفس الصعبة بمقاومة عملية الذكر، ويحدث الكلل والملل من الذكر. لكنك إذا استمررت في الذكر بكل جدية، وفي كل إلحاف وإصرار، وإرادة وعزيمة، وعلى الخصوص المثابرة على ذلك، من دون كلل ولا ملل، فإن النفس تخضع وتستسلم أخيرا، بعد اللتيا والتي، وبعد ما تتأكد من أنها لا تستطيع المساومة معك، وأن لا فائدة ترجى من المقاومة. وكيف تستطيع النفس أن تقاوم من كان لسان حاله يقول: ـ

إما اللقاء ووصله في رأسي   إما فداء الرأس في سكري وأنسي

وبعد ما تطمئن النفس إلى قوتك وإرادتك وعزيمتك التي لا تنثني، تتحول بهيمة النفس إلى أليفة، كما تريدها أنت، ويسلم شيطانك على يديك كما يقول الرسول الأعظم ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه».

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «لكل شيء مفتاح ومفتاح السماوات قول (لا إله إلا الله)». وهذه الكلمة العظيمة هي أجدى ذكر للسالك في شروع عمله (في البداية يكون هذا الذكر رياضة صعبة جدا، أما في المراحل المتقدمة فيصبح ذكرا خفيا أو أخفى في أعماق نفسك).

وإذا كررت الكلمة المقدسة لبضعة أيام يحصل الكلل والملل، أو انسداد كامل، بحيث لا تستطيع الإستدامة والمثابرة عليها. ويجب أن تفهم المعاني الكبيرة عند تكرارك لهذا الذكر، فتضع خط البطلان على كل اهتماماتك، واحدا واحدا، حتى تصل إلى اهتمام واحد فقط لا غير، ألا وهو الإهتمام بالله، وحتى يكون همك الوحيد هو الله لا غير.

ألم يخلقك من دون ما تحمل هم خلقك؟ ألا يرزقك ويرزق العصافير والطير والنمل وغيرها، وحتى الدودة بطيئة الحركة في أعماق الطين، كل ذلك من غير احتياج إلى هم؟ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فمثلا إذا رأيت في نفسك اهتماما للمال اذكر هذا الورد حتى يتبخر هذا الإهتمام في الهواء. وإذا رأيت في نفسك اهتماما للجاه والمقام فاذكر هذا القول العظيم حتى يختفي هذا الإهتمام. كذلك ضع قدمك على كل اهتماماتك، واحدا واحدا، بقوة هذا الذكر. فكل اهتمام تحمله هو إلهك الذي يجب أن تنفيه بقول «لا إله إلا الله»، حتى لا يبقى لك اهتمام إلا بالله. بل إن كل أفكارك أو همومك أو خواطرك التي تحملها لغير الله فهي أصنام تعبدها من دون الله، ويجب تحطيمها بقول «لا إله إلا الله»، حتى لا يبقى لك فكر ولا هم ولا خاطرة إلا في الله وحده، ولله وحده، لا تشرك به شيئا أبدا.

يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. يجب تصفية كل عناصر الشرك الخفي، بقوة كلمة «لا إله إلا الله»، حتى تكون كما يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إلهي خر لي في قضائك وبارك لي في قدرك». فإن قلبت السماء على الأرض لا يكون إلا ما يشاء الله، وعليك فقط أن تلجأ إلى دعائه ومناجاته، وتطلب البركة وحدها من الله في أقدارك لا غير. فإن كنت

تعتقد غير ذلك، ويكون مسعاك في الدنيا على غير ذلك، فهذا هو الشرك الخفي بعينه. أما إذا كنت تعتقد ذلك، ويكون مسعاك في الدنيا على ذلك، تعمل كل جوارحك وأعضائك وأفكارك على أحسن حال، ويكون لك في ذلك خير الدنيا والآخرة، من دون عراقيل في مسعاك تخلقها همومك وغمومك، التي لا تجديك نفعا، بل على العكس تسبب لك أضرارا كبيرة. فتفرغ إلى الله تعالى بكل وجودك، كما تفرغ الإمام الحسين ﷺ بكل وجوده إليه بكلمته المقدسة: «إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري» ـ وكل هذا بقوة ذكر «لا إله إلا الله»، بحيث يجب المواصلة والمثابرة حتى تستمر مريرتك عليه.

فهناك تبرز نفسك الصعبة التي تقاوم هذا الذكر المقدس. هذه العقبة الكأداء! كيف التعامل بها؟ أما أنا فكنت أصيح بأعلى صوتي في سيارتي مثلا حيث لا أحد يراني بقول «لا إله إلا الله». لأني لو صحت في مكان آخر تتواجد فيه الناس، لظنوا أنني مجنون. ولكن والله لم تكن بي جنة، ولكني أردت بهذا الأسلوب أن أروض نفسي الصعبة حتى تكون لي مطواعا، ومطيعة في كل شيء، وحتى يسلم شيطاني على يدي كما يقول الرسول الأعظم ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه». وكنت في بداية سلوكي، أردد أورادا مثل «إلهي حبب إلي عبادتك» لرفع تكاسلي في العبادة، أو وردا للنبي داود ﷺ في المزامير «إلهي اجعل لي قلبا أبيضا»، ليقيني بأنه القادر على أن يسطع النور في قلبي، ويجعله مثل الثلج أبيضا ناصعا، أو أورادا أخرى حسب حاجتي في المراحل المختلفة من السير والسلوك. وأحسن الأوراد هي الأوراد المنتقاة من مناجاة مولانا ومقتدانا علي ﷺ، وعلى الأخص، أن تذكر بصدق في أعماق نفسك، هذا البيت من شعره: ـ

إلهي لئن لم ترعني كنت ضائعا وإن كنت ترعاني فلست أضيع

أما أنت فانظر في داخلك، ما هي العراقيل النفسية التي تقف سدا

أمام إصلاحك وتزكيتك، فاختر أورادا تزيلها من وجودك، وتبقيك خالصا مخلصا لله وحده. يقول السيد حسين العالم قدس سره: «ولأن الأغراض العقلية مختلفة، لذلك يكون كل مرتاض ينشد غرضا ما، ويحث الخطى إلى هدف ما. ولهذا السبب تكون الرياضات مختلفة، فبعضها رياضات عقلية، والبعض الآخر رياضات سمعية، والتي تسمى بالعبادات الشرعية. والرياضة التي هي أعلى وأشمخ من كل الرياضات هي رياضة العارفين، لأنهم ينشدون المرتبة الشامخة والمقام المنيع، ألا هو وجه الله تعالى، ويريدون أن يصلوا إلى مرتبة حق اليقين، بمعنى أنهم يجاهدون ويبذلون جهدا كبيرا، كي يتركوا بقلوبهم ما سوى الله، حتى يصلوا إلى الله تعالى ويتصلوا به». وإذا وصلوا واتصلوا، فكأن لسان حالهم يقول: (ما كان ليلي عن صباح ينجلي)! فلقد نالوها بعد طول المدة، وبعد صمود الأطواد، وبعد السهر والسهاد، وبعد المثابرة في الجهاد، وصبر تكل عنه الأوتاد.

المهم يجب أن تطوع نفسك الصعبة بقوة ذكر «لا إله إلا الله»، وأحيانا بالصياح بأعلى صوتك، حتى تلمس بهيمة نفسك الإرادة الحديدية التي تحملها، والمثابرة والعزيمة التي لا تنثني. إن هذا المشوار طويل، فلا تيأس في وسط الطريق. ولكن السلوان في أنك كلما تقدمت في الذكر، أصبح الذكر عليك أسهل، وتستسيغه وتحبه نفسك أكثر فأكثر بمرور الزمن. قال لي أحد العرفاء بنفسه أمضيت عشر سنوات في قول «لا إله»، أحطم كل الأصنام التي بداخلي حتى وصلت إلى قول «إلا الله»، حيث الملك لله وحده. وهذا ما يجب أن تعترف وتقر به نفسك طوعا لا كرها. أو ما سمعت يا صاح ماذا يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في سورة المؤمن: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ **[غافر: ١٦]**.

وليس الذكر أن تقرأ دعاء كميل مثلا في ليلة الجمعة فحسب،

غافلا عن مضمونه، غير صادق في نجواك إلى الله، وربما عند القراءة يحصل الخضوع والخشوع، ولكن ليست هناك جدية في نجواك، بمعنى أنك لا تهتم بالعمل بما تقوله في الدعاء. والأفضل من ذلك والأجدى أن تأخذ فقرة من الدعاء، وتكررها ليل نهار حتى يتحقق مضمون تلك الفقرة في نفسك. فمثلا تأخذ هذه الفقرة وتقول: «إلهي اجعل لساني بذكرك لهجا، وقلبي بحبك متيما»، وتكررها ليل نهار من دون كلل ولا ملل، قاصدا معناها بكل تأكيد، مثابرا عليها، مستمرا فيها، إلى أن يتحقق المقصود في ذاتك، وتصبح في نهاية المطاف لهجا بذكر الله على الدوام، وقلبك متيما بحب الله.

وبعد ما حصل لك ذلك إن شاء الله، تبدأ في فقرة أخرى وهلم جرا. سترى في نفسك التغيير العظيم، والتطور الرائع، ولا يكون يوماك مساويا فتكون مغبونا، كما قال أمير المؤمنين وسيد الوصيين وإمام المتقين وقدوة العارفين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ. فكما ذكرت لك في فصل سابق، تحت فصل «أنوار اليقين»، تستطيع أن تسلك سبيل الله من دون أستاذ ولا معلم رباني ولا شيخ، بل تفعل ما قلته لك من الذكر المداوم المثابر الجدي، فاهما معاني الذكر، لا كالببغاء أو جهاز الضبط. فكما ذكرت آنفا، بإمكانك أن تقطع شوطا في السير والسلوك بهذا الأسلوب من دون شيخ، إلى أن يهيئ الله لك معلما ربانيا في المستقبل، متى ما شاء الله، لتكميل المشوار في السير والسلوك.

إن ذكر «لا إله إلا الله» هو الحقيقة العظمى، فأين الفلاسفة من ذلك! أو ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»؟ فهذه الكلمة المقدسة تؤدي بك إلى الفلاح، إذا طبقتها بحذافيرها في وجودك كله ـ في نفسك، وملايين الملايين من الخلايا في داخلك، وفي لحمك ودمك، وجلدك وعضلك، وشعرك وبشرك، وعصبك وقصبك، وعظامك ومخك، وشرايينك وعروقك، ونومك ويقظتك، وسكونك

وحركاتك، وفي باطن مكنون ضميرك، وعلائق مجاري نور بصرك، وأسارير صفحة جبينك، وخرق مسارب نفسك، وخذاريف مارن عرنينك، ومسارب صماخ سمعك، وما ضمت وأطبقت عليه شفتاك، وحركات لفظ لسانك، ومغرز حنك فمك وفكك، ومنابت أضراسك، ومساغ مطعمك ومشربك، وحمالة أم رأسك، وبلوع فارغ حبائل عنقك، وما اشتمل عليه تامور صدرك، وحمائل حبل وتينك، ونياط حجاب قلبك، وأفلاذ حواشي كبدك، وما حوته شراسيف أضلاعك وحقاق مفاصلك، وقبض عواملك، وأطراف أناملك[1].

يقول السيد حسين العالم في فصل لاحق تحت عنوان «ما هو علم اليقين وعين اليقين» في المجلس الواحد والعشرين: ـ

«وهنالك لا يرى وجودا لغير الله، لا في نفسه ولا في غيره، ولا يرى مملكة في الوجود لغير الله، وعند ذلك يتوصل إلى حقيقة أنه وغيره من جميع الكائنات ليسوا شيئا، وإن ما نراه هو تجلي المبدأ الحقيقي، الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان».

فلأضرب لك مثلا مبسطا، لتقريب المعنى إلى ذهنك: ـ

إذا نظرت من فوق التل إلى البحر وقد غطمط وعظمت أمواجه، ترى الماء ممتدا إلى أقصى الأفق، وترى الأمواج تأتي إليك تترى، موجا بعد موج، كلما برز موج اختفى من بعده. فالأسئلة التي تطرح نفسها: «هل لهذه الأمواج أصالة؟»، «أم أنها أشكال من الماء تتغير؟»، «أوليس كل موج يبرز إلى الوجود، وله دورة حياتية خاصة، ثم يختفي ذلك الموج، يعني يموت؟».

(١) هذه التعابير أحبها حبا شديدا، لأن معظمها من الفم المبارك الطاهر لإمامنا ومقتدانا الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة.

سترى بأن الأشكال ليست لها أصالة، بل هي في الحقيقة الماء وحده، والأشكال هي من صنف الماء لا غير. كذلك الموجودات والكائنات ليسوا شيئا، ولا أصالة لها، بل هي أشكال أو تعينات (كما يقول العرفاء)، **والأصالة هي لله وحده، وإنما نراه هو تجلي المبدأ الحقيقي، الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان. فإذا فهمت هذه الحقيقة البسيطة، لا ترى غير الله.**

ولكن فهم هذا المعنى البسيط صعب على الناس، الذين تعودوا على التكاثر من يوم ولدتهم أمهاتهم، إلا من رحم ربي! ووهبه فهم الأنبياء والأولياء!!!

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾

يقول السيد حسين العالم قدس سره: (وحينما يصل العارف إلى هذا المقام، ويرفع الموانع، ويكشف عن نفسه الرذائل والأوساخ، تصل نفسه إلى الصفو والشفافية، بحيث تكون قابلة لتجلي النور. وبعد ذلك يكون لزاما على العارف أن ينشد اللطافة في وجوده، حتى يكون قلبه اللطيف محل تجليات الأنوار الإلهية. لأن النفس إذا لم تلبس اللطافة المطلوبة، فكيف يمكنها أن تتلقى النور المفاض الذي هو غاية في اللطافة؟

فالعارف بعد التعرض للرياضات والمجاهدات، يصل تدريجيا إلى مقام تسطع فيه على قلبه تجليات النور الإلهي ثم تخمد. ويجد العارف في هذه التجليات لذة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

وكلما توغل في هذه الرياضات، حصلت له هذه التجليات، حتى يصل إلى مقام يكون قلبه فيه محاطا بالنور الإلهي، ويتخلق فيه بالأخلاق الإلهية، ويصل إلى آخر نقطة من الكمال الذي هو مقام حق اليقين. **وهنالك لا يرى إلا الواحد الحقيقي، ولا يبقى هناك واصف ولا موصوف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا عارف ولا معروف. يعني**

تضمحل هنالك الإثنينية، ويتحقق الفناء التام، وهو منتهى آمال العارفين، وغاية كمال المرتاضين).

فالسيد يعني بأن أصحاب هذا المقام، يختفي منهم الإسم والرسم، بل تختفي الإثنينية عنهم. فهنالك لا يرى إلا الله الأحد الصمد، بأي طرف يرنو لا يرى غيره، إلى نفسه ينظر لا يرى غيره. فهو الشاهد والمشهود، والعالم والمعلوم، والعارف والمعروف، والسالك والمسلوك، والواصف والموصوف. والعبد فاني كرجوع القطرة إلى ماء البحر، لا تميز القطرة عن ماء البحر، وكيف تميزها وهما الآن شيء واحد ـ هما الآن الماء الماء ـ بل هو رجوع النفس المطمئنة إلى ربها، كما يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]. ويقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. سبحانه ما أعظم شأنه!!!

ويقول إمامنا ومقتدانا الإمام الحسين عليه السلام: «**وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك**». فهنالك تختفي الأغيار!!! فلا ذاكر ولا مذكور، ولا شاكر ولا مشكور، ولا حامد ولا محمود، ولا شاهد ولا مشهود، ولا داع ولا مدعو، ولا مجيب ولا مجاب. بل فناء الذاكر في المذكور، وفناء الشاكر في المشكور، وفناء الحامد في المحمود، وفناء الشاهد في المشهود، وفناء الداعي في المدعو، وفناء المجاب في المجيب. بل الله سحانه وتعالى هو خير ذاكر ومذكور، وخير شاكر ومشكور، وخير حامد ومحمود، وخير شاهد ومشهود، وخير داع ومدعو، وخير مجيب ومجاب. (راجع دعاء الجوشن الكبير). سبحانه لا شريك له!!!

وهنالك لا عالم ولا معلوم، ولا عارف ولا معروف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا واصف ولا موصوف. بل فناء العالم في المعلوم، وفناء العارف في المعروف، وفناء السالك في المسلوك، وفناء الواصف

في الموصوف. يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته».

وأذكر في ما يلي مقتطفات من فصل «اختفاء الرسم والإسم» من كتابي (السموات السبع) صفحات ١٤٥ ـ ١٤٦: ـ

وإذا وصلت حريم ريك ينمحي ... إسم ورسم منك في ذكراها
وتعيش في قلب سليم عاشق ... قد فارق الأموال بل أبناها
تركتهم حب البنين ومالها ... والحب في ذات ورق هواها
وقد انمحى جهل لمن أعماقهم ... محو الغبار لمن على مرآها
غطست قلوبهم لفي أنوارها ... وتنورت بـ «النور» من أسماها
فغدا بنور الله أنوارا ومن ... زيتونة وقدانها وضياها
ويكاد زيت الخلد يشرق نوره ... لا من مسيس لهيبها حاشاها
وهنا اختفى إسم ورسم منهم ... بل اختفت إثنينة بعماها
بل انمحت إثنينة من وجهها ... وتحققت بكمالها «إلاها»
بل انمحت بتمام فقر فقيرها[1] ... إثنينة فترى الوجود الله
فهو الوجود ولا وجود لغيره ... فالغير مثل سرابها بفلاها
ولقد نزعنا باليات غرورها ... فاليوم من إستبرق ثوباها
فاليوم بعد تحرر من كبرها ... فقد ارتدينا كبرياء رداها
واليوم بعد الجهل في أحداثها ... لنرى الجلال وقد كست أرجاها

يقول النبي ﷺ: «الفقر فخري». ويقول ﷺ: «الفقر شيء لا يعطيه الله إلا لنبي مرسل أو كريم على الله تعالى». ويقول ﷺ: «الفقر خزانة

---

(١) كما في الحديث النبوي الشريف: «إذا تم الفقر فهو الله».

من خزائن الله». ويقول ﷺ: «الفقر كرامة من كرامات الله تعالى». ويقول ﷺ: «من سره أن يجلس مع الله فليجالس أهل الفقر». ويقول ﷺ لأبي ذر الغفاري: «يا أبا ذر الفقراء ضحكهم عبادة، ومزاحهم تسبيح، ونومهم صدقة، ينظر الله إليهم في كل يوم ثلاث مرات». ويقول ﷺ: «إذا تم الفقر فهو الله»، وما أعظمه من كلام!!!

ويظن الناس أن الفقر هو فقدان المال والثروة. كلا إنه فناء الذات في ذات الله، إنه الإلمام والإحاطة واليقين الكامل بفقر الإنسان التام المطلق في ذات الله، بل تجسد هذا الفقر في حياة النفس المطمئنة، فكأنما الولي (فقر مطلق) يمشي على الأرض هونا، لا يكاد يرى، لأنه نور من نوع آخر، أخفى من أشعة الركس، بل أخفى من أشعة جاما، لا ترصده إلا الأجهزة الخاصة جدا، من العيون الباطنية في أعماق ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو نفس مطمئنة فانية في الله. وهو فخر النبي محمد ﷺ الذي يفتخر به! نعم (إذا تم الفقر فهو الله) ـ الذي يقوله الرسول الأعظم ﷺ ـ إذا تحقق للعارف، فذلك منتهى آمال العارفين!!!

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا في حبها متراخيا

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «فالذي يطلب المحبوب الحقيقي، لا مجال له بأن يتعلق قلبيا بغير الله تعالى. فكيف يمكن له أن يتعلق بغير الله، في حين أنه يتحتم عليه أن يكون قلبه بيت الله تعالى ـ لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن. فالعارف الحقيقي هو الذي قال عنه با يزيد البسطامي: «لو أنهم وضعوا العرش إلى الفرش في زاوية من قلبي، لما ظهر لها أي أثر، تماما كالحصا الصغير في وسط الصحراء الواسعة». وكيف لا يكون قلب العارف بهذه السعة، وهو محل تجلي النور الإلهي، والوصول إلى مرتبة حق اليقين».

وذكر السيد حسين العالم قدس سره في المجلس العشرين نماذج حية من النفس المطمئنة، كي يقتدي الإنسان السالك بهم، كبشر الحافي

(تلميذ الإمام موسى بن جعفر ﷺ)، وبا يزيد البسطامي (تلميذ الإمام جعفر الصادق ﷺ). أما نحن فنتبرك بأسماء أهل البيت ﷺ ولا نقتدي بهم، كأن الله لم يخلقهم نماذج حية، للإقتداء بهم، بل لمجرد التبرك بأسمائهم، والتبجح أمام الناس بأننا من أتباعهم!!!

فليعلم هؤلاء بأن شيعة أهل البيت ﷺ هم من طينة أهل البيت ﷺ، كما قال الإمام الباقر ﷺ: «وشيعتنا من طينتنا». أتعرف ما هو طينتهم؟ **إنهم كلهم نور واحد**، فهل نحن من نورهم؟؟؟

فيا حسرتاه على المدعين منا! يدعون العلم، وهم يعلمون جيدا، بأنهم لم يقتدوا بالأئمة ﷺ، ولم يسلكوا طريقهم قط، ثم إنهم يتهجمون على من تتلمذ على الأئمة ﷺ، واقتدى بهم، وسلك طريقهم، بل كما قال السيد حسين العالم قدس سره في المجلس العشرين: «رفعتم سيوفكم ورماحكم، وطعنتم في أبدان هؤلاء الأولياء وقلوبهم الطاهرة!!!». لقد نسوا أو تناسوا ما يقوله إمامنا ومقتدانا علي ﷺ في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أعادي لك وليا».

نعم هؤلاء الأدعياء والمدعون ضلوا وضللوا كثيرا من الناس، ولا يزالون يضللون! فما يكون جوابهم أمام خالقهم؟ يعتقدون بظهور الدجال، ولا يعرفون بأنهم الدجالون! يعتقدون بأن الإمام الحجة عليه أفضل التحية والسلام، حينما يخرج، يغرق العلماء الأدعياء إلى ركبهم في دمائهم، وهم لا يعرفون بأنهم هم المعنييون!!!

يقول السيد حسين العالم قدس سره: ـ

«أيها الناس أتظنون بأن هذا الكلام يقال جزافا! لا والله ليس كذلك! فبعض العرفاء بقوا على ظواهر الشريعة، والبعض الآخر غاصوا في بحر المعرفة، وتمسكوا بآل محمد ﷺ، ونالوا الدرر من كلماتهم وأفعالهم، ثم سلموها إليكم بهذه السهولة. بالله عليكم لا تضيعوا حقائق

الدين المحمدي!!! أتريدون أن تسمعوا باطن الشرع الإلهي؟ فها هو با يزيد البسطامي، وها هو بشر الحافي وغيرهم، أنظروا ماذا قالوا من درر الحكمة والكلام، وإلى أي مقامات وصلوا، ومن أي بيت أخذوا هذه الأسرار؟؟؟ **تضيعون حقائق الدين المحمدي وأنتم لا تعلمون شيئا، وما عندكم من علم، بل هي أسماء سميتموها، فيا ليتكم سكتم لكان أحسن لكم!! بل رفعتم سيوفكم ورماحكم، وطعنتم في أبدان هؤلاء الأولياء وقلوبهم الطاهرة!!!**».

بل إنني سمعت أخيرا أحدهم يقول: «إن عهد بني العباس أشهروا الصوفية (ومنهم طبعا با يزيد البسطامي وبشر الحافي) للتغطية على الأئمة عليهم السلام»!!! وما أسرع ما يؤثر هذا الكلام على الناس البسطاء! كأن الأئمة عليهم السلام حكرا عليهم، كما كان محمد صلى الله عليه وآله حكرا على الأدعياء وما يزال. وهذا الكلام وهذه الشعارات هي من ذلك النوع الذي ذكرنا آنفا، تطلق لتضليل العامة وإقصاء العلماء الراسخين، حتى يحتكروا المنابر، ويكمموا أهل الحق. ويطلقون أسماء كالصوفية والحلول ووحدة الوجود، وهم لا علم لهم بها. ولقد قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وهل بقبقتهم إلا كما يقول الشاعر (يحمي جوابيه نقيق الضفدع). أو كما يقول الشاعر: ـ

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمي أصم وأذني غير صماء

أو كما يقول المثل (ترك الجواب على الجاهل جواب).

ترنح بالكلام علي جهلا   فصمت الصالحين هو الجواب

ثم يذكرون العرفان ومقاماته مما حفظوه من الكتب، ويتشدقون به وكأنهم عرفاء. وهل أجهزة الضبط وحفظها للنصوص دليلا على العلم!!! ومن طرف آخر ماذا عن إهاناتهم للعرفاء ولأولياء الله الصالحين. يقول

المثل هي (أهون من النباح على السحاب). ويقول مثل آخر (نبح الكلاب لا يضر بالسحاب). فما أعجب هذا التناقض!

ويختتم السيد حسين العالم قدس سره المجلس العشرين بقصة تلمذة با يزيد البسطامي عند الإمام جعفر الصادق ﷺ، حيث يقول له الإمام ﷺ في نهاية التلمذة: ـ

«أرى فيك مجاهدة ومساعدة، فالمجاهدة سير العبد والمساعدة عناية الحق، فليكن صاحب المجاهدة سيارا، وصاحب العناية طيارا، وأنى يدرك المريد السيار العارف الطيار، طر بجناح الإرتياح إلى بسطام، وادع إلى سبيل الملك العلام». ويقول أيضا: «وغرضي من سرد هذه الواقعة، هو أنك إذا لم تلازم بيت آل محمد ﷺ لا تصل إلى شيء، وأن سفينتك في بحر المعرفة من دون ربان لا تجري على الماء، وإذا لم تلتزم بأوامرهم لا تصل إلى مقصود. أتريد أن تصل إلى مرتبة حق اليقين من دون جهد؟ هيهات هيهات! هذا العمل يحتاج إلى مجاهدة، وإلى ملازمة بيت آل محمد ﷺ. فهم الذين بإمكانهم إيصال المخلوق إلى الفناء في الخالق، وهم الهدف من خلق العالم، وهم الإنسان الحقيقي، وهم الكل في عالم الأجزاء، ولا يصل الجزء إلى مقصود إلا بالتمسك بالكل».

المجلس العشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

«لقد ذكرنا بأن مراتب الإيمان الشهودي القلبي ثلاثة: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. ولقد أوضحنا لك قليلا من معاني علم اليقين وعين اليقين. أما المرتبة الثالثة وهي حق اليقين فهي مرتبة شامخة لا يصل اليها أي أحد، لأنها المرتبة التي يكون فيها العاقل والمعقول وحدة معنوية وربطا حقيقيا، بحيث إن العاقل يجد ذاته رشحة من سحاب فيض المعقول ومرتبطا به. وإذا لم تفهم هذا المعنى أشرح لك ما ذكره أبو علي سينا في «الإشارات»، وذكره شارحها نصير الدين الطوسي في «مقامات العارفين»، لعلك تفهم الحقيقة على قدرك. ولأن الكلام مفصل وخارج عن فهمك، ولكن «ما لا يدرك كله لا يترك كله»، سأسعى إلى الإختصار لأوضح لك كيف الوصول إلى مقام «حق اليقين» المنيع، وكشف المجاب والفناء في الله.

فاعلم يا عزيزي بأن السالك إلى الله يبدأ بالمرحلة الأولى، وهي الإرادة على حصول اليقين عن طريق البراهين، أو التسليم بأقوال أئمة الهدى ﷺ، حتى يحصل له اليقين، ويصدق وجود المبدأ المتعالي، الذي هو منزه عن كل الرذائل، ويتصف بكل الكمالات، وهو جل اسمه يتصف بالكمالات الذاتية، ولا يوجد فيه أي نقص.

وسعادة الإنسان وحياته الأبدية[1] منوطة بنيل الكمالات، والقرب والزلفى إلى المبدأ المتعالي. وحين تصل إلى اليقين بهذا الأمر، تشتاق إلى سفر عالم القدس، والنيل بمقام القرب والزلفى. وبعد ذلك تكون طالبا للسفر إلى الله، وراغبا في الفناء في الله. وحينذاك تدخل لا محالة في المرتبة الثانية، وهي عبارة عن الرياضة. والرياضة هي منع النفس عن الحركات الشهوانية والحيوانية، كما أن رياضة البهائم هي عبارة عن منعها عن إتيان الحركات التي لا يريدها الرائض، وإجبار البهائم على الحركات التي يرضاها الرائض، حتى يؤدي هذا المنع إلى أن يتعود الحيوان على إطاعة رائضه.

والقوة الحيوانية في الإنسان، إذا لم تكن في طاعة القوة العاقلة، فهي بمنزلة البهيمة التي لم تروض. وهذه القوة الحيوانية تظهر تارة على صورة الشهوة، وتارة أخرى على صورة الغضب، أي ما يسمى بالقوى الشهوانية والغضبية، والتي يمكن أن تهيج وتطغى بسبب التخيلات والتوهمات تارة، وبسبب الحواس الظاهرة تارة أخرى، كي تصل إلى مقصودها. وما أكثر ما تسخر القوة الحيوانية القوة العاقلة، التي هي سلطان مملكة الإنسان، لأغراضها الشهوانية والغضبية[2]. فحينذاك تتحول

---

(١) السعادة والبقاء هم الدعامتان الأساسيتان في الفطرة البشرية، والناس يسعون حثيثا لتحقيقهما، فهل يتحققان؟ ألا إن تحقيقهما ممكن فقط وفقط في مقام «حق اليقين» حيث النفس المطمئنة، والفناء في الله، ثم البقاء في الله.

(٢) بحيث تعطي القوة الحيوانية مبررات عقلية لأعمالها الشهوانية والغضبية، بكلمات وشعارات عقلانية، تضلل الكثير من الناس، لأنها من قبيل كلمات حق يراد بها باطل. ومثل هذه الشعارات والكلمات المعسولة يطفح بها التاريخ، في الماضي وفي الحاضر، بل إنه في أيامنا هذه أشد وأطغى. ولكن أين العاقل البصير الذي يمكنه تمييز الدر من الحجر! أليست مثل هذه الشعارات والكلمات، التي هي من قبيل كلمة حق يراد بها باطل، غطت على أئمتنا ﷺ في زمانهم، وأقصتهم عن الناس، وأقصت تعاليمهم عن العامة، ورفعت ذكر المدعين والأدعياء. ولا زالت هي تغطي اليوم على العلماء الراسخين في العلم، وتقصيهم بأشكال جهنمية، كي=

نفس الإنسان إلى النفس الأمارة، التي تعمل بالقوى الحيوانية، مستعملة القوة العقلية لأغراضها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

= يجلس الأدعياء، بأساليبهم الإعلامية، على أذهان العامة وطريقة تفكيرهم وأسلوب حياتهم. تلك هي نماذج حية من تسخير القوة الحيوانية القوة العقلية لأغراضها، بحيث يختلط فيه الحابل بالنابل، وتضيع الحقيقة على الناس، إلا من رحم ربي!!! هذا على مستوى المجتمع، أما على مستوى النفس، فإن أكثرية الناس تطغى عليهم القوى الحيوانية، ويتخذون لأعمالهم مبررات عقلانية منطقية، بحيث تصبح القوة العاقلة مسخرة بيد القوة الحيوانية، وتصبح النفس بعيدة كل البعد عن مقام النفس المطمئنة، ولكن أكثرهم لا يشعرون بها، بل يحسبون أنهم يحسنون صنعا، كما ذكره الله تعالى في أواخر سورة الكهف: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

النفس المطمئنة هي استتباب النظام في مملكة النفس

ولكن إذا مسكت القوة العاقلة بالمبادرة، ولعبت دور الرائض في ترويض النفس الحيوانية، وبدأت بمنعها عن التخيلات والتوهمات، وعن النظر الحرام وسماع السوء، وعن اللمس المحرم والمحرمات التي تؤدي إلى الشهوة والغضب، ومارست القوة والإجبار كي تطيع القوة الحيوانية القوة العاقلة، وتتصرف حسبما تريد منها القوة العاقلة، هنالك تبدأ القوى الحيوانية تدريجيا بالتمرن على طاعة العاقلة، وتسخر دائما في خدمتها، وتأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها. وهنالك يستتب النظام في مملكة النفس، وتتحول نفس الإنسان إلى نفس مطمئنة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

وبين هاتين المرتبتين يعني الأمارة والمطمئنة، تسلك النفس مراتب كثيرة لا هي أمارة ولا هي مطمئنة، بمعنى أن القوى الحيوانية تصبح تابعة للقوة العاقلة، ولكنها تطغى عليها أحيانا، فتبدأ النفس بملامة ذاتها لخروج القوى الحيوانية على القوة العاقلة، فتسمى آنذاك النفس اللوامة. فنفس الانسان تكون أمارة حين تدبر كليا عن الحق، وتكون مطمئنة حين تقبل كليا على الحق تعالى. وبين هذا وذاك تكون لوامة، بمعنى أنها تدبر عن الحق تارة، وتقبل على الحق تارة أخرى. ولأن الأغراض العقلية مختلفة، لذلك يكون كل مرتاض ينشد غرضا ما، ويحث الخطى إلى

هدف ما. ولهذا السبب تكون الرياضات مختلفة، فبعضها رياضات عقلية، والبعض الآخر رياضات سمعية، والتي تسمى بالعبادات الشرعية. والرياضة التي هي أعلى وأشمخ من كل الرياضات هي رياضة العارفين، لأنهم ينشدون المرتبة الشامخة والمقام المنيع، ألا هو وجه الله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ـ ويريدون أن يصلوا إلى مرتبة حق اليقين، بمعنى أنهم يجاهدون ويبذلون جهدا كبيرا، كي يتركوا بقلوبهم ما سوى الله، حتى يصلوا إلى الله تعالى ويتصلوا به ـ وهذا ما حصل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

فالذي يطلب المحبوب الحقيقي، لا مجال له بأن يتعلق قلبيا بغير الله. فكيف يمكن له أن يتعلق بغير الله تعالى، في حين أنه يتحتم عليه أن يكون قلبه بيت الله تعالى ـ لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن. فالعارف الحقيقي هو الذي قال عنه با يزيد البسطامي: «لو أنهم وضعوا العرش إلى الفرش في زاوية من قلبي، لما ظهر لها أي أثر، تماما كالحصا الصغير في وسط الصحراء الواسعة». وكيف لا يكون قلب العارف بهذه السعة، وهو محل تجلي النور الإلهي، والوصول إلى مرتبة حق اليقين.

وبعد حصول الإرادة، لا بد من كسب المواهب والإستعدادات، التي تتأتى بزوال الموانع الخارجية والداخلية، والتي لا يمكن زوالها إلا ببركة الرياضات. أما الموانع الخارجية فهي اشتغال النفس بغير الحق، فلا بد لطالب مرتبة حق اليقين أن يتنحى بقلبه عما سوى الحق، بمعنى أن يضع قدمه على كل ما هو سوى الله تعالى، وأن لا يرى غير الله في كل أفعاله وحركاته وسكناته ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. ويجب أن يكون في كل الأحوال مشغولا بذكر الله تعالى ـ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. ولقد قال أحد العرفاء: «لقد مضى علي عشرون عاما، لم أتكلم فيها إلى غير الله». وأما

الموانع الداخلية فهو عدم السماح للشهوة والغضب والقوى الحيوانية أن تتصرف كما تشاء. يجب تطويع النفس الأمارة حتى تتحول إلى النفس المطمئنة، بمعنى أن تنقاد القوى الحيوانية إلى القوة العاقلة، وأن تساق التخيلات والتوهمات سوقا من العالم السفلي إلى عالم القدس، وتبعا لذلك تساق القوى الحيوانية من أسفل السافلين إلى أعلى عليين.

بشر الحافي وإسلام الطبيب النصراني

وحينما يصل العارف إلى هذا المقام، ويرفع الموانع، ويكشف عن نفسه الرذائل والأوساخ، تصل نفسه إلى الصفو والشفافية، بحيث تكون قابلة لتجلي النور. وبعد ذلك يكون لزاما على العارف أن ينشد اللطافة في وجوده، حتى يكون قلبه اللطيف محل تجليات الأنوار الإلهية. لأن النفس إذا لم تلبس اللطافة المطلوبة، فكيف يمكنها أن تتلقى النور المفاض الذي هو غاية في اللطافة؟ فالعارف بعد التعرض للرياضات والمجاهدات، يصل تدريجيا إلى مقام تسطع فيه على قلبه تجليات النور الإلهي ثم تخمد. ويجد العارف في هذه التجليات لذة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر. وكلما توغل في هذه الرياضات، حصلت له هذه التجليات، حتى يصل إلى مقام يكون قلبه فيه محاطا بالنور الإلهي، ويتخلق فيه بالأخلاق الإلهية، ويصل إلى آخر نقطة من الكمال الذي هو مقام حق اليقين. وهنالك لا يرى إلا الواحد الحقيقي، ولا يبقى هناك واصف ولا موصوف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا عارف ولا معروف. يعني تضمحل هنالك الإثنينية، ويتحقق الفناء التام، وهو منتهى آمال العارفين، وغاية كمال المرتاضين.

فيا أيها الناس إن السالكين إلى الله غيري وغيرك، قلوبهم منصهرة بالعشق الإلهي. يقال إن بشر الحافي حينما مرض مرض الموت، إجتمع

عنده على فراشه بعض مريديه، وقالوا له نريد أن نحمل قارورتك[1] إلى الطبيب. قال أنا بعين طبيبي (يريد به الله) يفعل معي كما يشاء. قالوا هناك طبيب نصراني حاذق جدا، نريد أن نحمل إليه قارورتك. فقال بشر الحافي اتركوني فإن الطبيب قد أمرضني. فألحوا عليه كثيرا، فقبل بشر وقال لأخته غدا سلميهم قارورتي. وعندما أصبح الصباح، وحملوا القارورة إلى الطبيب النصراني، تفحص فيها الطبيب وقال لهم حركوها فحركوها، ثم قال لهم ضعوها فوضعوها ـ فعلوا ذلك ثلاث مرات. فقال أحدهم للطبيب كنا نظنك حاذقا، وصاحب دقة وسرعة إدراك وحدس صائب، في حين نراك الآن تكرر التفحص والتمعن في هذه القارورة، مما يدل على قلة المعرفة. فأجاب الطبيب: والله لقد شخصت المرض من أول نظرة، ولكنني في عجب، ولذلك كررت التفحص، فإن كان صاحب هذه القارورة نصرانيا، فإن خوف الله قد مزق كبده، وإن كان مسلما فإنه بشر الحافي، وليس عندي دواء لهذا المرض، أسرعوا إليه فإنه سيموت. قالوا والله هذا الماء لبشر الحافي، وعندما سمع الطبيب النصراني ذلك، أخذ المقراض وقطع الزنار، ونطق بالشهادتين، وأجهر إسلامه. وينقل عن هذه الجماعة أنه لما أسلم الطبيب النصراني، أسرعنا خطانا إلى بشر الحافي، لكي نحمل إليه هذه البشارة السارة. وحين وقع نظره علينا، قال لقد أسلم الطبيب النصراني، فقلنا بلى، ولكن بالله عليك من أخبرك بذلك. فقال حينما ودعتموني حصلت لي حالة بين اليقظة والمنام، فسمعت هاتفا يقول: أيا بشر طوبى لك! فلقد أسلم الطبيب النصراني ببركة مائك. وبعد هذا الكلام بساعة، إنتقل بشر الحافي إلى دار الوصال.

فإذا كان مقام القرب الإلهي، والوصول إلى مرتبة حق اليقين، له

---

(١) هو قارورة بول للفحص الطبي كما نسميه في أيامنا هذه.

هذا الشأن العظيم، أن يكون ماء[1] صاحبه دواء لكفر الكافر، وبالنظر إليه تتبدل ظلمة الكفر إلى نور الايمان. فيا أيها الأعزاء ما أرخص الروح في هذا الطريق[2]!!! فانتبهوا أن لا تضحوا بروحكم في سبيل النفس البهيمية.

---

(١) الماء هو البول ولكن قيل الماء حياء.

(٢) إن حرارة السيد حسين العالم قدس سره وحماسه الزائدين في تقديس بشر الحافي، وتناغم روحه مع روحه، يدل على الشأن العظيم للعرفاء عنده. فالطيور على أشكالها تقع!!! فالسيد حسين لا شك عارف شامخ، على الرغم من أن المعروف عنه أنه كان عالما في الشريعة من الطراز الأول. في حين أننا نرى في أيامنا هذه أنصاف العلماء، في لباس علماء الشريعة، قد رفعوا سيوفهم ورماحهم، يطعنون في أبدان العرفاء المطهرة وأرواحهم المقدسة، كأمثال بشر الحافي وبا يزيد البسطامي وغيرهما، يتهمونهم بالصوفية، وكأن الصوفية كفر ويا للعجب!!! سبحان الله! «الناس أعداء ما جهلوا» كما يقول مولانا الإمام علي عليه السلام. وواضح أن السيد حسين العالم قدس سره هو من أهل الطريقة ومن أهل السير والسلوك، تماما كما كان أخوه السيد حسن المسقطي. وهل تجد العلماء الراسخين في العلم إلا في هذه الجماعة الطاهرة المطهرة!!! هذه الجماعة المقدسة التي يتكلم عنها الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حيث يقول: «إلهي اسلك بي مسلك أهل الجذب».

با يزيد البسطامي في خدمة الإمام الصادق عليه السلام

أيها الناس أتظنون بأن هذا الكلام يقال جزافا! لا والله ليس كذلك! فبعض العرفاء بقوا على ظواهر الشريعة(١)، والبعض الآخر غاصوا في بحر المعرفة، وتمسكوا بآل محمد ﷺ، ونالوا الدرر من كلماتهم وأفعالهم، ثم سلموها إليكم بهذه السهولة. بالله عليكم لا تضيعوا حقائق الدين المحمدي(٢)!!! أتريدون أن تستمعوا إلى باطن

---

(١) ومنهم العلامة السيد حسين العالم، فالمعروف عنه كما ذكرنا آنفا أنه كان علما من أعلام الشريعة الإسلامية، وبعد اكتشافنا هذا الكتاب، وهذا الكنز من أسرار العرفان، تيقنا من أنه كان عارفا رفيع القدر، ولم نكن نعلم ذلك بالتأكيد، رغم ما ذكرنا في فصول سابقة عن تقديسه للعرفاء، وعن مدحه البليغ للعرفاء، وعلى الأخص أخيه السيد حسن المسقطي.

(٢) فلقد سمعت أخيرا أحد الخطباء يقول بأن عهد بني العباس أشهروا الصوفية (ومنهم طبعا با يزيد البسطامي وبشر الحافي) للتغطية على الأئمة الأطهار عليهم السلام، كأن الأئمة عليهم السلام حكرا عليهم، كما كان محمد ﷺ حكرا على الأدعياء وما يزال. وهذا الكلام وهذه الشعارات هي من ذلك النوع الذي ذكرنا آنفا، تطلق لتضليل العامة وإقصاء العلماء الراسخين، حتى يحتكروا المنابر، ويكمموا أهل الحق. ويطلقون أسماء كالصوفية والحلول ووحدة الوجود، وهم لا علم لهم بها. ولقد قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ثم يذكرون العرفان ومقاماته مما حفظوه من الكتب، ويتشدقون به وكأنهم عرفاء. وهل أجهزة الضبط وحفظها للنصوص دليلا على العلم!!! ولا أعرف هل هو الجهل المركب أو لأغراض كسب المعيشة والمادة، أيهما هو الحافز لتضييعهم حقائق الدين المحمدي!!!

الشرع الإلهي؟ فها هو با يزيد البسطامي، وها هو بشر الحافي وغيرهم، أنظروا ماذا قالوا من درر الحكمة والكلام، وإلى أي مقامات وصلوا، ومن أي بيت أخذوا هذه الأسرار؟؟؟ تضيعون حقائق الدين المحمدي وأنتم لا تعلمون شيئا، وما عندكم من علم، بل هي أسماء سميتموها، فيا ليتكم سكتم لكان أحسن لكم!! بل رفعتم سيوفكم ورماحكم، وطعنتم في أبدان هؤلاء الأولياء وقلوبهم الطاهرة!!! فانظر إلى حال با يزيد البسطامي، كيف جاهد في الله ومن أين كسب علومه. يقول الشيخ المرشد جنيد البغدادي قدس سره (وهو من أولاد الشيخ أبي الحسن الخرقاني): أن السلطان با يزيد البسطامي في أوائل أيامه كان يبحث عن ضالته وهي الحكمة أينما وجدها، إلى أن سأل عن الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣]، وسأل عن حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين لن تضلوا إن تمسكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي». فاختار التمسك والإعتصام بالعروة الوثقى، ومتابعة أهل البيت ﷺ، فركب راحلة الشوق، وتزود بزاد اليقين، وتوجه إلى كعبة آمال العاشقين الصادقين الإمام جعفر الصادق ﷺ (أو الإمام موسى الكاظم ﷺ حيث يوجد خلاف ـ فارجع إلى مجالس المؤمنين للقاضي)، وبقي في خدمته مدة طويلة. وفي يوم من الأيام طلب منه الإمام جعفر الصادق ﷺ أن يناوله كتابا كان موضوعا على الطاق، فقال الشيخ أي طاق. قال الإمام ﷺ أنت عندنا من مدة طويلة، ولا تعرف مكان الطاق. قال الشيخ لم آت هنا للنظر إلى الطاق أو الرواق، بل أتيت وكلي نظر إلى قبلة الحق. فأمعن الإمام الصادق ﷺ نظره فيه وقال: «أرى فيك مجاهدة ومساعدة، فالمجاهدة سير العبد والمساعدة عناية الحق، فليكن صاحب المجاهدة سيارا، وصاحب العناية طيارا، وأنى يدرك المريد السيار العارف الطيار، طر بجناح الإرتياح إلى بسطام، وادع إلى سبيل الملك العلام». فقال الشيخ: «هب لي خلعة ورفيقا». فألبسه الإمام جعفر الصادق ﷺ

جبته، وأرسل معه ابنه محمد. فرحل الشيخ إلى بسطام برفقة ابن الامام عليه السلام. وتوفي محمد في أثناء حياة الشيخ، فدفنه الشيخ في مقام توجد فيه الآن قبة، وكان دائما يتقرب إلى الله بزيارة تربته المقدسة. وكان با يزيد البسطامي ساقي ماء في بيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام ردحا من الزمن. وغرضي من سرد هذه الواقعة، هو أنك إذا لم تلازم بيت آل محمد صلى الله عليه وآله لا تصل إلى شيء، وأن سفينتك في بحر المعرفة من دون ربان لا تجري على الماء، وإذا لم تلتزم بأوامرهم لا تصل إلى مقصود. أتريد أن تصل إلى مرتبة حق اليقين من دون جهد؟ هيهات هيهات! هذا العمل يحتاج إلى مجاهدة، وإلى ملازمة بيت آل محمد صلى الله عليه وآله. فهم الذين بإمكانهم إيصال المخلوق إلى الفناء في الخالق، وهم الهدف من خلق العالم، وهم الإنسان الحقيقي، وهم الكل في عالم الأجزاء، ولا يصل الجزء إلى مقصود إلا بالتمسك بالكل.......

رحلة في المجلس الواحد والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

رغم أننا حققنا في علم اليقين وعين اليقين في المجالس السابقة، إلا أن للسيد حسين العالم قدس سره عودة إلى هذا الموضوع بمثال النار، أو النور المجازي، الذي ضرب به الله تعالى مثلا في القرآن المجيد، لتوضيح علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وهو مثال رائع لأن النار مصدر النور المجازي، وتتصف باللطافة والخفة، وبأنها تغلب كل شيء، وأنها تحل محل الأنوار العلوية في الظلمات، وأن قليلا منها لو ظهرت في محفل تحفه الظلمات، لجعلت أهل المحفل مسرورين بنورها، ولو أنها ظهرت حين يبرد الهواء، لجعلت مجاوريها مسرورين بحرارتها، وأن حكم النور الحقيقي، الذي يشع في قلوب العرفاء والأولياء، هو كذلك، كما يقوله السيد حسين العالم قدس سره.

فضرب الله تعالى مثلا لعلم اليقين وعين اليقين برؤية الجحيم أو النار، إذ ذكر سبحانه وتعالى أولا المرتبة الأولى في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٦]، ثم أشار إلى المرتبة الثانية وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]. وأشار إلى المرتبة الثالثة في سورة الواقعة: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٤ ـ ٩٥]. وكل هذه أمثلة الجحيم التي هي النار

أو النور المجازي، الذي على مثاله يكون حكم النور الحقيقي، الذي يتعامل به عباد الله الصالحون.

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «فالذي عنده علم بالنار التي تتصف بهذه الصفات على قسمين: فبعضهم يقبل بها قبولا تقليديا صرفا[1]، فهو الذي عنده إيمان قلبي تقليدي. والبعض الآخر **يصدق بالكشف بوجودها**، وبأنها متصفة بهذه الصفات، فهو الذي عنده **إيمان قلبي كشفي**. وهو على ثلاثة أقسام: فالبعض يرى من بعيد أثرا من النار يعني الدخان، الذي يدل على وجود النار، فيستنبط وجود المؤثر بسبب هذا الأثر، فهو الذي يحصل عنده علم اليقين. والقسم الآخر تنكشف عن عينيه الحجب، ويقترب إلى النار، ويراها رأي العين، فهو الذي ارتقى إلى مرتبة عين اليقين. والقسم الثالث هو الذي وقع في النار واحترق بها، وعانى حرارتها (سل عن النار جسم من عاناها)، ثم أصبح فانيا فيها، فهو الذي ارتقى إلى مقام حق اليقين».

(١) وهم أصحاب الفرق والمذاهب، قبلوا بوجود النور الحقيقي تعبدا تقليديا صرفا، فالتزموا بالأحكام الشرعية تعبدا تقليديا صرفا أيضا، بمعنى أن لا مصداقية لديهم بما يقوله الرسول الأكرم ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»، أو «لا صلاة إلا بحضور القلب» وهلم جرا، لأنهم لم يصلوا بعد إلى الإيمان القلبي الكشفي الشهودي، فكيف تنكشف لهم معاني المعراج، وهم لا خبرة لهم به؟ أو معاني الشهود القلبي، الذي لم يتحقق لهم الشهود بالقلب؟

العارف من عرف الله على أساس وجداني

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «ويجب على كل إنسان عاقل أن يعلم ويفهم، بأن العلة الغائية للخلقة هو معرفة الله، وأن المعرفة لا تكتمل إلا بالمعرفة القلبية الكشفية». والعرفان هو معرفة الله، **والعارف هو العارف بالله، الذي يحقق شهوديا ووجدانيا في حقيقة الدين**، وأول الدين معرفته[1]، كما يقول مولانا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام.

فانظر ماذا يقول شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره في جوابه للسؤال الذي طرحه الدكتور الياباني يوشي ميكي مايدا، والذي سأل: «ما هو العرفان وما هو تعريفك لارتباط العرفان بمذهبكم؟». والجواب هو في كتاب «السحر» للدكتور الياباني يوشي ميكي مايدا صفحات ٤٨ إلى ٥٠: ـ

يقول شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره في الجواب بما يلي: ـ

---

(١) هذا الحديث موجود في نهج البلاغة. ويستنبط من هذا الحديث العلوي بأن الذي لم يعرف الله لم يدخل الدين، فمعرفة الله هي أول الدين. أي أن الدين هو عند العرفاء بالله فحسب، لأن الدين بتفاصيله لا يأتي إلا بعد معرفة الله سبحانه وتعالى. وواضح أن ما عند المتدينين! هو فهم الدين بقوة فكرهم البشري، لا الدين الذي نزل به الوحي السماوي. والقرآن أيضا وحي سماوي لا يفهم بالفكر البشري، كما في سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

«في جواب سؤالك يجب أولا أن أذكر لك تعريف العرفان كما هو في مكتبنا»[1].

العرفان في اللغة هو المعرفة، ويرد هذا المعنى حتى في الرياضيات والعلوم الطبيعية والمادية، فيسمى العرفان الرياضي أو العرفان المادي أو العرفان الطبيعي أيضا. ولا شك أن الذي يطلق اسم العرفان عليهم، يعني بالعرفان الرياضي، التحقيق في حقيقة الرياضيات، وبالعرفان المادي أو الطبيعي، التحقيق في حقيقة المادة أو الطبيعة. فمثلا حينما يقال (العرفان الرياضي)، المقصود هو أن الشخص تجاوز الحدود المتعارفة في الرياضيات، ومارس التحقيق في حقيقة الرياضيات. وهذا المعنى بالظاهر صحيح ولا غبار عليه. فمثلا لو نظرنا في حياة عالم الرياضيات الكبير في القرن العشرين آلبرت آينشتاين، ستراه يشبه أحد العرفاء أكثر من عالم رياضي. والمقصود هو جوانب حياته الشخصية من الورع والعزوف عن الشهرة والمقام، وحتى عدم علاقته بالأمجاد التي اكتسبها. ولو طالعت آثاره في المواضيع غير الرياضيات، ستشم منها رائحة العرفان. فيطلق عليه، **بمعناه العام**، اسم العرفان الرياضي.

أما العرفان بمعناه الأخص فيطلق على العرفان الديني فحسب، وإذا سمعت اسم (العارف)، يتبادر إلى ذهنك شخص ديني، الذي له نظر في حقيقة الدين.

أما الموضوع الآخر الذي أريد أن أوضحه، قبل الشروع في موضوع العرفان، هو فصل العرفان العملي عن الفلسفة. ولأن هذين

---

(١) مكتب الطريقة الأويسية في العرفان، الذي تبدأ سلسلة أقطابه من الصحابي المعروف أويس القرني (رض)، الذي استشهد في صفين بين يدي إمامه الإمام علي عليه السلام، والذي خلف الصحابي الكبير سلمان الفارسي (رض)، في تعليم الأسرار المحمدية، التي اقتبسها من معلمه الإمام علي عليه السلام.

المطلبين يختلطان خطأ في مواضع معينة، في نظر كثير من الناس، دعني أريك التعريف الجديد الذي وضعه مكتبنا (مكتب الطريقة الأويسية) لهاتين المجموعتين.

فالعرفان يحصل للمرء بتوجهه إلى الوجدانيات. وعلى العكس من ذلك الفلسفة، التي هي نتاج القوى الدماغية. وبعبارة أصح وأوضح، إذا كانت المعرفة على أساس وجداني فهي (العرفان العملي)، وإذا كانت المعرفة نتاج النشاطات الدماغية والفكرية، فهي (العرفان الفلسفي).

فالذي يرد مجال العرفان العملي، وينشد التوفيق بالحصول على المعرفة على أساس وجدانيته، يعطل قواه الدماغية، حتى يستطيع الإستقرار في نفسه. أما العرفان الفلسفي فتحصل أركانه وأصوله بالمقايسات في النسب، ولأن هذه المقايسات من عمل الحواس، يكون نتاجها في الحقيقة (فلسفة) لا (لب العرفان).

وفي موضع آخر، يذكر شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره في صفحات ٥١ إلى ٥٣ من كتاب «السحر»: ـ

«الأجدر بنا أن نميز بين العارف وبين الذين يتكلمون في مسائل العرفان وهم ليسوا بعرفاء، أو الذين يكتبون في العرفان وهم ليسوا بعرفاء.

فلنفرض أن أحدا مارس التحقيق في حياة قادة التاريخ العظماء ومبارزاتهم، أو في تاريخ سلسلة معينة من السلاطين. فعندما ينتهي هذا الشخص من تحقيقه ونشر كتابه، فلا يمكن أن يرتكب القارئ هذا الخطأ، ويظن بأن الكاتب هو من قادة التاريخ العظماء. أو أن أحدا مثلا إذا مارس التحقيق في حياة الوزراء الكبار في سلسلة معينة من السلاطين وأعمالهم وأسلوب إدارتهم للدولة، فلا يمكن لقارئ هذا الأثر أن يتصور

بأن الكاتب نفسه هو الوزير المقتدر والسياسي المحنك، رغم شرحه اللطائف الفكرية ودقتها في كشف علل أعمال ذاك الوزير وأوامره.

أما مع الأسف الشديد ترتكب الأخطاء دائما في حق التحقيقات الدينية، وعلى الأخص التحقيقات في مجال العرفان. فمثلا لو مارس أحد التحقيق في العرفان الكلاسيكي[1]، يظن القارئ بأن الكاتب نفسه هو من العرفاء. في حين أن هذا خطأ محض، وأنهما ليسا ملازمين لبعضهما البعض. إنها مسائل العموم والخصوص، بمعنى أن كل عارف يستطيع أن يحقق في العرفان ويكتب عنه[2]، ولكن إذا مارس أحد التحقيق في العرفان فليس بالضرورة بعارف.

والآن الأجدر بنا أن نفصل طوائف المحققين بعضهم عن بعض، حتى لا نواجه مشكلة ما في الأجوبة اللاحقة.

الطائفة الأولى من المحققين هم الأفراد الذين يحققون في موضوع العرفان، ويستخرجون ويدونون حقائق تاريخية من دون تحيز، ومن دون أن تكون لهم تجربة أو نظر في متن الموضوع، أو أن يقصدوا بأن يرتكب القارئ هذا الخطأ في حقهم.

الطائفة الثانية هم أفراد من العرفاء أنفسهم، وهم أهل السير والسلوك، ولهم في أصل الموضوع تجارب كافية وكاملة، وعقيدة ونظر، وفي نفس الوقت يمارسون التحقيق أيضا في الموضوع. فمثلا في موضوع

---

(١) العرفان الكلاسيكي موضوع يدرس في الجامعات، وله كتّاب كتبوا خصيصا في هذا الموضوع، أي في تاريخ العرفان والعرفاء، وتحليل أفكارهم ومعتقداتهم وتعليماتهم. وهو يسمى أيضا العرفان النظري. وأبرز الفلاسفة الذين كتبوا في هذا المجال هم أبو علي بن سينا وملا صدرا الشيرازي.

(٢) واضح أن السيد حسين العالم قدس سره هو عارف، وقد حقق في العرفان. فكتابته لا تنبئ عن نقل ذهني نظري، بل إنك تلمس أن وجوده كله يتكلم عن الله في حرارة العرفاء وحماسهم الزائدين.

العرفان صاحب كتاب «كشف المحجوب» هو من هذه الطائفة، فهو عارف وفي نفس الوقت يمارس التحقيق في العرفان. وواضح بأن آثار مثل هذا الشخص في موضوع العرفان تكون ذات قيمة أعلى بكثير[1]، مقارنة مع تحقيقات الطائفة الأولى».

(١) والسيد حسين العالم قدس سره من هؤلاء، وكلامه له أثر بالغ ذو قيمة عالية.

من عرف نفسه فقد عرف ربه

ويستطرد شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره في صفحات ٥٥ إلى ٥٩ من كتاب (السحر) قائلا: ـ

«وبعد هذه التعاريف والمقدمات، الأجدر بنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: «إذا كان هناك أفراد على مستوى عال من الأخلاق، وملتزمين بالقوانين الإجتماعية، إلا أنهم ليست لهم عقائد تعبدية. فإذا لم يكن لهم دين، فهل هم مضرون؟». فإذا قلنا نعم، ظهرت جليا ضرورة العرفان.

لقد قلنا بأنه إذا كان هناك عنصر اجتماعي طيب، وحسن السلوك ومطيع، وهو مورد ثقة، ولا يصل ضرره لأحد، ويساعد الآخرين قدر استطاعته، فإذا كان هذا الشخص غير عارف أو غير متدين، فهل يكون مضرا؟

فمن الواضح أن الذين نخاطبهم في تعاليمنا العرفانية ليسوا أفرادا غافلين، وجهلة ومعتدين وآثمين. فالعرفان أعلى من العلم، يعني أعلى من المعرفة المتعارف عليها. فالذين نخاطبهم في أكثر الأحيان أفراد متعلمون وأذكياء ومطلعون، فإذا كانت لهم خصائص اجتماعية وأخلاقية عالية وسألونا: «لماذا نتعلم تعاليمكم العرفانية؟ هل نفتقد الخصائص الإجتماعية والأخلاقية العالية؟» فماذا يكون جوابنا؟ للإجابة على هؤلاء، ندخل في الموضوع مباشرة.

يقولون العاقل من جلب لنفسه المنفعة، ودفع عن نفسه المضرة، والغافل والجاهل يكون على عكس ذلك، أو أنه لا يستطيع أن يميز ما ينفعه عما يضره.

ومن ناحية أخرى، نحتاج إلى معيار ثابت وغير متغير للتفهيم والتفاهم، وللحكم على الأمور، والتمييز بين الصواب والخطأ، أو بعبارة أخرى، لتمييز منفعتنا ومنفعة المجتمع عن مضرتنا ومضرة المجتمع. فمثلا لو لم يكن عندنا معيار للوزن[١] وقياس المسافة[٢] وقياس الزمان[٣]، المعيار الذي لا يتغير مع تغييرات الزمان والمكان والعوامل الجغرافية، لما استطعنا إيجاد علاقات عادية مع الناس، لا فرديا ولا اجتماعيا، ولا سياسيا ولا اقتصاديا. لهذا السبب **يكون ضروريا أن يكون لدينا معيار ثابت لا يتغير لقياس أي شيء**. ولكي نستمر في الموضوع، لا بد من تعريف الحقيقة.

يقول الفيلسوف: «الحقيقة هي استقرار الشيء في مكانه». أما أنا فأقول: «كل شيء موجود وثابت فهو الحقيقة[٤]». فكل ما لا يوجد ليس بحقيقة، وكل ما يوجد ولكنه غير ثابت ليس بحقيقة. فجسم الإنسان موجود ولكنه متغير. والفصول تغير وجه الطبيعة. والعشق والمحبة تستقر في النفوس، ولكنها أحيانا تتحول إلى العداوة والأحقاد. والنجوم زاهرة

---

(١) فمثلا لو لم يكن عندنا معيار للوزن مثل الكيلوغرام وغيره، فكيف تكون علاقاتنا مع الناس؟؟؟

(٢) وإذا لم يكن عندنا معيار للمسافة مثل الكيلومتر، فكيف تكون علاقاتنا مع الناس؟؟؟

(٣) والأهم من كل ذلك إذا لم يكن عندنا معيار للزمان مثل الساعة والدقيقة والثانية وغيرها، فكيف تكون علاقاتنا مع الناس؟؟؟

(٤) فانشد يا عزيزي وجدانيا لا ذهنيا ما هو موجود وثابت في وجودك، وابحث عنه وفتش عنه، بالتركيز والإستقرار في قلبك، في النقطة النورانية من قلبك، في استمرارية وثبات، حتى تجد الحقيقة شهوديا.

في السماء كأنها خالدة، ولكنها أيضا مصيرها إلى الأفول، وهي غير ثابتة. وإجمالا كل شيء نراه موجود ولكنه غير ثابت. وهناك أشياء كثيرة موجودة لا نراها وهي غير ثابتة. وهلم جرا إلى أن نصل إلى أمر الله وحكمه القاطع بأن كل شيء فان إلا اللطيفة الرحمانية الخالدة، التي يسميها كل منا (أنا) في ذاته»[١].

(أنا) ثابت ولا يتغير وغير مقيد، لا يترك الزمان والمكان فيه أثرا، وكل نفس تعرفه إجمالا، وأيضا تعرف آثاره. فشخصية كل أحد منا تعتمد على (أنا)، وعندما تنفذ معرفته في التفاصيل، تكون النفس قد وجدت ذاتها، وخرجت من محيط الموت. فأحكامها في كل شيء ستكون قاطعة، ولا تحمل الخطأ.

هذا هو المعيار الثابت الذي لا يتغير، والذي يحمله كل واحد منا في وجدانه. ولهذا قلنا في بداية الكلام «إذا كانت المعرفة على أساس الوجدانيات فهي ما نسميها العرفان العملي». والوجدان نستعمله بمعنى (أنا) الذي هو جزء من الحقيقة، ولا يمكن معرفته إلا بالحقيقة[٢]. فالعرفان الحقيقي لا يحصل للمرء إلا عن هذا الطريق. وهو نفس المعنى الذي قاله الحق في الحديث القدسي: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري».

---

(١) عندما يقول السالك «يجب أن أملك أفكاري، لا أن تملكني أفكاري»، فهو (أنا) الذي يتكلم، ويقول ذلك بكل ثبات. وعندما يذكر السالك ربه ذكرا كثيرا ويسبحه بكرة وأصيلا، فهو (أنا) الذي يذكر ويسبح. وإذا عشق السالك ربه، فهو (أنا) الذي عشق ربه. وإذا فني السالك في الله، فهو (أنا) الذي فني في الله. «وإذا تم الفقر فهو الله» كما يقول الرسول ﷺ، فهذا أعلى درجة العرفان. وإذا قال الحلاج: «أنا الحق» فلا غرابة في ذلك، فقد وجد الحقيقة الثابتة، وفني في الحقيقة الثابتة.

(٢) «إلهي عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرفك، إلهي عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرفه قط، إلهي عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني» من دعاء علمه الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه.

والنتيجة الأخرى التي نصل إليها من هذا الكلام، هو أن حصول الدين، على خلاف ما هو شائع بين الناس في الدنيا، ليس بالتدرج، ومن أسفل إلى أعلى، أو بصورة الإستقراء، والوصول من الجزء إلى الكل. بل إن معرفة الدين وحصول العرفان ميسر عن طريق معرفة الله[1] فقط لا غير. وهذه المعرفة هي معرفة النفس[2] بعينها، أو (أنا) الثابت الذي لا يتغير.

(أنا) هو الشعاع الرحماني، وسطوع الروح الإلهي الذي ينفخ في آدم، حتى يهبه الحياة. ونفخ الروح ليس مرة واحدة في بداية الخلقة، بل النفخ يسطع باستمرار، ويهب الحياة للأموات في مقبرة الأبدان، حتى تصبح النفوس قابلة للحياة في ملكوتها، وإلا فالحياة تبقى حياة الخلايا والمعيشة البهيمية الزائلة».

ومقولة الشيخ صادق العنقاء قدس سره بأن الحقيقة لا يمكن معرفتها إلا بالحقيقة صادقة صدق الشمس وضح النهار. أما ترى كيف كان جواب الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه الذي سأله: «كيف أعرف الله؟ وكيف أعرف نبيه؟ وكيف أعرف حجته؟ فلم يقل له الإمام عليه السلام بأن الله هو الله (ألا تعرفه، عجيب جدا أن لا تعرفه)، وأن نبيك هو جدي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأن حجتك هو أنا ـ الواقف أمامك ـ وخمسة من آبائي وأجدادي وهم: علي بن أبي طالب... إلى محمد بن علي الباقر، وستة من أولادي وأحفادي وهم: موسى بن جعفر... إلى محمد بن حسن العسكري!!!

فالعلم بالألفاظ والأسماء هو النوع من العلم الذي نزاوله نحن البشر، ولا علاقة له البتة بنوع العلم الذي يزاوله رجال الله وأولياؤه

(١) كما يقول إمامنا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام: «أول الدين معرفته».
(٢) كما يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

الصالحون. فعلمنا نحن البشر في الألفاظ والأسماء والسطور والكتب والمحاضرات وغيرها - يعني مجموعة من المعلومات المكتوبة أو الشفوية في شكل ألفاظ وعبارات. أما العلم الذي عندهم، ويقتبس منهم مريدوهم، فهو النور الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، أو ما قاله الله جل وعلا في سورة النور: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. فعلمهم في الصدور لا في السطور. أو كما يقول الله جل وعلا في سورة العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ولا يهتدي إليه المرء إلا على مائدة العرفاء وأولياء الله الصالحين - من صدر إلى صدر - في تواضع المريدين، وحاجة المضطرين، وبعد اجتياز الرياضات في السير والسلوك.

فالإمام الصادق سلام الله عليه أمر تلميذه بأن يناجي الله تعالى حين يرخي الليل سدوله، في ذل وخضوع وخشوع، ويسأل الله ويلحف في سؤاله، في جدية المضطر، أن يعرفه بنفسه وبرسوله وبحجته، وعلمه دعائه المعروف: «إلهي عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرفك، إلهي عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرفه قط، إلهي عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن دينك».

أو ما ترى أن الرسول ﷺ يقول: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»؟ فالله سبحانه وتعالى قد نفخ فيك من روحه، وهذا الروح هو فيك، وهو الجزء من الحقيقة الذي يتواجد عندك، والله سبحانه وتعالى هو الحقيقة المطلقة. فمن عرف هذا الجزء من الحقيقة الذي هو فيه، عرف الحقيقة المطلقة.

وهذه المعرفة بالنفس هي في الصميم، لأنك تكتشف المعيار الثابت أو الميزان في وجودك، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. فهذا الميزان لا يضعه الله فيك إلا عندما يرفعك إلى السماء، أي إلى ملكوت الله. فلكل

شيء معيار تقيس به الأشياء، وإلا اختلط الحابل بالنابل، واختلطت العلاقات بين الناس اختلاطا عظيما، تضيع فيها الحقائق. فكما ذكر الشيخ صادق العنقاء قدس سره آنفا في هذا الفصل، لو لم يكن عندنا معيار للوزن وقياس المسافة وقياس الزمان، المعيار الذي لا يتغير مع تغييرات الزمان والمكان والعوامل الجغرافية، لما استطعنا إيجاد علاقات عادية مع الناس، لا فرديا ولا اجتماعيا، ولا سياسيا ولا اقتصاديا. لهذا السبب يكون ضروريا أن **يكون لدينا معيار ثابت لا يتغير لقياس أي شيء.** فلو لم يكن عندك هذا الميزان الملكوتي، لضاعت زينة هذه الدرر عليك كما ضاعت على خالصة[1]، في شعر أبي نواس: -

لقد ضاع شعري على بابكم　　　كما ضاع در على خالصة

لذلك ترى رجال الله، الذين عندهم هذا المعيار الثابت لقياس أي شيء، كلامهم ثابت، وأحكامهم قاطعة، لا تحمل الشك والريب. وبذكرهم بدأ الله تعالى الذكر الحكيم حيث يقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. فهم ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه. وهم ذلك الوجود الذي لا توجد في صفحاته نقطة من الشك والظنون. كلامهم اليقين لا يتزلزل قيد أنملة عن الحق، فهم أطواد اليقين، وعقائدهم كالجبال الراسيات، لا تزلزلهم الأحداث والتقلبات، ولا تهزهم الرياح العاصفات، ولا تزعزعهم عن يقنيهم الفتن الحالكات، ولا يزحزحهم عن رؤية الحق هجوم الظلمات. فكأنهم كما قال سيد العارفين الإمام

(١) خالصة هي جارية من جواري هارون الرشيد قبيحة الشكل دميمة المنظر. فلما رأت شعر أبي نواس على الباب غضبت واشتكته إلى هارون الرشيد. فدعا أبا نواس إلى بلاطه، فجاء ومسح القسم الأسفل من العين في (ضاع). فأصبح الشعر هكذا:

لقد ضاء شعري على بابكم　　　كما ضاء در على خالصة

فلما قرأه هارون الرشيد ارتاح وتنفس الصعداء وقال: «اقتلعت العينان فأضاء الشعر».

علي ﷺ: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا». أما في غيرهم فلا ترى ثباتا ولا يقينا، كلامهم الريب والظنون، لا يكادون يهتدون إلى اليقين سبيلا.

ويرينا السيد حسين العالم قدس سره كيف الوصول إلى هذه المرتبة الشامخة حيث يقول: «فيجب على الإنسان المجاهدة والمناجاة والعبادة، لعل الله يوصله إلى هذه المرتبة، ويجب أن تناجي ربك في ظلمة الليالي قائلا: «يا رب يا رب لا أكاد أنام في ظلمات الليل، وأعشق عبادتك، لأن حبك قد فعل بي هذا، حتى استوحشت من غيرك، واستأنست بك وحدك».

ويرينا الحديث القدسي الطريق إلى اليقين بقوله: «يا أحمد الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين». وما يعنيه الله ﷻ في الحديث القدسي بكلمة (الصوم)، ليس هو الصوم عن الطعام والشراب فحسب، بل هو أيضا صومك عن تيار الطبع الجارف، وصومك عن تدفق الأفكار والخواطر، ومقارعة سلطان النوم، ومختلف الرياضات في السير والسلوك، التي ذكرناها آنفا، والصوم عن الحواس الخمسة ـ كصوم السماع والبصر واللسان وغيرها، والتي شرحناها في فصل (رياضة صوم الحواس والسهر والسهاد).

فإن أنت مارست رياضة صوم الحواس، فكأنك أفرغت جهاز الكمبيوتر من كل البرامج، حتى يصبح الجهاز قابلا لتلقي الآيات والتزكية، والكتاب والحكمة، والفيوضات الربانية، وبرامج الملكوت الأعلى. ففي الصوم يكون (إسقاط الإضافات)، حتى تصبح كيوم ولدتك أمك، فطرة خالصة مخلصة، طاهرة بريئة زكية، كما يقول الله ﷻ في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. والتبديلات البشرية التي تراكمت بعد ذلك على الفطرة هي الإضافات التي يجب إسقاطها. فهي برمجة بشرية محضة، حلوة المذاق ولكنها مضرة. أما الرجوع إلى البرمجة الإلهية فهو مر المذاق ولكنه نافع.

وإن المر حين يسر حلو وإن الحلو حين يضر مر
فخذ مرا تصادف منه نفعا ولا تعدل إلى حلو يضر

ولا تقف ما ليس لك به علم

يقول السيد حسين العالم قدس سره أن هناك موانع لمعرفة النفس ومن ثم معرفة الله والدخول في ملكوته، فذكر الحديث النبوي الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه». فذكر أن الأبوين والمجتمع الذي يولد فيه الشخص يحرمونه من الفطرة السليمة، ويقذفون به إلى طرق غير سليمة. كيف ذلك؟ الواضح أن مخ الطفل له قابلية عظمى للتلقي، فيتلقى من الأبوين والمجتمع قوالب فكرية معينة، تمنعه في المستقبل من توجهه إلى وجدانياته، والإنفتاح على ملكوت السماوات والأرض. وهذا المانع الكبير عبر عنه القرآن الكريم في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ويقول السيد حسين العالم قدس سره أنه تبعا لهذه الموانع يكون هناك فريق ليس لهم علم بالمبدأ أصلا، ولا يؤمنون بالنور الإلهي الذي تنور به الوجود، فهم الذين ليس لهم نصيب غير الكفر. وربما خالطوا المؤمنين في حياتهم، إلا أنه سيجيء يوم يصرخون فيه بسبب فقدان النور في وجودهم، وبسبب غياب نور الإيمان، فيجيء الجواب: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. ويقول قدس سره أن هناك فريقا ثانيا قد آمنوا، وعندهم علم بالنور الحقيقي، ولكن إيمانهم وعلمهم تقليدي.

فمن هم هؤلاء الذين ذكرهم السيد، وكيف تواجدوا بهذه الكثرة في المجتمعات؟

الواضح أن ما ذكرناه من قابليتهم للتلقي في طفولتهم، جعلتهم أرضا خصبة لتلقي التلقينات من المجتمع الذي حواليهم. فكل هؤلاء قد تأثروا بالمجتمع الذي يهيمن عليهم، حيث ابتعدوا عن الفطرة، وتمسكوا بالإضافات التي اكتسبوها من المجتمع.

وتكون التربية إما إلحادية أو دينية. أما التربية الإلحادية فتنتج الفريق الأول، إلا ما ندر، كحالات الأنبياء ﷺ الذين تواجدوا في مثل هذه المجتمعات الظلامية، ولكن فطرتهم الصافية لم تتأثر أصلا بالتربية الظلامية. وأما التربية الدينية، فهي إذا كانت في الإفراط أو التفريط، فتنتج عنها ردود فعل في الطفل ربما وجهته إلى حالات الفريق الأول، أو في أحيان كثيرة توجهه إلى تدين تقليدي على طراز الفريق الثاني. وهناك استثناءات في الناتج، وهم رجال الله الذين يحتفظون بفطرتهم الصافية، رغم ضياعهم الظاهري لفترة مؤقتة. ولسان حالهم يقول ما قاله الكميت: ـ

ولم تلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بنان مخضب

ويدلي شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء قدس سره بدلوه في هذا الموضوع في صفحات ٥٩ إلى ٦٠ من كتاب (السحر) قائلا: ـ

«كل الموجودات في بحث عن العلم، كل نوع حسب أسلوبه. والإنسان بين الموجودات في قمة البحث عن العلم. لا يوجد أحد لا يريد أن يعلم. فتش في أعماق أمنيات كل أحد، ترى بأنه يريد أن يعلم، وأن يزيد علما. إلا أن كثيرا من الناس ضيعوا هدف العلم وجهته، وهو الضلال والضياع بعينه، والذي هو أحيانا بعيد عن العلم الحقيقي بعد المشرقين، إلى حد أنه لا يكفيه عمر نوح ليعلم بأنه ضل عن طريقه. ترى كثيرا من الناس، كل انتخب طريقا يسلكه في تعصب ميؤوس منه، ولا

يباشرون تحقيقاً للإطلاع على ماهية هذا الطريق. تعتمد أصول عقائدهم على التعصب والتقليد الأعمى. وإذا سألته ما هو هذا الطريق ولماذا يسلكه؟ يجيب إن عاجلا أو آجلا، كل حسب اطلاعاته، مثل هذا الجواب: «أما ترى كل هؤلاء الناس سلكوا هذا الطريق؟ أنا لست أعلم منهم»[1].

فالنتيجة أن الشخص نفسه عار عن أي نوع من العلم في الطريق الذي سلكه، كأن الله قد عين رجالا قيمين على مجموعات كبيرة من الناس، وهؤلاء المجموعات لا تجد نفسها مسؤولة أمام الله. في حين أن هذا الطريق مخالف لأمر الله القاطع الذي يقول في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][2]. والحكمة الكامنة في هذا الأمر القاطع واضح جدا. فكلما حسن علمنا وزاد اطلاعنا عن الطريق، سيكون سلوكنا في الطريق أحسن، وسيكون دفاعنا عنه بالإيمان لا بالتعصب. وهذا قانون كلي لا استثناء فيه».

وأضرب مثالا على ما يقوله مولانا الشيخ صادق العنقاء قدس سره حول التربية وهيمنة المجتمع، كيف أن الناس يخدعون فيها، وكيف أنهم يقاومون الحقائق، ولا يقبلون أن يتزحزحوا عن تعصبهم قيد أنملة، بحيث إنك إذا ذكرتهم بحقائق الأمور، فكأنك تنطق بالكفر! فهم يتعصبون إلى حد عجيب للتلقينات التي تلقوها في الطفولة، وهذا يشمل

(١) أو بالتعبير القرآني في سورة الزخرف: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

(٢) وإذا قفيت ما ليس لك به علم، فإنك مسؤول أمام الله، ومن أولئك الذين يقول الله في حقهم: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. أما يقشعر جلدك لتفهم أنك منهم، وماذا تكون حالتك يوم القيامة عندما تسمع هذا النداء مجلجلا في ساحة الحشر يوم القيامة.

المتعلمين، أو المثقفين ثقافة عالية، أو غير المتعلمين.

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «لقد خدع أكثر الناس ولا زالوا يخدعون إلى الآن، بأن المراد من التفقه في الدين، هو تعلم مسائل الدين من قبيل باب التجارة والهبة والرهن وغيرها، فيبقون حيارى عندما يرون بأن هذه العلوم لا تؤدي إلى المعرفة الإلهية، ولا توصل إلى مقام حق اليقين». ويقول قدس سره بأن الآية واضحة في هذا المعنى. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فإن المقصود هو التفقه في الدين، **والمعرفة بأصول الدين، وحصول الإيمان بالله**، والغاية من ذلك التفقه هو الوعظ والنصيحة والإنذار.

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «وانظروا ماذا يفهم أرباب الدين من معنى التفقه ـ ماذا يقول الكشاف وماذا يقول البيضاوي وماذا يقول الغزالي وماذا يقول الشيخ البهائي وماذا يقول ملا صدرا، يعني الذين يفهمون في الدين، ماذا فهموا من الأحاديث، وكيف توصلوا إلى معنى التفقه؟ فالمراد من التفقه في هذه الآية الكريمة، هو أن ينفر من كل فرقة منهم **طائفة من السالكين إلى الله، الذين يقتدون بالأنبياء والأولياء** ﷺ**، ليكملوا نفوسهم أولا، ويجدوا ويجتهدوا في طلب القرب الإلهي**، ثم بعد ذلك يستعدوا لإنذار الناس. أو بعبارة أخرى، يجب عليهم أن يتعمقوا في معارف أصول الدين، ويحصلوا الفقه حسب الحاجة، لا أن يكون المراد من التفقه مسائل الحيض والنفاس وغيرها، **بل المراد منه هو العلوم التي تجعل من الإنسان مجردا مما سوى الله، وتوصله إلى مقام القرب الإلهي**».

ويستطرد السيد حسين العالم قدس سره قائلا: «وخير الكلام في هذا المجال، ما ذكره الشيخ البهائي (ره) في كتابه (الأربعين) في شرح قول الرسول الأعظم ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثا يحتاجون

إليه في أمر دينهم بعثه الله ﷺ يوم القيامة فقيها عالما». فليس المراد بالفقه علم الأحكام الشرعية الفقهية، والأدلة التفصيلية المربوطة بذلك، لأن هذا المعنى مستحدث، بل المراد من الفقه البصيرة في أمر الدين، وفي أكثر الأحاديث النبوية ذكر الفقه بهذا المعنى، والفقيه هو صاحب هذه البصيرة. وإلى هذا المعنى أشار الرسول الأعظم ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا».

ويقول السيد حسين العالم قدس سره في مكان آخر: «وقال بعض الأعلام (والمراد هو الغزالي) صاحب كتاب الإحياء، بأن علم الفقه في العصر الأول كان يطلق على علم الآخرة، وعلى معرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وعلى قوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة الإطلاع على نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. وإلى هذه المعاني تشير الآية الكريمة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ...﴾ [التوبة: ١٢٢]إلى آخر الآية. فالفقه هو هذه المعاني التي توجب الإنذار والتخويف، وليس الفقه هو تعريفات الطلاق والرهن والإجارة وغيرها، لأنها لا توجب الإنذار والتخويف، بل بالعكس فإن التفرغ لها على الدوام، يقسي القلب وينزع الخشية. فالواضح أن الإنذار والتخويف لا يترتب إلا على هذه المعارف التي سبق ذكرها، لا المعارف التي يذكرونها من معرفة فروع الطلاق وغيرها».

ويستطرد السيد حسين العالم قدس سره قائلا: «**فالتوجه إلى المعارف الإلهية، هو التفقه في الدين، الذي يسوق الإنسان سوقا إلى عبادة الله، وإلى معرفة مقام الأنبياء**».

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

ويذكر السيد حسين العالم قدس سره الحديث النبوي الشريف: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»، أي لشاهدوا حقائق ملكوتها.

والواضح أن الذين يشاهدون حقائق ملكوت الله، مطمئنة قلوبهم بهذه المشاهدات، أما هناك موانع أو الشياطين الذين يحومون على قلوب بني آدم، والذين يحرمونهم على الدوام من السعادة والإستقرار والطمأنينة. فما هي هذه الموانع؟

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «والموانع من الوصول إلى هذه المرتبة، هي عبارة عن التعينات الإنسانية، والإشتغال بأمور يكون غير الله فيها ملحوظا. وبعبارة مختصرة، فإن التوغل في أمور الدنيا وعالم الشهوة، يستلزم المحرومية من الفيوضات الإلهية، والإدبار عن الحق تعالى. وهذا الأمر يتوقف على الإنسان نفسه: هل يدع القوة العاقلة أن تكون تابعة للشهوات والقوة الغضبية، أم يصرفها في التوغل في الأمور الإلهية، وهل يدع الأوهام والقوى الأخرى أن تخرج عن هيمنة القوة العاقلة، وهل يخرج الوساوس الشيطانية من رأسه؟»

ويقول قدس سره في مكان آخر من المجلس الواحد والعشرين: «وإذا لم تكن هناك كدورات المعاصي، وصدأ العلائق الدنيوية، لكان كل نفس إنسانية قابلة لتجلي النور الإلهي، **ولكن المعاصي والعلائق**

الدنيوية هي التي تمنع الإنسان من أن ينخلع عن حضيض شقاوة البعد، ويرتفع إلى أوج سعادة القرب».

وإذا أردت أن تعرف ما هي المعاصي، التي تكلم عنها السيد حسين العالم قدس سره، والتي هي من الموانع في طريق النفس المطمئنة، وفي طريق سعادة القرب والزلفى إلى الله، فاعلم أن المعاصي، بمفهومها الحقيقي، هي أن تقف أنانيتك، ويقف جهلك وحبك لنفسك سدا أمام تفهمك لواقعيات الأمور، وهي أنك وكل ما تملكه هو لله وليس لك. ولأنها أمانة الله فيجب أن لا تتعلق بها قلبيا، وأن تصرفها كما أمرك الله بها. فمثلا بعض ما تملكه هو الغريزة الجنسية وهبك الله إياها لأغراض خاصة، فإن أنت تجاوزت الحدود فأنت العاصي.

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقا عن غرة زلجا

ويجب أن تفهم أن الغرائز التي أودعها الله فيك تهتم بنفسها للحصول على بغيتها بقدر الكفاف في الإطار الشرعي، ولا يجوز أن تكون نصب عينيك وموضع اهتمامك، ولا يجوز السعي ورائها لأجل اللذة. فكما أن غريزة الجوع مثلا تنادي بأعلى صوتها «أريد الطعام»، ثم تحصل على بغيتها بقدر الكفاف فتشبع، من دون أن تحتاج إلى الركض والسعي لإيجاد الجوع، كذلك الغريزة الجنسية لا يجوز تهييجها والسعي ورائها، لأنها تطلب الكفاف كما في الجوع، وتجد بغيتها في الإطار الشرعي. أما إذا كانت هذه الأشياء دوما نصب عينيك وموضع اهتمامك، وتأكل من أجل اللذة، وتطلب الجنس من أجل اللذة، فهذا هو البطر بعينه الذي يهوي بك إلى وادي الهلاك، ويستبقيك في حضيض شقاوة البعد عن الله. فالأنام فرائس الأيام! والدنيا لا يدوم نعيمها، ومتقلبة أحوالها، متوقعة أهوالها. فانظر إلى ابنة النعمان بن المنذر ماذا تقول حينما أتي بها مسبية أمام سعد بن أبي وقاص: ـ

وبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلب أحوالا بنا وتصرف

وبعض ما تملكه هو العينان والأذنان والأنف والفم واللسان والقلب وغيرها، وهبك الله إياها لأغراض خاصة. فإن أنت نظرت إلى الحرام لتهيج به غريزتك الجنسية فأنت العاصي. وإن أنت استمعت إلى اللغو والغيبة لترضي بها أحقادك التي تسود قلبك فأنت العاصي، أو إلى الغناء والطرب لتهيج به غريزتك الجنسية فأنت العاصي. فكما يقول الشاعر (والأذن تعشق قبل العين أحيانا). وإن أنت شممت رائحة خاصة أو استعملت رائحة خاصة لغرض التهييج فأنت العاصي. وإن أنت صرفت لسانك في اللغو والغيبة فأنت العاصي.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا   وتأتيك بالأخبار ما لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبح له   بسر ولم تنفض له ظهر مزود

ففي حديث نبوي شريف تظهر لك أهمية اللسان. يقول ﷺ: «لولا لغو في لسانكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع». ولهذا فإنه من الأهمية بمكان، ان تصرف اللسان في ذكر الله على الدوام، حتى تبتعد تدريجيا عن اللغو والمعاصي. ولقد فضل الله الذكر على الصلاة حيث يقول في سورة العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أما قلبك فهو أكبر هبات الله، فاحفظه عن التمريج والتبعثر، وعليك التمرن على الجمع على النقطة النورانية في قلبك، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، فإن قلبك هو نافذتك على الملأ الأعلى. أو ما تريد أن ترى ما يراه الرسول ﷺ وأن تسمع ما يسمعه الرسول ﷺ؟

وأعلم علما ليس بالظن أنه   إذا الله سن﴾ عقد شيء تيسرا

ويدلي شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء

قدس سره بدلوه في صفحات ٦١ إلى ٦٢ من كتاب (السحر) قائلا: ـ

«إن التحقيق في أي أمر هدفه استحصال الفوائد من ذلك، ولحصول الطمأنينة في آخر المطاف. فالناس في كل مرتبة ومقام يهدفون إلى حصول الطمأنينة من وراء المجهودات التي يبذلونها، سواء كانت من ناحية الكم والحس[1]، أو من ناحية الكيف ونشدان الروحانيات[2]. فإذا كان كل إنسان يسلك طريقا لحصوله على الطمأنينة، فهل يكون انتخابه لطريقه يغنيه عن التحقيق في ذلك الطريق؟ فمثلا هل كل إنسان الذي زرع جيدا، وحصد جيدا، وأكل جيدا، يكون قد حصل على الطمأنينة؟ نرى أن ذلك الإنسان لا زال يبذل مجهوداته، سواء كان يملك أو لا يملك، فكلاهما لا زالا في سعي حثيث. فالذي لا يملك يفكر بأنه يكفيه لو حصل على مقدار معين من ذلك الشيء، أو إذا حصل على مقام إداري أو علمي. ولكن الذي في ذلك المقام لا زال يبذل مجهودات، وكل يختلق قصصا تبرر سعيه الحثيث. ولكننا إذا دققنا في الأمر نجد أن هدف الكل هو الطمأنينة الحقيقية، والتي يعكر صفوها صوت خطوات الموت الذي يقترب أكثر فأكثر. وهذا هو السبب في أن الإنسان لا يحصل على السعادة والطمأنينة رغم ثروته وغناه المادي».

---

(١) السعي وراء متاع الدنيا.

(٢) بالمعالجات النفسية المختلفة، والتأمل والتفكر، والالتزام بالأحكام الدينية، والخشوع والخضوع أمام الله، والتبرك بذكر الأنبياء والأئمة عليهم السلام وسماع أقوالهم.

الزهد هو أن لا يملكك شيء

وأما معصيتك في الثروة التي وهبك الله إياها، فاعلم بأنك تصرف أمانة الله في غير محلها. فاحفظها ولا تصرفها إلا كما أمرت. يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]. ولقد نهى الله تعالى عن تكديس الثروة وأمر بصرفها للمستحقين من عباد الله، وعلى الأخص لذوي القربى. وحسبك من غنى شبع وري، كما يقول امرىء القيس. ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: «يابن آدم! المال مالي وأنت عبدي! وما لك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأبقيت، وما ذخرت فحظك منه المقت»!!! ويقول الأعشى: -

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد

وإذا أردت أن تعرف ما هي العلائق الدنيوية، التي تكلم عنها السيد حسين العالم قدس سره، والتي هي من الموانع في طريق النفس المطمئنة، وفي طريق سعادة القرب والزلفى إلى الله، فاعلم بأن العلائق الدنيوية هي علاقتك القلبية بالدنيا، وأن التحرر من العلائق الدنيوية، هو أن تتحرر من علاقتك القلبية بالمتاع، لا التحرر من المتاع نفسه. بمعنى لا بأس أن تملك كل شيء، ولكن حذار أن يملكك شيء. فبإمكانك أن تملك كل شيء ولا يملكك شيء، وهو الزهد الحقيقي بعينه، كما يقول إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين وسيد العارفين علي عليه السلام. أي أن تستبقي

المتاع في الدنيا، ولكن لا تتعلق به قلبيا، **بمعنى أن تكون سيد الدنيا والمتاع، لا عبد الدنيا والمتاع.**

والخطأ الحقيقي الذي يعيش فيه أكثرية الناس، هو أنهم يخلطون بين الإمتلاك وبين العلاقة بما تملك. فمعيارهم ومسطرتهم أنه إذا كان أحد يملك قصرا مثلا فلا يمكن أن يكون عارفا. ولا أعرف كيف يكون حكمهم على النبي سليمان ﷺ الذي كان يملك القصور وزبرج الدنيا وزينتها! وكذلك ما يفكر به أنصاف العلماء وأتباعهم حينما يتهجمون على الصوفية ويقولون إنهم زهاد لا يملكون شيءا، وهذا الأمر بعقيدتهم هو على خلاف الدين. فإنهم لا يفهمون أن الزهد هو أن تملك كل شيء ولا يملكك شيء. ولا أعرف كيف يكون حكمهم على النبي عيسى ﷺ، الذي لم يكن يملك شيءا من متاع الدنيا! هل كان يعيش على خلاف الدين والعياذ بالله!!!

فاخرج يا عزيزي من هذا الخطأ الأساسي، وليكن جهادك الأكبر هو الخروج من عبودية المتاع والدنيا، والتحرر من علائقك القلبية بالمتاع والدنيا، وأن تتحرر من علاقتك بالشيء الذي تملكه، في حين أنك تستبقي ذلك الشيء الذي تملكه ولا تبذره ولا تفرط فيه، بل تحافظ عليه أكثر، لأنه أمانة الله عندك. فاعرف أنك لا تحمل ما تملكه إلى قبرك، **بل هو أمانة الله عندك ليمتحنك كيف يكون نظرك على الأمانات.** إن تعلق بها قلبك وحسبت أنها لك وتصرفت كما أنها لك، فذلك هو الخسران المبين. أما إذا حفظتها لأنها أمانة الله عندك، وحصل لك اليقين بذلك، فذلك هو التحرر من العلائق الدنيوية.

واعلم يا عزيزي أن ميزان الأمور هو قربك إلى الله أو بعدك عنه. فإن أفاض الله عليك قربه وزلفاه، فأنت متحرر من المعاصي والعلائق الدنيوية. أما الحذار الحذار من أن تنزلق وتخرج عن حدود الله في عمل ما، إلا ما اضطررت إليه، بشرط أن لا تتعلق قلبيا بغير الله. والحذار

الحذار من التوجه القلبي إلى الأغيار، وأن تتعلق قلبيا بغير الله! فوالله الذي لا إله غيره لو أن قلبك يكون وعاء خالصا لله، تكون شهوتك لله وغضبك لله وأفكارك وأوهامك لله، بل كل حركة وسكنة منك لله.

أما المشكلة الكبيرة المترسخة في عقول الناس هي أن عيونهم لا ترى إلا الظاهر، وأنهم فقدوا هذا الميزان ليروا بعد الرجل عن الله أو قربه إلى الله. فعلى طريق المثال، يرون عمر بن سعد (قاتل الحسين عليه السلام) مثلا يصلي ويعظ الناس، ويرون الحسين عليه السلام يصلي ويعظ الناس أيضا في نفس اللباس، فلا يرون الفرق، فينزلون تحت قيادة عمر بن سعد، ويحسبون الحسين عليه السلام باغيا وخارجا على ولي الأمر. وهذه المشكلة الكبرى لا تزال حية في الناس وإلى قيام الساعة، يحكمون على الناس بظاهر أمورهم كاللباس واللحية وغيرها، ولا يملكون الميزان! فترى الناس منقادين وراء الأدعياء، ولا يعيرون الراسخين في العلم أي أهمية، لأنهم لا يملكون الميزان!

يقول علي عليه السلام: «الناس ثلاثة عالم ومتعلم وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح». وما أصدق الحديث في يومنا هذا أيضا حيث الناس همج رعاع أتباع كل ناعق، ومثل النعامة لا طير ولا جمل، ومثل ابنة الجبل مهما يقل تقل. فمن كان يملك وسائل الإعلام الغالبة عليها النفس الأمارة، التي تستغل فيها القوة الحيوانية القوة العاقلة لأغراضها الخاصة، تنقاد الناس ورائهم ويكونون لهم أتباعا، يميلون مع كل ريح تدير دفتها وسائل الإعلام، إما بالراديو أو التلفزيون أو المنابر وغيرها، لأنهم لا يملكون الميزان!!!

وأسهل طريقة لرؤية الميزان، بالعين المجردة، هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله: «أبغض العباد إلى الله من كان ثوباه خيرا من عمله: أن تكون ثيابه ثياب الأنبياء وعمله عمل الجبارين». وحكى الله عن يحيى عليه السلام في سورة مريم: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا

عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٣ ـ ١٤]. أو ما ترى عيسى عليه السلام، وهو رضيع في المهد، يقول: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. أليس من السهل على العين المجردة أن ترى أثواب الأنبياء، ثم ترى العمل هل هو الفقر والتواضع، أم العجب والتجبر والتكبر والسخرية والإستهزاء وغيرها، التي هي من أعمال الجبارين!!!

ولقد سهل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علينا مسألة الميزان، لكي نرى من هم أهل الدنيا وأهل حب الجاه والشهرة، ومن هم أهل الآخرة الذين يقول الله تعالى فيهم في سورة القصص: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فقال صلى الله عليه وآله وسلم قولته المعروفة: «كفى بالمرء إثما أن يشار إليه بالأصابع، إن كان خيرا فهي مزلة، إلا من رحم الله تعالى، وإن كان شرا فهو شر». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء».

موتوا قبل أن تموتوا

ويستطرد شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء قدس سره في صفحات ٦٢ إلى ٦٣ من كتاب (السحر) قائلا: ـ

(يقولون بأن السبب الأصلي لخوف الطفل من الظلام، هو وجود المجهولات في الظلام. لهذا السبب يجب علينا أن ننور الظلمات. لا مناص من الموت، يعني تلك الحقيقة الفريدة من نوعها. لهذا يجب معرفة الموت، حتى نكون بهذه المعرفة قادرين على الحصول على السعادة والطمأنينة. لهذا السبب نرى كثيرين من رجال التاريخ الأبطال لم يحملوا ذرة من الخوف من الموت. لماذا؟

لو دققت في هذا الأمر لعلمت بأنهم عرفوا الموت، وعرفوا بأن الموت ليس هو نهاية الطريق. ولكن المهم هو أنهم عرفوا الموت[1]، لا

---

(١) المعرفة الوجدانية بالموت هي المعرفة الحقيقية بالموت، كما أمرنا رسول الله ﷺ بقوله: «موتوا قبل أن تموتوا». أما المعرفة النقلية أو الذهنية عن الموت التي هي عند الناس، فهي ليست حقيقية. فأمر رسول الله ﷺ لنا بالموت، هو الموت الوجداني، لا الموت الذهني الفكري، الذي هو أن تتصور الموت بالفكر والذهن. أما الموت الوجداني العرفاني فهو أن تعطل نشاطك الدماغي، وأن تجمع أفكارك، وتوقف تفكيرك، وأن تعطل ذهنياتك، وتوقفها عن العمل. فالأفكار والذهنيات هي السد أمام الجمع الوجداني، وأمام التركيز في النقطة النورانية في القلب. فالموت هو الموت عن الدنيا، يعني الموت عن أفكارك وذهنياتك المبعثرة، والتي هي غذاء دنياك. علما بأن الأفكار هي استمرارية=

أنهم قرأوا عنه أو سمعوا به، وهذا هو المهم في الأمر.

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ولأن البشر بطبيعته في بحث للحصول على البقاء، فهو بمجرد كشفه لهذه الحقيقة، يتحرر من كل هذه المخاوف. لهذا السبب تعالوا معنا نعلن القانون في كلمتين موجزتين: -

هدف السعي والمجاهدات البشرية هو السعادة والبقاء. (السعادة والبقاء هو اسم ثان للكتاب الذي كتبه الشيخ صادق العنقاء، ونشر في عام ١٩٧٣ تحت عنوان «سر الإنسانية»).

(لهذا فالسعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان، اللذان يضمان كل السعي البشري من الطفولة إلى الموت.

والآن وقد عرفت ماذا تبحث عنه في الحقيقة، تعال نكتشف ما هو الشيء الذي يوصلنا إلى هذه الأهداف).

ولمعرفة الموت لغرض التغلب على الموت نهائيا، وحصول البقاء والسعادة والطمأنينة (التي تكلم عنها شيخي صادق العنقاء قدس سره)، أمرنا رسول الله ﷺ بالموت قبل الموت حيث يقول ﷺ: «موتوا قبل أن

= مشاغلك الدنيوية. فالمشغلة الدنيوية مستمرة حتى بعد المشغلة الدنيوية، وذلك في أفكارك تحملها معك مع الأسف الشديد. فإذا فرغت من مشغلة ما، فالحذار الحذار أن تحملها معك في أفكارك في أوقات الفراغ. فأوقات الفراغ تستحق منك الجهاد الأكبر والرغبة في الله. يقول الله تعالى في سورة الإنشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨]. ولقد سمعت مولاي صادق العنقاء مرة يقول: (الحمار الذي ركبته في النهار ضعه في إسطبله بعد الإستفادة منه، ولا تحمله معك إلى محراب صلاتك). يعني بذلك أن لا تحمل أفكار الحمار وهمومه معك بعد الإستفادة منه، أي توقف عن التفكير فيه حالما فرغت منه، ولا تحمل أفكار حمارك بعد ذلك. أليس الأجدى أن تستغرق في الله، وأن تنجذب فيه، بدل التفكير في الحمار؟؟؟

تموتوا». فما هو الموت؟ يقول الشاعر: ـ

سبيل الموت غاية كل حي ... وداعيه لأهل الأرض داعي

ويقول الأخفش: ـ

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

الموت هو الإنتقال من نشأة إلى نشأة، من نشأة أعطيت فيها الأدوات لإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيوية، (وهي نشأة المشاغل)، إلى نشأة سلبت فيها من هذه الأدوات، (وهي نشأة الحالة الصرفة)، حيث فيها حصاد ما اكتسبته في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر! فهي نشأة الأحوال لا الأعمال.

أما الروح الذي هو أنت، فهو باق في النشأتين. فإن كان روحك في جوار الله، في هذه النشأة، وفي أوج سعادة القرب، فهو في جوار الله، وفي أوج سعادة القرب والزلفى، أضعافا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو النعيم المقيم!

وإن كان روحك في حضيض شقاوة البعد عن الله، في هذه النشأة، فهو في حضيض شقاوة البعد عن الله، أضعافا مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو العذاب الأليم!

ولماذا يتضاعف أضعافا مضاعفة؟ لأن الأدوات التي أعطيتها في النشأة الدنيا، وهو عالم المشاغل، تشغلك عن العذاب بإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيوية. فأنت مشغول فيها بالتمتعات الجنسية، وتمتعات الطعام والشراب، وتمتعات لغو اللسان والكلام الهراء، وتمتعات الإستماع إلى اللغو والكلام الهراء، وتمتعات امتلاك متاع الدنيا وزبرجها وزينتها، وتمتعات الجاه والمقام والعلو في الأرض وغيرها.

فإذا فهمت هذا، سهل عليك فهم المعنى والمقصود من كلام

أفضل الرسل وأعلاهم محمد ﷺ في حديثه الشريف: «موتوا قبل أن تموتوا». وهذا الحديث له دور كبير في التربية العرفانية، حيث يتعرض السالكون لهذا الموت قبل الموت. كيف؟؟؟

عن طريق الرياضات والجهاد الأكبر، حيث يتعرض السالكون في التربية العرفانية إلى رياضات وتمرينات للتحرر من رغباتهم الدنيوية والعلائق النفسية بمتاع الدنيا وزبرجها وزينتها، أي إلغاء دور الأدوات في نشأة الدنيا، التي هي نشأة المشاغل. فيكون السالك ظاهريا يؤدي دوره في الحياة الدنيا، ويتمتع بالملذات التي أنعمها الله عليه، إلا أنه في حقيقة الأمر مع الله ليل نهار، يشكره على نعمائه بكل جوارحه وملايين الملايين من خلاياه وأعصابه وغيرها، بل بكل وجوده وروحه الذي بين جنبيه. فيكون متحررا من رغباته وعلائقه الدنيوية، ويكون مع الله وفي جوار الله، وحاله في خدمة الله سرمدا، وهذا هو الموت قبل الموت!

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه　　　إذا قدر الرحمن شيءا فكائن

أو لا يستحق التجربة ولو مرة واحدة في مقابل الحصول على الفلاح والنعيم المقيم؟ فإن أنت لم تفعل ذلك، تكون في النشأة الأخرى في العذاب الأليم. لماذا؟ لأنك هناك مليء بالرغبات الدنيوية، والعلائق بمتاع الدنيا وزبرجها وزينتها، ولكنك مجرد من الأدوات لإرضاء رغباتك الدنيوية وعلائقك السفلية. أليس هذا عذابا؟ أن تريد شيءا وهو أمامك ولا تستطيع الحصول عليه؟ ليس يوما أو يومين، بل أنت مخلد في هذه الحالة الصعبة أبد الآبدين. لماذا؟ لأنك أنت نفسك وبأياديك اقترفت جريمة الظلم في حق نفسك!!! يقول المتنبي: ـ

ربان لو قذف الذي أسقيته　　　لجرى من المهجات بحر مزبد

ولات حين مناص! وأنى للندامة أن تنفع! وهل يغني من الحدثان ليت!!!

فإن أنت فعلت كما أقول لك، وصلت إلى ما ذكره السيد حسين العالم قدس سره من مرتبة حق اليقين الشامخة حيث يقول: «مرتبة حق اليقين هي عبارة عن وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بمعنى أن الإنسان، بعد سلسلة من الرياضات، يصل إلى مقام تكون فيه نفسه منزهة عن كل الأوساخ والكثافات، وتصبح كالمرآة الصافية التي نفض عنها الغبار كليا، بحيث تكون هذه النفس قابلة لتجليات النور الإلهي».

وإن أنت فعلت كما أقول لك تصل إلى ما ذكره السيد حسين العالم قدس سره من مقام الفناء في الله، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ كما في سورة القمر، حيث يقول: «وبعد سلسلة من هذه الرياضات، يصل تدريجيا إلى مقام، إن صرف شهوته فهو لله، وإن غضب فهو لله، وإن جعل أوهامه ترقص فهو لله، يغلق عينيه عما دون الله، وتنفتح بصيرته على الجمال الإلهي والجلال والكبرياء والآلاء، التي تملأ الكون من أقصاه إلى أقصاه. وبالتدريج يصل إلى مقام، يجد فيه نفسه تعينا، فالإنسان في الحقيقة لم يكن شيءا مذكورا ولا يزال، فالملك سواء كان خارجيا (أي في الآفاق وسعة الأكوان) أو داخليا (أي في الأنفس وأعماق مشاهدها) كله لله وحده ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

يلومني العاذل في حبه ... وما درى شعبان أني رجب

وإذا انفتحت بصيرتي على الجمال الإلهي والجلال الكبرياء والآلاء، فهناك لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، فما أعظم وجدي بها!

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا ... سواها ولا في حبها متراخيا

ما هو الوجود الأصيل الذي لا يفنى

ويستطرد شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء قدس سره في صفحات ٦٣ إلى ٦٧ من كتاب (السحر) قائلا: -

«ولشرح الموضوع شرحا كافيا، أجلب انتباهك إلى المواضيع التالية. فمثلا لو حللنا آراء العلماء القيمة في العلوم النظرية أو التجريبية، سنرى أنهم أنفسهم أجروا تغييرات وتعديلات وتصحيحات كثيرة في آثارهم القلمية المتعددة، في طول حياتهم الأدبية أو العلمية. ولو نظرنا إلى سير حياتهم الفردية المدونة في التاريخ، وإلى آثارهم الخارجية، نراهم أشخاصا متغيرين وفاقدي الثبات، أو أنهم إجمالا كانوا في حالة تكاملهم، في طول حياتهم. أما إذا دققنا في مركزية هذه التغييرات التي تتراءى لنا مختلفة، في أزمنة متفاوتة، أو أنها كانت تطوي سيرها التكاملي، يكون مفهوما لنا ببساطة، بأن ذهن الإنسان وذاكرته، في خلال تجسساته ومطالعاته، يبادل في كل لحظة مختصاته الفضائية الزمانية المكانية مع المشخصات الجديدة، في احتكاكه مع الأشياء والمسائل الخارجية.

لذا فإن الناس، في الوهلة الأولى، يخلطون خطأ، إفرازات الذهن والذاكرة في الدرك القياسي للمسائل، بأصل الهوية الثابتة التي هي المحركة والمدبرة لكل هذه التجسسات والفضول البشري. وبالنتيجة فإن الآثار الحاصلة من النشاط الدماغي، قد خلطها البشر خطأ، مع المصدر

الكلي لوجود الإنسان، الذي أسميه «الهوية الثابتة» أو (أنا). فما أسهل الخلط بين الحجر والدرر! وبين الوعود والفقد من ناحية، وذهب النقد من ناحية أخرى!!! ولهذا السبب تبقى الهوية الحقيقية للفرد، في انتخابها ووصولها إلى المسائل الجديدة، والإختراعات العصرية، والإكتشافات العديدة، مخفية ومكنونة وراء المسائل والمظاهر. فلقد تناولت هذه المواضيع في سلسلة مقالات كتاب «المظاهر الفكرية» التي نشرتها في عام ١٩٥٤ حيث أعلنت القانون الآتي: ـ

الوجود الذي لا يتغير، بين زمانين متمايزين، هو الوجود الأصيل الذي لا يفنى

ولأن الهوية الأصيلة ليست في هيئة محدودة، قابلة للرؤية بعين الناظر، فالنتيجة هي أن آثارها الوجودية الملموسة يعتبرها الناس أصيلة. فلنضرب مثلا مبسطا لتقريب المعنى إلى ذهن القارئ. خذ النواة مثلا، فإن كل مختصات الشجرة ومشخصاتها الطبيعية، تكمن في النواة التي لم تزرع بعد، وفي عالمها الحياتي الذي ينطوي فيها. فهي تحمل في طياتها جميع القابليات، وعوامل الرشد والتكثير والشكل، وتناسق الأجهزة الحياتية للشجرة. فهذه النواة الصغيرة وعالمها الحياتي هي هوية الشجرة الثابتة الوجودية. فمن نظر إلى الشجرة وأغصانها، وأوراقها وأثمارها، وطول سيقانها، وضخامة جذعها، فليبحث في هذه النواة (إن استطاع ذلك)، وفي كل جوانب عالمها الحياتي، القدرة الحاكمة في خريطة هذه الشجرة بديعة المنظر، واختصاصاتها المنضبطة. وهذا الأمر البتة ليس من المسائل المحسوسة والملموسة.

فكما ذكرت آنفا، فإن استحصال الأصلين الضروريين، وهما السعادة والبقاء، لا يتخذ صورته التحقيقية والإيمانية إلا في المركزية الثابتة لا غير. فلا يمكن نيل ذلك في الموجودية المتغيرة للذهن

والحواس، التي تتغير وتتلون مرارا وتكرارا في احتكاكها الطبيعي مع المحيط الخارجي المتلون المتغير، وتفاعلاتها وتداخلاتها وانعكاساتها المتغيرة، ومنتجاتها النسبية، التي لا يمكن حتى اكتشاف جزء من الحقيقة فيها. لذا فإنه من الضرورة بمكان، البحث عن المأمن الواقعي لهذه الحقيقة، التي هي هويتك الثابتة، ومعرفته. فإن هذه الهوية الثابتة هي التي تعرض موجوديتها في حشرها ونشرها مع الموجودات الأخرى. لأن مجال عمل هذين الهدفين ـ السعادة والبقاء ـ الذين هما مقيمان وناظران في المناطق المجردة، لا يمكن تحقيقه إلا بالمعيار الذي هو متجانس معهما من نقطة نظر ماهيته ـ يعني بالمعيار المجرد لا غير.

لأن «القواعد التي تتعلق بالعالم المحدود لا تكون ملزمة في العالم اللامتناهي».

فمثلا لو تعلمت منك كلمة، يعني لو أنك علمتني كلمة، وأنني كررت هذه الكلمة آلاف المرات في كل ليلة وضحاها، فهل تكرار هذه الكلمة سيعالج الموت؟ وهل تكرار هذه الكلمة سيوصلني إلى معرفة (أنا)؟ ولو حفظت جميع ما قاله العظماء، وقرأت كلامهم آلاف المرات في كل ليلة وضحاها، هل سأعرف (أنا)؟ وهل مراعاة الرسوم والتقاليد تعالج الموت، وتوصلني إلى السعادة والطمأنينة الواقعية؟ وإذا أديت حركات معينة، هل سأصل بها إلى المعرفة؟ وإذا كنت أملك الطعام ثم لا آكله، هل يوصلني ذلك إلى معرفة الله؟ أو إذا أكلت حتى الشبع، هل يوصلني ذلك إلى معرفة الله؟ أو إذا استعملت الإستدلالات، وأنصتم إليها، هل ستحل لكم هذه المسائل؟ وهلم جرا إلى كثير من هذه الأسئلة... فالواضح أن الجواب هو (لا) لكل هذه الأسئلة».

فما الذي يعنيه مولاي صادق العنقاء؟ إنه يعني نفس الشيء الذي يعنيه الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: «العلم نقطة كثرها الجاهلون». فإذا أردت القدرة الحاكمة في خريطة الشجرة بديعة المنظر، ففتش عنها في

النواة، والتي هي ليست من المسائل المحسوسة والملموسة. وإذا قصدت معرفة النفس، ففتش عنها في الهوية الثابتة، وهي أيضا ليست من المسائل المحسوسة والملموسة. وإن العارف إذا نظر إلى الوجود وإلى نفسه، لم ير غير المبدأ الحقيقي، وغير الوجود الأصيل الذي لا يفنى، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان. فالعارف منزه عن التكاثر، وعلمه في النقطة التي كثرها الجاهلون. فكل من كان خارج نطاق علم العارف، يعتبرها الإمام الباقر ﷺ من الجاهلين، لأنهم ألهاهم التكاثر، ولا يعرفون غير التكاثر شيءا. فاستقص الأمور حتى يتبين لك، فمع المخض يبدو الزبد! أما العارف فعلمه إلهي رباني، وهو علم مختص بالأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين. فلذلك لا يقارن هذا العلم بالعلوم الأخرى، وأين الثرى من الثريا! وأين الحجر من الدرر!!!

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «ولكن فهم هذا المعنى وتصديقه أمر صعب، ويحتاج إلى رياضات شاقة، كي يتأتى للإنسان أن يصل إلى مقام يتنبه فيه إلى هذه الحقيقة. وهنالك لا يرى وجودا لغير الله، لا في نفسه ولا في غيره، ولا يرى مملكة في الوجود لغير الله، وعند ذلك يتوصل إلى حقيقة أنه وغيره من جميع الكائنات ليسوا شيءا، **وأن ما نراه هو تجلي المبدأ الحقيقي، الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان**».

ويذكر في مكان آخر من المجلس الواحد والعشرين: «فأصحاب هذه المعرفة على قسمين: بعضهم لم ينكشف الحجاب كليا عن عيون قلوبهم، ولكنهم شاهدوا هذا النور في مخلوقاته ومعلولاته، لأن المعلول شأن من شؤون العلة، فهم قد توصلوا إلى المؤثر عن طريق الأثر. والبعض الآخر انكشفت الحجب عنهم، **ورأوا الله بعيون قلوبهم، كما**

قال إمامنا علي ﷺ: «لم أعبد ربا لم أره»، وحكمهم كالفراشة تحوم حول الفانوس، ولما تحترق بنوره. فأصحاب هذه المرتبة يسيرون في مقامات القرب والزلفى، وقد انكشفت الحجب عنهم، ولكنهم في جوار النور ولم يفنوا في النور، وقد انقطعت تعلقاتهم عن غيره، وملوا من الألوان وعشقوا صبغة الله، فالعاشق مبرأ من الألوان، وهو تحت القبة الزرقاء صاحب همة، قد تحرر من كل شيء ينتمي إلى ألوان»[١].

ويذكر السيد حسين العالم قدس سره في مكان آخر من نفس المجلس: «يوجد في هذه الدنيا رجال مجردون من الألوان، يعني من حب الرئاسة في الدنيا[٢]، وقد أزاحوا كل التعينات عن وجودهم، ووصلوا إلى مقام حق اليقين، بسبب الفناء في المبدأ الحقيقي. وعلى رجال الله أن يلتمسوا رجالا من هذا النوع، وأن يجدوا ويجتهدوا حتى يجدوهم، وإذا كنت تطلب السعادة، وقد أحاطت بك الغوغاء من الناس، لا يحبون إلا الدنيا، **فالتمس رجل الله**[٣].

---

(١) أي تحرروا من الألوان والأشكال والتعينات، ومن الدنيا وزبرجها وزينتها ومظاهرها التي تبهر العيون، بمعنى أنهم تجاوزوا الألوان والأشكال والتعينات، ونفذوا بعيون قلوبهم إلى الوجود البحت البسيط، أو الوجود الأحد الصمد، الذي لا وجود لغيره، بمعنى أن لا وجود من حيث الأصالة لغير الله سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

(٣) أتعجب كيف يصل من يصل من دون مصاحبة رجل الله أو الشيخ أو الأستاذ أو ولي من أولياء الله (فالأسماء لا تهم، ولا تؤخر ولا تقدم، ما دمت تفهم المعاني اللطيفة، فإن أنصاف العلماء قد خلقوا حساسية عند الناس ضد بعض الأسماء). أما إذا بقي السالك من دون شيخ، فإن وصوله صعب، وليس بتلك السهولة، فليستمر في السلوك، فلعل الله يفتنه فتونا ويمتحنه ويبلوه بلاء حسنا، فإن السلوك نفسه علامة على أن الله تعالى يحبك. فاستمر بارك الله فيك. يقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وذلك للتأكيد على مصاحبة الولي المرشد أو رجل الله أو الشيخ أو الأستاذ، للخروج من الضلال، والدخول في الهداية.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات. فالواقع لا يمكن نقله بالألفاظ والعبارات، ولا يمكن تفهيمه للآخرين بالألفاظ والعبارات. وكيفياته غير قابلة للإنتقال من شخص إلى آخر. وكل ما هو غير الواقع والحقيقة فهو أوهام.

فأنى لك أن تنقل بالألفاظ والعبارات الطنانة الرنانة واقع العسل مثلا إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع العسل، من مذاق وحلاوة وغلظة وميوعة وغيرها من مختصاته! أما إذا كنت قد ذقت العسل، فما أقوله وأشرحه من أوصافه لا ينقل إليك شيءا البتة، وإنما أحرك بأقوالي ذكرياتك أنت عن تجربتك لا غير! أليس كذلك؟ أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن تجربة تذوق العسل، فما أقوله وأشرحه من أوصافه لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع العسل. وأنى لكيفيات الذي تذوق العسل مثلا وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألف في ذلك آلاف الكتب، وألقى آلاف المحاضرات! أما إذا كنت قد ذقت العسل، فحالاته وكيفياته كمتذوق العسل لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحه لها يحرك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك أنت كمتذوق العسل. فإذا كنت قد ذقت العسل فلا تحتاج البتة إلى الألفاظ والعبارات الطنانة الرنانة لكي تحصل على مذاق العسل.

يقول الله ﷻ في سورة محمد: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وتعرف أن ما في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر! أليس كذلك؟ فأنى لواقع العسل المصفى في الجنة أن ينقل إليك، بحيث تفهم ما هو مذاقه وحلاوته وغيرها من مختصاته! فمثلا لو سمعت آلاف المحاضرات وقرأت آلاف الكتب عن هذا العسل المصفى في الجنة، ماذا يصل إليك؟ وماذا تستفيد من هذه الآلاف من المحاضرات والكتب؟ طبعا لا يصل إليك غير الأوهام، بمعنى ينقل إليك كل شيء غير واقع العسل المصفى في الجنة! أليس كذلك؟ ولا تستفيد من هذه الآلاف من المحاضرات والكتب غير الأوهام! أليس كذلك؟؟؟

وماذا لو جاءك من تذوق العسل المصفى في الجنة، وشرح لك باللغة العربية الفصيحة البليغة كيفياته وحالاته، ومدى سعادته ونشوته وطربه وافتتانه، وانجذابه الروحي وذهوله، واستغراقه في ملذات هذا العسل المصفى! فبالله عليك قل لي هل تنتقل إليك كيفياته وحالاته، ومدى سعادته ونشوته وطربه وافتتانه، وانجذابه الروحي وذهوله، واستغراقه في ملذات هذا العسل المصفى؟ بالطبع لا! أليس كذلك؟ ولو ألف ذلك الولي آلاف الكتب وألقى آلاف المحاضرات في شرح هذا العسل المصفى!!! فمن المحتمل جدا، يكاد أن يكون جزما من اليقين، بأنك ستسخر منه وتستهزىء به، كما فعل الأوائل بأنبيائهم!!!

أما إذا وصلت إلى هذا العسل المصفى وتذوقته، بعد الرياضات العرفانية والمعرفة بالله، ومراحل السير والسلوك المختلفة، واجتياز مراتب الإنسانية على الصراط، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، فطوبى لك! فإنك حينئذ لا تحتاج إلى اللغة العربية الفصيحة البليغة، ولا إلى العبارات الرنانة الطنانة، ولا إلى آلاف الكتب والمحاضرات. فإنك حينئذ في واقع العسل المصفى! كما كان محمد ﷺ وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وسلمان ومقداد وأبو ذر، والخواص من أصحاب النبي ﷺ وعلي عليه السلام، والعرفاء وأولياء الله الصالحون.

وأنى لك أن تنقل واقع الألم والعذاب مثلا ـ من صداع الرأس أو معاناة الإحتراق بالنار ـ إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع الألم والعذاب ومعاناة الإحتراق بالنار! أما إذا كنت قد عانيتها ـ لا سمح الله ـ فما يقوله الراوي ويشرحه من أوصافها لا ينقل إليك شيءا البتة، وإنما يحرك بأقواله ذكرياتك أنت عن تجربتك المريرة لا غير، لأنك اكتويت بنارها! سل عن النار جسم من عاناها! أليس كذلك؟ أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن تجربة آلام الصداع وعذاب معاناة الإحتراق بالنار، فما يقوله الراوي ويشرحه من أوصافها لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع الآلام والعذاب ومعاناة الإكتواء بالنار. وأنى لكيفيات الذي عانى من آلام الصداع وعذاب الإحتراق بالنار وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألف الآلاف من الكتب، وألقى الآلاف من المحاضرات! أما إذا كنت قد عانيت من هذه الآلام المريرة ـ لا سمح الله ـ فكيفيات الراوي وحالاته لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحه لذلك يحرك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك المريرة. وإذا كنت قد عانيت آلام الصداع وعذاب الإكتواء بالنار ـ لا سمح الله ـ فلا تحتاج البتة إلى الألفاظ والعبارات لكي تفهم هذه المعاني المريرة.

يقول الله ﷻ في سورة الواقعة عن أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]. وتعرف أن ما يحصل في نار جهنم لا يمكن للبشر أن يتصوره! أليس كذلك؟ فأنى لواقع السموم والحميم في نار جهنم أن ينقل إليك، بحيث يمكن أن تعرفه كما هو! فمثلا لو سمعت آلاف المحاضرات وقرأت آلاف الكتب عن السموم والحميم في نار جهنم، ماذا يصل إليك؟ طبعا لا يصل إليك غير الأوهام، بمعنى ينقل إليك كل شيء غير واقع السموم والحميم! أليس كذلك؟

وماذا لو جاءك أبو جهل مثلا، وشرح لك باللغة العربية الفصيحة البليغة كيفياته وحالاته، ومدى عذابه في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم! فبالله عليك قل لي هل تنتقل إليك كيفيات أبي جهل وحالاته، ومدى عذابه في نار جهنم؟ بالطبع لا! أليس كذلك؟ ولو ألف الآلاف من الكتب وألقى الآلاف من المحاضرات!!!

وأنى لك أن تنقل واقع السعادة والنفس المطمئنة مثلا إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع السعادة والنفس المطمئنة! أما إذا كنت قد حظيت بنفسك بالسعادة والنفس المطمئنة، فما أقوله وأشرحه من أوصافها لا ينقل إليك شيءا البتة، وإنما أحرك بأقوالي ذكرياتك أنت عن تجربتك لا غير. أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن هذه التجربة الفريدة من نوعها، فما أقوله وأشرحه من أوصافها لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع السعادة والنفس المطمئنة. وأنى لكيفيات صاحب (النفس المطمئنة) وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألف في ذلك آلاف الكتب، وألقى آلاف المحاضرات! أما إذا كنت قد نالك الحظ العظيم من هذه التجربة الفريدة من نوعها، فحالاتي وكيفياتي لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحي لها يحرك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك كصاحب النفس المطمئنة. فإذا كنت قد نلت هذا الحظ العظيم، فلا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات الطنانة لكي تنال ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

وأنى للعاشق الولهان أن ينقل واقع الحب والهيام إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع الحب والعشق. أما إذا كنت قد عشقت واكتويت بناره، فما يقوله العاشق الولهان ويشرحه من أوصاف العشق لا ينقل إليك شيءا البتة، وإنما يحرك بلوعته وشكواه وبأشعاره وغزلياته ذكرياتك أنت عن تجربة العاشقين التي خضتها خوضا لا غير. أما إذا لم تكن

تحمل ذكريات الحب والهيام، فما يقوله ويشرحه العاشق الولهان من أوصاف الحب والهيام لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع العشق. وأنى للعاشق الولهان أن تنتقل كيفياته وأحواله إليك! أليس كذلك؟ فعشقه وهيامه لا ينتقل إليك البتة، وإنما لوعته وشكواه وأشعاره وغزلياته تحرك ذكرياتك أنت عن عشقك وهيامك وولهك. أليس كذلك؟ فإذا كنت قد عشقت واكتويت بناره، فلا تحتاج البتة إلى الغزليات لكي تحصل على الحب. إلا إذا أردت أن تتناغم وتترنح مع العشاق في حديثهم وأشعارهم وغزلياتهم!!!

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر

أو ما يقوله المتنبي مثلا: ـ

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة سترت محاجرها ولم تك برقعا
فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهب بسمطي لؤلؤ قد رصعا

أما أن يدب العشق في دبيبا، ثم أستطيع أن أنقل إليك حالاته وكيفياته وآلامه ومتعه وملذاته، بالكلام واللفظ والعبارة، بحيث إن تصبح عاشقا مثلي، وتدب فيك حالات العاشق الولهان وكيفياته وآلامه ومتعه وملذاته، فإن ذلك من المستحيلات، كمن يبتغي الصيد في عرينة الأسد!!!

وبذلك نتوصل إلى القانونين اللذين صاغهما شيخي ومولاي صادق العنقا قدس سره في هاتين العبارتين الموجزتين وهما: (الواقع لا ينقل بالألفاظ) و(الكيفيات غير قابلة للإنتقال).

كذلك الدين لا يحصل لك بالكتب والمحاضرات، ولكنك إذا عرفت الله، فمعرفته أول الدين، كما قال مولانا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام .ومعرفة الله سبحانه وتعالى مسألة وجدانية محضة لا تحصل

لك إلا بالإستقرار في حقيقة وجدانك النورانية.

والسيد حسين العالم قدس سره يتكلم عن النور الحقيقي الذي آمن به رجال الله، **وعلموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن العالم موجود كظاهرة من نور الوجود، وأن كمالات العالم وحركاته وسكناته هي تجليات هذا النور، وأن لا موجود إلا وجود. فكل الكائنات عدميات من حيث الأصالة، وإنما أصالة الوجود هي في النور الإلهي، الذي هو الوجود البحت البسيط. ويقول قدس سره أن رجال الله **علموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن نور الوجود تختفي في مقابله الظلمات، وإذا فاضت إضافته الإشراقية على شيء نورته بنوره، وجعلت منه آية وجودية. وإذا فاضت على قلب عبد، جعلته محوا في جماله، وجعلت صاحب ذلك القلب يتجافى عن غيره. **وعلموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن العالم كله منور بهذا النور الحقيقي، من دون أن ينقص من ذلك النور شيء. وأن العالم كله، في قوس صعوده، فان في ذلك النور الحقيقي، من دون أن يزيد على ذلك النور شيءا.

وإذا أردت أن تفهم ماذا يعني السيد حسين قدس سره بالنور الحقيقي الذي هو كل شيء، ولا وجود لشيء غيره، فأقول لك لا يمكنك أن تفهم ذلك إلا أن تشاهد النور بالكشف والمشاهدة واليقين، وذلك عن طريق العرفان الإسلامي، والإستقرار في حقيقة الوجدان النورانية، تماما كمثال العسل المصفى، والنفس المطمئنة، والألم والعذاب، ونار السموم والحميم، والحب والهيام، الذي ضربته آنفا. أما الظنون الذهنية فهي ضرب من الأوهام لا غير، ولا تمت إلى الحقيقة والواقع بشيء.

ويقول السيد حسين العالم قدس سره في المجلس الواحد والعشرين: ـ

«طوبى للذين وصلوا إلى المقام الثالث، الذين كانوا في جوار النور ردحا من الزمان، إلى أن وصل بهم العشق والهيام، إلى أن التعين الذي عرفوه من أنفسهم ذاب وانصهر، ودخلوا في جذبة الرحمن[١]... والآن جاء وقت الكلام... فعندما يصل العبد إلى هذا المقام، لا يبقى هناك إلا المحبوب الحقيقي، فكما أن الفراشة عندما تحترق بالنار، لا يبقى منها إلا النار، كذلك السالك حينما يفنى في النور، لا تبقى منه إلا النورانية. وعند وصوله إلى هذا المقام، بأي طرف يرنو بنظره لا يرى غير الله، وعند ما ينظر إلى نفسه لا يجد لنفسه أثرا، فتخرج الصيحة منه بلا اختياره «لا اله إلا أنا فاعبدوني»، أو «سبحاني ما أعظم شأني»، أو «ليس في جبتي سوى الله تعالى». لماذا يقول ذلك في حين أنه ليس الله؟ يا عزيزي كلما يرنو بنظره لا يرى نفسه... فهو فاني، فماذا يفعل فإنه لا يرى غير المحبوب. وعندها يتكلم لا بلسانه، بل بلسان الله يتكلم[٢]. أتتعجب من مقالي؟؟؟ في حين أنك تقول إذا حل الشيطان برأس، فإن صاحب ذلك الرأس يتكلم بلسان الشيطان. أليس كذلك؟؟؟ أو تقول إذا شربت قارورة من الخمر، فإن سكر الشراب يظهر منك. أليس كذلك؟؟؟

فيا أيها المسكين أيكون ربك أقل من الشيطان ومن الخمر؟؟؟ فعندما يتجلى نوره في القلب، ويحرق قلب المؤمن ويفنيه، فإن ذلك المؤمن يتكلم باللسان الإلهي. أو أنه إذا نور العارف بنوره، وإذا أسكره

---

(١) كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين».

(٢) وهذا موجود في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته».

بخمر الوحدة[1]، أيمكن أن لا يكون العارف متجليا بالوجود الالهي؟؟؟ فيا عزيزي الحقيقي إذهب والتمسه...

أوما سمعت قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، كيف أن يد النبي ﷺ أصبحت يد الله!!! أو ما سمعت «السلام عليك يا ثار الله»، كيف أن دم الحسين عليه السلام أصبح دم الله تعالى!!!، هل ترى ذلك بعيدا، أن يأخذ بيد أحد محبيه وشيعته، ليوصله إلى الرحمن وإلى الفناء فيه؟»

(١) إنما هي وحدة الوجود حيث لا يبقى إلا «التوحيد». فالتوحيد يتجسد في مقام حق اليقين، بعيدا عن الألفاظ البراقة والعبارات الطنانة، كما يقول إمامنا علي عليه السلام في آخر حديث الشراب: «وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

العرفان الإسلامي هو استقرارك في حقيقة الوجدان النورانية

ويدلي شيخي ومعلمي الرباني العارف الكبير الشيخ صادق العنقاء قدس سره بدلوه في صفحات ٦٧ إلى ٧٣ من كتاب (السحر) قائلا : -

(والعرفان هو المؤهل للرد على هذه الأسئلة. وجواب العرفان ليس بالألفاظ، لأن الألفاظ لا يمكن أن تنقل المعاني. فإذا كنت مثلا عطشانا، ووصفت لك الماء، هل يرويك ذلك؟ والبتة أن الصيغة اللفظية للماء (ميم وألف وهمزة) لا تشبه، بأي حال من الأحوال، الماء الجاري الزلال الذي يرويك. فهذه الحقيقة واضحة وبديهية جدا، بحيث لا يتطرق إليها العرفان.

إن مجال العرفان العملي هو معرفة الحقيقة والواقع الذي هو الدين[١] بعينه. والمعرفة الحقيقية تحصل لك عندما تجد في حقيقة (أنا) الأجوبة على كل هذه الأسئلة.

يقول العرفان بأن الأدوات[٢] ليست هي (أنا) الذي هو الهوية

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ٦].

(٢) الجوارح والخلايا وكل شيئ آخر في بدن الإنسان أدوات، ما عدا هويتك الثابتة. فالعين مثلا أداة للرؤية ولكنه ليس (أنا). كذلك الأذن هي أداة للسماع، واللسان أداة للكلام والتذوق، والأرجل أدوات للمشي، واليدان أدوات للبطش، وخلايا =

الثابتة. فالأدوات شيء والهوية الثابتة شيء آخر. وخلايا المخ هي من جملة الأدوات. ولأن هذه الأدوات ليست هي (أنا)، فهي لا تستطيع تعريف (أنا). أما تعريف (أنا) وقواه الفاعلة والمنفعلة فهو في مجال العرفان الفلسفي. ولكن كشف الحقيقة والواقع كما هو ـ بعيدا عن كل ريب وشك وظن وحسبان ـ فهو في مجال العرفان العملي. والعرفان العملي لا تتطرق إليه الشكوك والظنون للسبب التالي: ـ

فإما أن يكون الخالق قد أعطانا وسائل المعرفة وأدواتها، أو أنه لم يعطنا. وإذا كان لم يعطنا، أو لم يعطنا حتى الآن، فذلك هو النقص في الخلق بعينه والعياذ بالله! وذلك هو التأخير في العطاء بعينه والعياذ بالله!

هل أنك في الوقت الحاضر تحتاج إلى شيء لم يفكر فيه الخالق ولم يقصد إليه؟ فساد هذا المعنى واضح وضوح الشمس. وأما إذا كان قد أعطانا فما هو هذا الشيء؟

أنا أقول إنها الوجدانيات يعني (أنا) يعني ما هو موجود عندك. لا يهمنا التعريفات التي صاغها الآخرون.

هذه المسائل وعجز الإنسان تجاهها قد جعلت مدرسة العرفان والعرفان العملي ـ أي الإستقرار في الواقع ـ لازمة وضرورية. ومن ناحية أخرى فقد وجدنا بأن كل إنسان متفكر، الذي لم يتوقف طرفة عين عن التفكير في نفسه وفي كل ما حوله، قد شعر بلزوم العلم لزوم الهواء الذي يتنفسه، وهو يريد أن يعلم. فالذي يريد أن يعلم، ويحس بأن

¤ المخ أدوات للتفكير، وغيرها من ملايين الملايين من الأدوات في بدن الإنسان. ولكن كل هذه الأدوات، التي لا تعد ولا تحصى، إنما هي (أدوات) وليست (أنا)، الذي هو الهوية الثابتة. وكيف يمكن للأفكار، التي هي إفرازات خلايا المخ، أن تعرف (أنا) أو هويتك الثابتة!!!

حاجته إلى العلم في مقابل هذه الحقائق قد أصبحت ملحة، قد خطا الخطوة الأولى لا شعوريا في العرفان العملي. ولكن الذي أصابه العجب والكبرياء، ويظن بأن إظهار العجز يحط من قدره، فقد وقع إلى الأبد في ضلال بعيد. فمثل هذا الشخص قد أصبح بعيدا عن التعريف المبسط جدا للعقل والعاقل.

لقد قالوا بأن العاقل هو الذي يجلب المنفعة لنفسه ويدفع الضرر عن نفسه، يعني العاقل من كانت لديه الوسيلة لتمييز نفعه عن ضرره. وبعد هذا التمييز يجلب المنافع لنفسه، ويبتعد عن مواقع الضرر.

ما هو ميزان التمييز بين النفع والضرر في منطقة الحقائق التي هي بعيدة عن متناول الحواس؟ هل الإنسان نفسه ميزان؟ أو أن ميزان الحقيقة هي الحقيقة نفسها؟ فإذا كانت النفس لم تصل إلى جزء من الحقيقة (في نفسها)، يكون عالم الحقائق مخفيا عنها، ولما ترفع الحقائق البرقع عن وجهها.

وهذا الجزء من الحقيقة الذي يجب أن نعرف هو الوجدان[1]، وهو المعيار والميزان الذي لا يخطئ، والذي يميز بين الخير والشر. وإذا لم يكن الوجدان، أو (أنا) الواعي الذكي، دليلنا إلى التمييز بين الصحيح والسقيم، لكانت مسيرة حياتنا متزلزلة وغير مطمئنة.

وحتى إذا وصلنا إلى أعلى مراتب العرفان الفلسفي والإستدلالي، ولم يكن لدينا هذا الميزان، لكنا كالأعمى في دهليز مظلم، يمشي والعصا في يده، يحس دوما بنوع من الشك والخوف من كل ما حواليه. هذا إذا كنا نمشي في دنيا العرفان الفلسفي بدون خطأ، ومن دون عثرة، ولم نكن أسرى العبارات الطنانة، وكنا مطمئنين من كل استنتاجاتنا الفلسفية، وإلا فحياتنا كلها غريقة في الشكوك.

---

(١) هو الوجدان أو (أنا) أو هويتك الثابتة ـ سمها ما شئت.

تأمل قليلا مسلك الشخص الذي يعظنا بأن لا نعتني بالدنيا وأمورها اليومية، وأن نترك الدنيا بمعنى الإهمال والتساهل وطلب الراحة والإتكالية، هل نستطيع أن نعتبر مثل هذا الشخص معلما عرفانيا؟ في حين أننا قلنا بأن العرفان عملي، ولم نقل بأن العرفان كلام وألفاظ. وقد قال نبينا وشارع الإسلام المقدس ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة». فلا بد أن يكون هناك نوع من الأعمال في الدنيا، ينتهي بنا إلى عاقبة طيبة في الآخرة.

تأمل قليلا ما هي المبررات بأن تبقى جائعا وعطشانا، في حين أن لديك الطعام والشراب؟ ألا تكون مثل هذه الأعمال تخلفا عن القوانين الطبيعية؟ وهل لا يكون الشخص مريضا وهو يجمع أكثر مما يحتاجه؟ إن الإفراط والتفريط في كل شيء يسلب عنا الطمأنينة على الدوام. فالطمأنينة لا تحصل لك في الجوع، ولا في إجراء طقوس ومراسم خاصة، ولا في الرياضات الشاقة وغيرها. حقيقة العرفان لا تقع في طمع الطامعين والأغنياء، ولا في عري المتسكعين وجوعهم. العرفان هو في مجال حقيقة (أنا)، ومعرفة النفس التي تنتهي بنا إلى معرفة الله.

لا أحد يستطيع أن يأخذك في هذا الطريق، ولا أن يمنعك، لأن كل نفس لا تستطيع أن تعرف الغير كما تعرف نفسها. ولا أحد يستطيع أن يعرفك كما تعرف نفسك، ولهذا فلا يستطيع أن يميز نفعك عن ضررك. في الدين غيرك مخل بسلوكك وسعادتك وطمأنينتك. طمأنينتك في هذا الطريق هي وحدتك، لأن طريقك في مسيرة ووجهة لا ينطبق معها غيرك. وجود الغير هناك محال، وتصور الغير شرك. فلا مناص من أن تمشي قدما وحدك في هذا الطريق، وفلاحك هو في وحدتك[1].

---

(١) هذه التعليمات العرفانية المقدسة هي التي أشار إليها الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حيث يقول مناجيا ربه: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم=

إذا تأملت جيدا، فقد أوضحنا في هذه السطور أصلين أساسيين من أصول العرفان الإسلامي: الأول هو الوجود الذي هو خالق موجوديتك. والثاني هو العدل الذي يهبك الحياة في سيرك الوجودي، ويهب لك السعادة والطمأنينة، وهذا ما يجب فهمه).

= يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». فالذي خمل الأغيار في قلبه ضل وهوى، والذي تنزه عن الأغيار أصبح من أحباء الله، لا يحب سواه ولا يلتجئ إلى غيره.

المجلس الواحد والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

لقد ذكرنا في المجلس السابق بأن مرتبة حق اليقين هي عبارة عن وحدة معنوية[١] وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بمعنى أن الانسان، بعد سلسلة من الرياضات، يصل إلى مقام تكون فيه نفسه منزهة عن كل الأوساخ والكثافات، وتصبح كالمرآة الصافية التي نفض عنها الغبار كليا، بحيث تكون هذه النفس قابلة لتجليات النور الإلهي.

والموانع من الوصول إلى هذه المرتبة، هي عبارة عن التعينات الإنسانية، والإشتغال بأمور يكون غير الله فيها ملحوظا. وبعبارة مختصرة فإن التوغل في أمور الدنيا وعالم الشهوة يستلزم المحرومية من الفيوضات الإلهية، والإدبار عن الحق تعالى. وهذا الأمر يتوقف على

---

(١) وهذه الوحدة المعنوية لا تتحقق إلا بالتجانس بين العارف وربه، أي بين الذي نفخه الله تعالى في الإنسان من روحه وبين الله تعالى. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]. فالواضح أن الروح ليس من جنس المخلوقات المادية، بل هو نور الله وهو من أمر الله تعالى. وهذا التجانس ومن ثم الوحدة المعنوية لا يتحققان إلا في مقام «حق اليقين» حينما يكون السالك قد اكتشف الروح الذي نفخه الله، وعاين ذلك النور شهوديا، وهو حقيقة الوجدان النورانية بعينه، أو حقيقة «أنا» النورانية (الأسماء لا تهم، ولكن يجب أن تفهم المعنى، وبالنسبة للسالك أن يعاين المعنى شهوديا كشفيا قلبيا).

الإنسان نفسه: هل يدع القوة العاقلة أن تكون تابعة للشهوات والقوة الغضبية، أم يصرفها في التوغل في الأمور الإلهية، وهل يدع الأوهام والقوى الأخرى أن تخرج عن هيمنة القوة العاقلة، وهل يخرج الوساوس الشيطانية من رأسه.

ما هو علم اليقين وعين اليقين

وبعد سلسلة من هذه الرياضات، يصل تدريجيا إلى مقام، إن صرف شهوته فهو لله، وإن غضب فهو لله، وإن جعل أوهامه ترقص فهو لله، يغلق عينيه عما دون الله، وتنفتح بصيرته على الجمال الإلهي والجلال والكبرياء والآلاء، التي تملأ الكون من أقصاه إلى أقصاه. وبالتدريج يصل إلى مقام، يجد فيه نفسه تعينا[1]، فالإنسان في الحقيقة

---

(١) كالأمواج في لجج البحار لا أصالة لها وإنما هي تغيرات أشكال على سطح الماء. كذلك الانسان والمخلوقات الأخرى تجيء وتذهب في تعينات أو تغيرات شكلية على سطح الوجود. والأصالة هي في الوجود البحت البسيط. ولكن هذا الأمر البسيط يغيب عن الانسان المغرور بنفسه، فيحتاج إلى كل هذه الرياضات الشاقة لفهم هذه الحقيقة البسيطة، ومن ثم تفهيم ذلك لنفسه الصعبة المعقدة، وترسيخ هذه الحقيقة البسيطة الواضحة في أعماق نفسه الجاهلة. وما أكثر ما يفهم الانسان ذلك نظريا، ولكن نفسه في واد آخر تحتاج إلى مجاهدات ورياضات شاقة، لتقويم أمتها واستصلاح عوجها، حتى تكون في تناغم تام وتناسق كامل مع هذا الفهم البسيط، وهنالك يكون حق اليقين. فما أبسط هذا الأمر وما أصعبه!!! ولترويض النفس وتقويم أمتها واستصلاح عوجها، أوصي باستمرارية ذكر الله، فإن ذلك أكثر جدوى وأعمق أثرا وأبعد هدفا وأعظم قدسية من الأساليب الأخرى. فمثلا الإيحاء الذاتي الإيجابي الذي يوصي به علماء النفس في أيامنا هذه، يفتقر محتواه إلى القدسية والهدف الأزلي الأبدي للوجود الإنساني. فأهداف علم النفس قريبة ودنيوية محضة تهيئ المريض للمعيشة العادية في هذه الدنيا، في حين أن أهداف الدين بعيدة المدى، وتتصل بعالم الخلود وعالم الآخرة، أي بعالم السعادة وعالم البقاء المترسخين في الفطرة البشرية، أي بعالم النفس المطمئنة =

لم يكن شيءا مذكورا ولا يزال، فالملك سواء كان خارجيا (أي في الآفاق وسعة الأكوان) أو داخليا (أي في الأنفس وأعماق مشاهدها) كله لله وحده ـ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

ولكن فهم هذا المعنى وتصديقه أمر صعب، ويحتاج إلى رياضات شاقة، كي يتأتى للإنسان أن يصل إلى مقام يتنبه فيه إلى هذه الحقيقة. وهنالك لا يرى وجودا لغير الله، لا في نفسه ولا في غيره، ولا يرى مملكة في الوجود لغير الله، وعند ذلك يتوصل إلى حقيقة أنه وغيره من جميع الكائنات ليسوا شيءا، **وأن ما نراه هو تجلي المبدأ الحقيقي، الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان**[1]. أتريد أن تصل إلى مرتبة حق

= وعالم الخلود والبقاء أي المعاد (بالتعبير القرآني). وتحقيق الهدف هو على قدر الهدف.

(١) أعتقد أن هذا التعبير للسيد حسين العالم قدس سره واضح وضوح الشمس. فكل ما نجده بحواسنا لا أصالة له، وإنما الأصالة لله وحده، وكل ما نراه هو تجليات الله سبحانه وتعالى الذي يشع وجودا في كل مكان وزمان، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) الحقيقي، وهذا هو معنى الحديث النبوي الشريف: «الكل شيء مفتاح ومفتاح السماوات قول (لا إله إلا الله)». يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف». ولا يفهم هذا الكنز المخفي ولا يتصل به إلا من وصل إلى مقام حق اليقين. بل دعني أقولها بالتعبير العامي: لا يشاهد هذه المشاهد الرائعة في سينما الوجود إلا ذلك الإنسان الكامل، الذي هو الهدف من عملية الخلق، والهدف من لعبة الوجود ومن فتنة الوجود ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[الأعراف: ١٥٥]، فهنالك لا فرق بين الشاهد والمشهود. يقول الإمام علي ﷺ في حديث الشراب: «إن لله تعالى شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا أخلصوا، وإذا أخلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم». فيا أيها الناس أينكم من هذا الشراب؟ وإلى متى الجحود؟ أو ما تعرفون أنكم لا تظلمون إلا أنفسكم؟ أو ليس محروميتكم من هذا الفيض الإلهي ظلم لأنفسكم؟ تنطلقون من العجب والكبرياء (ويا لها من الكبائر) وكأنكم احتويتم كل العلوم، وتقولون لأغراض إقصائية إن هذا هو علم الإلهيات أو علم الأخلاق، وكأنه يتساوى بعلم=

اليقين بهذه السهولة، وأن تعرض عن غير الحق بهذه السهولة، وأن تتوجه بالكامل إلى الحق بهذه السهولة؟ إن ذلك غير ممكن!!! فالطريق إلى منزل ليلى مملوءٌ بالأخطار، والشرط الأول للوصول إليه هو أن تكون مجنونا!!![1]

وإذا لم تكن هناك كدورات المعاصي، وصدأ العلائق الدنيوية، **لكانت كل نفس إنسانية قابلة لتجلي النور الإلهي**، ولكن المعاصي والعلائق الدنيوية هي التي تمنع الانسان من أن ينخلع عن حضيض شقاوة البعد، ويرتفع إلى أوج سعادة القرب. وفي الحديث الشريف لسيدنا محمد ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»، أي لشاهدوا حقائق ملكوتها. وأشار ﷺ إلى هذه الموانع في حديثه الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه»، أي أن كل مولود يولد على الفطرة السليمة، ولكن أبويه والمجتمع الذي يولد على ظهرانيتهم، يحرمونه من هذه الفطرة السليمة، ويقذفون به إلى طرق غير سليمة. ويجب على كل إنسان عاقل أن يعلم ويفهم **بأن العلة الغائية للخلقة هو معرفة الله، وأن المعرفة لا تكتمل إلا بالمعرفة القلبية الكشفية**[2]، وهي

= الفقه أو علم الفيزياء أو علم الكيمياء، ولا تعرفون أنه كل شيء، وأن نجاتكم وفلاحكم هو في هذا العلم الذي هو العمل في ذات الله، وليس مجموعة من المحفوظات والذهنيات التي تعودتم عليها. فاكسروا العادة ولا تكونوا ممن قال الله في حقهم: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٢٢].

(١) ولقد عبرت عن هذه الحالة بهاتين البيتين من الشعر:

ديار العشق حفت بالبلايا   زيارتها لمجنون تباح
وفي خدر الخباء وصال ليلى   لمجنون مباح مستباح

(٢) أي أن المعرفة لا تكتمل بالمحفوظات الذهنية، وقراءة الكتب، والعلوم المنقولة والمعقولة ـ كما يتصف بها معظم من يسمونهم بالعلماء. ولكن هذه الأشياء لها القدرة على أن تساعد وأن تهيئ، إلا أنها في كثير من الأحيان ومع الأسف=

ثلاثة مراتب، أعلاها مرتبة حق اليقين. فيجب على الإنسان المجاهدة والمناجاة والعبادة، لعل الله يوصله إلى هذه المرتبة، ويجب أن تناجي ربك في ظلمة الليالي قائلا: «يا رب يا رب لا أكاد أنام في ظلمات الليل، وأعشق عبادتك، لأن حبك قد فعل بي هذا، حتى استوحشت من غيرك، واستأنست بك وحدك».[1]

أعلم بأنك لم تفهم جيدا إلى الآن ما هو علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فلو كنت فهمته جيدا لتغير حالك قليلا. ولذلك فلغرض التفهيم وتقريب المعنى، أضرب لك مثالا الذي ضربه الله تعالى لليقين، إذ استعمل مثال النار والنور الظاهري، أضربه لك حتى تفهم كيف أن مراتب معرفة النور الحقيقي هي أيضا كذلك. ففي سورة التكاثر ذكر الله تعالى أولا المرتبة الأولى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٦]، ثم أشار إلى المرتبة الثانية: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وأشار إلى المرتبة الثالثة في سورة الواقعة: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٤ ـ ٩٥]. فالناس على قسمين بعضهم لا يتيقنون بالنار، والبعض الآخر يعرفون بأن النار جسم لطيف

= الشديد تنتهي بأنصاف العلماء بأن يرفعوا سيوفهم ورماحهم ويطعنوا بها أبدان الأولياء والعلماء الحقيقيين وقلوبهم الطاهرة، كما ذكرها العلامة السيد حسين العالم في الفصل السابق. وما أكثر منهم من ينكر الشهود القلبي الكشفي، ويسخر منه ويسخر من العرفاء ويستهزىء بهم، ويظن أن السخرية والإستهزاء ترفع من قدرهم، وهذا هو مبلغهم من العلم ويا أسفاه عليهم، لأنهم يغلقون نوافذ غرفهم بأيديهم، لمنع فيوضات الشمس من النفوذ إليهم وإلى غيرهم، ممن يتبعونهم من المستضعفين الفكريين ـ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]. فالمعرفة تكتمل فقط وفقط بالمعرفة القلبية الكشفية، التي ينتهجها العرفاء للوصول إلى الحق تعالى.

(١) طوبى لمن استأنس بالله وحده واستوحش من غيره. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». فمن الواضح أن (الأغيار) هو كل ما سوى الله تعالى.

وخفيف. فإذا أصابت النار أي شيء غلبته، وجعلته متصفا بصفاتها. فمثلا لو أصابت الحديد البارد، لجعلته حارا حتى يظهر أثر النار عليه، وإذا أصابت الخشب، غلبته وحولته إلى رماد. وإذا اشتعل بها الفانوس تنور بنورها، فلا تنقص النار بسبب إنارة الفانوس. ويعرفون بأن النار تحل محل الأنوار العلوية في الظلمات، وأن قليلا منها لو ظهرت في محفل تحفه الظلمات، لجعلت أهل المحفل مسرورين بنورها، ولو أنها ظهرت حين يبرد الهواء، لجعلت مجاوريها مسرورين بحرارتها. فالذي عنده علم بالنار التي تتصف بهذه الصفات على قسمين: فبعضهم يقبل بها قبولا تقليديا صرفا، فهو الذي عنده إيمان قلبي تقليدي. والبعض الآخر يصدق بالكشف القلبي بوجودها، وبأنها متصفة بهذه الصفات، فهو الذي عنده إيمان قلبي كشفي. وهو على ثلاثة أقسام: فالبعض يرى من بعيد أثرا من النار يعني الدخان، الذي يدل على وجود النار، فيستنبط وجود المؤثر بسبب هذا الأثر، فهو الذي يحصل عنده علم اليقين. والقسم الآخر تنكشف عن عينيه الحجب، ويقترب إلى النار، ويراها رأي العين، فهو الذي ارتقى إلى مرتبة عين اليقين. والقسم الثالث هو الذي وقع في النار واحترق بها، وعانى حرارتها (سل عن النار جسم من عاناها)، ثم أصبح فانيا فيها، فهو الذي ارتقى إلى مقام حق اليقين.

حق اليقين مقام يعبد المؤمن فيه ربا يراه

ولأنك عرفت الآن مراتب المعرفة بمثال النار والنور المجازي، فاعلم بأن حكم النور الحقيقي هو كذلك. فهناك فريق ليس لهم علم بالمبدأ أصلا، ولا يؤمنون بالنور الإلهي الذي تنور به الوجود، فهم الذين ليس لهم نصيب غير الكفر[1]. وربما خالطوا المؤمنين في حياتهم، إلا أنه سيجيء يوم يصرخون فيه بسبب فقدان النور في وجودهم، وبسبب غياب نور الإيمان، فيجيء الجواب: «قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا». ويكون يوم يفترقون فيه عن المؤمنين: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

وهناك الفريق الثاني الذين قد آمنوا، وعندهم علم بالنور الحقيقي، ولكن إيمانهم وعلمهم تقليدي.

وأما رجال الله فهم الذين آمنوا بالنور الحقيقي، وعلموا عن طريق الكشف واليقين، بأن العالم موجود كظاهرة من نور الوجود[2]، وأن كمالات العالم وحركاته وسكناته هي تجليات هذا النور، وأن لا موجود

(١) كفر الشيء بمعنى غطاه، فهم في غطاء عن النور الإلهي.

(٢) وهذا هو النور الذي عناه الله تعالى بقوله في سورة النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [النور: ٣٥]إلى آخر الآية.

إلا وجود، فكل الكائنات عدميات من حيث الأصالة[١]، وإنما أصالة الوجود هي في النور الإلهي، الذي هو الوجود البحت البسيط. وقد علموا عن طريق الكشف واليقين، بأن نور الوجود تختفي في مقابله الظلمات، وإذا فاضت إضافته الإشراقية على شيء نورته بنوره، وجعلت منه آية وجودية، وإذا فاضت على قلب عبد، جعلته محوا في جماله، وجعلت صاحب ذلك القلب يتجافى عن غيره. وعلموا عن طريق الكشف واليقين، بأن العالم كله منور بهذا النور الحقيقي، من دون أن ينقص من ذلك النور شيء، وأن العالم كله، في قوس صعوده، فان في ذلك النور الحقيقي، من دون أن يزيد على ذلك النور شيءا ـ سبحانك سبحانك يا نور يا منور.

فأصحاب هذه المعرفة على قسمين: بعضهم لم ينكشف الحجاب كليا عن عيون قلوبهم، ولكنهم شاهدوا هذا النور في مخلوقاته ومعلولاته، لأن المعلول شأن من شؤون العلة، فهم قد توصلوا إلى المؤثر عن طريق الأثر. والبعض الآخر انكشفت الحجب عنهم، **ورأوا الله بعيون قلوبهم، كما قال إمامنا علي ﷺ: «لم أعبد ربا لم أره»**، وحكمهم كالفراشة تحوم حول الفانوس، ولما تحترق بنوره. فأصحاب هذه المرتبة يسيرون في مقامات القرب والزلفى، وقد انكشفت الحجب عنهم، ولكنهم في جوار النور ولم يفنوا في النور، وقد انقطعت تعلقاتهم عن غيره، وملوا من الألوان وعشقوا صبغة الله، فالعاشق مبرأ من الألوان، وهو تحت القبة الزرقاء صاحب همة، قد تحرر من كل شيء ينتمي إلى ألوان[٢].

---

(١) بمعنى أن الكائنات تعينات وليست أصيلة، كما أن أمواج البحر أشكال من الماء ـ على طريق المثال ـ لا علاقة لها البتة بالأصالة، وإنما الأصالة في الماء، بمعنى أنك إذا تجاوزت الأشكال رأيت الماء فقط.

(٢) أي تحرروا من الألوان والأشكال والتعينات، ومن الدنيا وزبرجها وزينتها ومظاهرها التي تبهر العيون، بمعنى أنهم تجاوزوا الألوان والأشكال والتعينات، =

طوبى للذين وصلوا إلى المقام الثالث، الذين كانوا في جوار النور ردحا من الزمان، إلى أن وصل بهم العشق والهيام، إلى أن التعين الذي عرفوه من أنفسهم ذاب وانصهر، ودخلوا في جذبة الرحمن[١]... والآن جاء وقت الكلام... فعندما يصل العبد إلى هذا المقام، لا يبقى هناك إلا المحبوب الحقيقي، فكما أن الفراشة عندما تحترق بالنار، لا يبقى منها إلا النار، كذلك السالك حينما يفنى في النور، لا تبقى منه إلا النورانية. وعند وصوله إلى هذا المقام، بأي طرف يرنو بنظره لا يرى غير الله، وعند ما ينظر إلى نفسه لا يجد لنفسه أثرا، فتخرج الصيحة منه بلا اختياره «لا اله إلا أنا فاعبدوني»، أو «سبحاني ما أعظم شأني»، أو «ليس في جبتي سوى الله تعالى». لماذا يقول ذلك في حين أنه ليس الله؟ يا عزيزي كلما يرنو بنظره لا يرى نفسه... فهو فاني، فماذا يفعل فإنه لا يرى غير المحبوب. وعندها يتكلم لا بلسانه، بل بلسان الله يتكلم[٢]. أتتعجب من مقالي؟؟؟ في حين أنك تقول إذا حل الشيطان برأس، فإن صاحب ذلك الرأس يتكلم بلسان الشيطان. أليس كذلك؟؟؟ أو تقول إذا شربت قارورة من الخمر، فإن سكر الشراب يظهر منك. أليس كذلك؟؟؟

فيا أيها المسكين أيكون ربك أقل من الشيطان ومن الخمر؟؟؟ فعندما يتجلى نوره في القلب، ويحرق قلب المؤمن ويفنيه، فإن ذلك المؤمن يتكلم باللسان الإلهي. أو أنه إذا نور العارف بنوره، وإذا أسكره

= ونفذوا بعيون قلوبهم إلى الوجود البحت البسيط، أو الوجود الأحد الصمد، الذي لا وجود لغيره، بمعنى أن لا وجود من حيث الأصالة لغير الله سبحانه وتعالى.

(١) كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين».

(٢) وهذا موجود في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته».

بخمر الوحدة[١]، أيمكن أن لا يكون العارف متجليا بالوجود الالهي؟؟؟ فيا عزيزي الحقيقي إذهب والتمسه...

أوما سمعت قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، كيف أن يد النبي ﷺ أصبحت يد الله!!! أو ما سمعت «السلام عليك يا ثار الله»، كيف أن دم الحسين عليه السلام أصبح دم الله تعالى!!!، هل ترى ذلك بعيدا، أن يأخذ بيد أحد محبيه وشيعته، ليوصله إلى الرحمن وإلى الفناء فيه؟

يوجد في هذه الدنيا رجال مجردون من الألوان، يعني من حب الرئاسة في الدنيا[٢]، وقد أزاحوا كل التعينات عن وجودهم، ووصلوا إلى مقام حق اليقين، بسبب الفناء في المبدأ الحقيقي. وعلى رجال الله أن يلتمسوا رجالا من هذا النوع، وأن يجدوا ويجتهدوا حتى يجدوهم، وإذا كنت تطلب السعادة، وقد أحاطت بك الغوغاء من الناس، لا يحبون إلا الدنيا، فالتمس رجل الله[٣].

---

(١) إنما هي وحدة الوجود حيث لا يبقى إلا «التوحيد». فالتوحيد يتجسد في مقام حق اليقين، بعيدا عن الألفاظ البراقة والعبارات الطنانة، كما يقول إمامنا علي عليه السلام في آخر حديث الشراب: «وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

(٢) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

(٣) أتعجب كيف يصل من يصل من دون مصاحبة رجل الله أو الشيخ أو الأستاذ أو ولي من أولياء الله (فالأسماء لا تهم، ولا تؤخر ولا تقدم، ما دمت تفهم المعاني اللطيفة، فإن أنصاف العلماء قد خلقوا حساسية عند الناس ضد بعض الأسماء). أما إذا بقي السالك من دون شيخ، فإن وصوله صعب، وليس بتلك السهولة، فليستمر في السلوك، فلعل الله يفتنه فتونا ويمتحنه ويبلوه بلاء حسنا، فإن السلوك نفسه علامة على أن الله تعالى يحبك. فاستمر بارك الله فيك.

إبن الفارض وسير وسلوكه على يدي شيخ بقال

وقد وجدنا في كتاب حياة الحيوان من كفاية المعتقد لليافعي ما يلي: بأن ابن الفارض المعروف، في أول سير سلوكه، دخل إلى إحدى المدارس في مصر، ووجد هناك شيخا بقالا يتوضأ، وعندما دقق النظر في وضوئه، رأى أن الشيخ يتوضأ على غير ترتيب، فاقترب منه وقال له: «يا شيخ أنت في سنك الطاعن، وفي مثل هذا البلد الذي هو مجمع أهل العلم وأرباب الديانة، لماذا أنت جاهل بأحكام الوضوء، وتتوضأ على غير ترتيبه وبطريقة غير صحيحة؟ وعندما سمع الشيخ هذا الكلام من ابن الفارض، قال يا عمر لا يفتح عليك في أرض مصر، وإنما يفتح عليك في أرض الحجاز ومكة، فشد الرحال إلى هناك، فإن يوم فتحك قريب. يقول عمر بن الفارض: فعلمت أن هذا الرجل من الأولياء ومن رجال الله، وأن وضوءه على غير ترتيب، إنما هو لإظهار الجهل وستر الحال. فجلست عنده وقلت له: يا سيدي أين أنا وأين مكة؟ وليس الآن موسم الحج، ولا يوجد رفيق يرافقني إلى هناك. فلما سمع الشيخ هذا الكلام مني أشار بيده وقال: هذه مكة أمام عينيك، فنظرت وإذا أنا أرى مكة!

فتركت الشيخ واتجهت نحو مكة، وهي لم تغب عن عيني، إلى أن وصلت إليها، وفتحت علي أبواب الفتح، وكنت أسيح في جبال مكة ووديانها، إلى أن أقمت في واد تبعد عن مكة بمقدار عشرة أيام بلياليها. وكنت أصلي الصلوات الخمس جماعة في الحرم الشريف، وكان يرافقني

كل مرة في غدوي ورواحي سبع عظيم الخلقة. وكان الجمل يركع أمامي ويقول: يا سيدي اركب، ولم أركبه قط. وانقضت علي خمس عشرة سنة... وسمعت فجأة صوت الشيخ البقال يرن في أذني قائلا: يا عمر تعال إلى القاهرة واحضر وفاتي. فأسرعت إليه ووجدته محتضرا، فسلمت عليه ورد علي السلام، وأعطاني بضعة دنانير وقال لي: اصرفها على تكفيني وتجهيزي، وادفع لكل حمال من الحمالين الذين يحملون تابوتي دينارا، واحملني إلى الموضع الفلاني (ويقولون إنه هو الموضع الذي دفن فيه ابن الفارض). ثم قال: ضع تابوتي في هذا الموضع، وانتظر حتى يحكم الله بأمره.

ويقول ابن الفارض: حينما توفي الشيخ عملت بوصيته، ووضعت تابوته في الموضع الذي أوصى به. فرأيت رجلا ينزل من الجبل مسرعا كالطير، ولم أجد رجليه تمشيان على الأرض. فعرفته بأنه كان الشخص الذي كان يمشي حافي القدمين في السوق، وكان الناس يستهزئون به ويضربونه على دبره. فقال لي يا عمر تقدم حتى نصلي عليه. فتقدمت فرأيت طيورا خضراء وبيضاء بين السماء والأرض تصلي معنا. وعندما فرغنا من الصلاة، رأيت طيرا أخضر عظيم الخلقة نزل من بين الطيور، وجلس تحت تابوته، وأنزل تابوته داخل الأرض، ثم التحق بالطيور الأخرى، وطاروا في الجو مسبحين لله، حتى غابوا عن أعيننا. يقول ابن الفارض فتعجبت من ذلك، فقال لي ذلك الشخص: يا عمر أو ما سمعت أن أرواح الشهداء، الذين يقتلون بالسيوف، تستقر في الطيور الخضراء، التي تطير في الجنة، وتطير أينما تشاء؟ أما المقتولون في محبة الله، فإن أجسادهم وأرواحهم جميعا مستقرة في الطيور الخضراء، وأن هذا الشيخ من المقتولين في محبة الله. وكنت أيضا منهم، ولكن بدرت مني زلة فطردوني، وأنا الآن في الأسواق على الحالة التي تعرفها، وأن أولياء الله يؤدبونني على تلك الزلة.

التفقه في الدين هو التفقه في الأصول لا الفروع

فأولياء الله ببركة مقام حق اليقين، فانون عن أنفسهم، وهم يسيحون في السكك والأسواق كالمجانين. ولكن لا تظن بأن الوصول إلى مقام حق اليقين أمر سهل. كلا كلا! إن **ذلك يستلزم الحصول على المعارف الإلهية**[1]. أيها الناس إلى متى تبقون في خدمة الدنيا؟ أو ما سمعتم الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؟ فإن المقصود هو التفقه في الدين، والمعرفة بأصول الدين، وحصول الإيمان بالله، والغاية من ذلك التفقه هو الوعظ والنصيحة والإنذار. **لقد خدع أكثر الناس ولا زالوا يخدعون إلى الآن، بأن المراد من التفقه في الدين، هو تعلم مسائل الدين من قبيل باب التجارة والهبة والرهن وغيرها، فيبقون حيارى عندما يرون بأن هذه العلوم لا تؤدي إلى المعرفة الإلهية، ولا توصل إلى مقام حق اليقين.**

فيا أيها الأعزاء افتحوا عيونكم، وانظروا ماذا يفهم أرباب الدين

---

(١) إذا أردت «المعارف الإلهية» بلغة عصرية جديدة قابلة للفهم والهضم، فاقرأ مقتطفات من كتاب «السحر» من كلام الشيخ صادق العنقاء قدس سره، والتي أوردناها في هذا الكتاب.

من معنى التفقه ـ ماذا يقول الكشاف وماذا يقول البيضاوي وماذا يقول الغزالي وماذا يقول الشيخ البهائي وماذا يقول ملا صدرا، يعني الذين يفهمون في الدين، ماذا فهموا من الأحاديث، وكيف توصلوا إلى معنى التفقه؟ فالمراد من التفقه في هذه الآية الكريمة، هو أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة من السالكين إلى الله، الذين يقتدون بالأنبياء والأولياء ﷺ، ليكملوا نفوسهم أولا، ويجدوا ويجتهدوا في طلب القرب الإلهي، ثم بعد ذلك يستعدوا لإنذار الناس. أو بعبارة أخرى، **يجب عليهم أن يتعمقوا في معارف أصول الدين، ويحصلوا الفقه حسب الحاجة، لا أن يكون المراد من التفقه مسائل الحيض والنفاس وغيرها، بل المراد منه هو العلوم[1] التي تجعل من الإنسان مجردا مما سوى الله، وتوصله إلى مقام القرب الإلهي.**

وخير الكلام في هذا المجال، ما ذكره الشيخ البهائي (ره) في كتابه «الأربعين» في شرح قول الرسول الأعظم ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثا يحتاجون إليه في أمر دينهم بعثه الله ﷻ يوم القيامة فقيها عالما». **فليس المراد بالفقه علم الأحكام الشرعية الفقهية، والأدلة التفصيلية المربوطة بذلك، لأن هذا المعنى مستحدث، بل المراد من الفقه البصيرة في أمر الدين**، وفي أكثر الأحاديث النبوية ذكر الفقه بهذا المعنى، والفقيه هو صاحب هذه البصيرة. وإلى هذا المعنى أشار الرسول الأعظم ﷺ: «**لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله**

(١) المراد من هذه العلوم هي المعارف الإلهية التي ذكرناها آنفا. وليست المعارف الإلهية محفوظات وذهنيات كالعلوم الأخرى، بل هي معرفة نورانية بالله، وعمل وجهاد يجعل من الإنسان مجردا مما سوى الله، وتوصله إلى مقام القرب الإلهي. أو ما سمعت قول الله تعالى في آخر سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وكأن هذه الآية الشريفة تقول في صوت مسموع: «لنفتحن عليهم فتوحات العارفين».

وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا».
والبصيرة إما أن تكون موهبة، كالبصيرة التي دعا بها الرسول الأعظم ﷺ لأمير المؤمنين علي عليه السلام حينما بعثه إلى اليمن، فقال: «اللهم فقهه في الدين»، أو أن تكون بصيرة مكتسبة، وهي البصيرة التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام حينما قال لولده الحسن عليه السلام: «وتفقه يا بني في الدين».

وقال بعض الأعلام (والمراد هو الغزالي) صاحب كتاب الإحياء، **بأن علم الفقه في العصر الأول كان يطلق على علم الآخرة، وعلى معرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وعلى قوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة الإطلاع على نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. وإلى هذه المعاني تشير الآية الكريمة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾** [التوبة: ١٢٢] إلى آخر الآية. فالفقه هو هذه المعاني التي توجب الإنذار والتخويف، وليس الفقه هو تعريفات الطلاق والرهن والإجارة وغيرها، لأنها لا توجب الإنذار والتخويف، بل بالعكس فإن التفرغ لها على الدوام، يقسي القلب وينزع الخشية. فالواضح أن الإنذار والتخويف لا يترتب إلا على هذه المعارف التي سبق ذكرها، لا المعارف التي يذكرونها من معرفة فروع الطلاق وغيرها ـ إلى آخر كلامه.

فالتوجه إلى المعارف الإلهية، هو التفقه في الدين، الذي يسوق الإنسان سوقا إلى عبادة الله، وإلى معرفة مقام الأنبياء. أو ما ترى عظماء الدين، ببركة المعارف الالهية، كيف أنهم كانوا يعظمون رسل الله ويجلونهم؟ أو ما ترى كيف كان استعدادهم لتضحية أرواحهم تحت أقدام الرسل ونصرتهم؟ أو ما ترى كيف أنهم عرفوا الله ورسوله حق معرفتهم؟ فكان حقا على الله أن يلبسهم لباس جلالته.

رحلة في المجلس الرابع والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

في هذا المجلس يسلط السيد حسين العالم قدس سره الضوء على دقائق النفس البشرية، لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وانتماء الإنسان العميق إلى خالقه وصانعه. فالإنسان مخلوق اجتماعي، ويحتاج بشدة إلى مجموعة من البشر لكي يعيش معهم. فعيشه وحيدا ليس طبيعيا بالنسبة للإنسان. وما صوره ابن الطفيل في رسالته (حي بن يقظان) من إنسان ترعرع بين الحيوانات في جزيرة نائية، إنما هي صورة فرضية لكي يستنبط من القصة ماذا تكون حالة إنسان على هذه الحالة، بعيدا عن مؤثرات المجتمع الإنساني السلبية، التي تبعده عن فطرته الصافية، وعن عبوديته لخالقه، وعن مواثيقه التي أعطاها لربه وهو في عالم الذرة، إذ قال (بلى) حينما سأله رب العالمين: (ألست بربكم؟).

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «الممكنات كما أنها في وجودها وحدوثها، وإتيانها من كتم العدم إلى ميدان الوجود، محتاجة إلى العلة، كذلك هي في بقائها محتاجة إلى العلة، بحيث إنه لو انقطع فيض الوجود، لرجعت ممكنات الوجود آنا إلى العدم».

وإذا دققت فيما يقوله السيد، لعلمت بأن الإنسان، بكل تحقيق، محتاج إلى الخالق والصانع في وجوده وحدوثه، وفي إتيانه من كتم

العدم إلى ميدان الوجود. والشيء المهم هو أنه لا يحتاج إلى خالقه لوجوده وحدوثه فحسب، بل هو في بقائه على قيد الحياة، محتاج للخالق والصانع، وفقير إلى ربه في كل لحظة من لحظات حياته.

ومن البراهين التي لا تعد ولا تحصى في هذا المضمار، هناك برهان واضح توصل إليه علم الحياة. وهو أن الخلايا في داخل الإنسان لها عمر قصير، وعلى الأخص خلايا الجلد. فهذه الخلايا في عملية متناوبة مستمرة للموت والحياة: تموت خلايا في النهار أثناء العمل والجهد، ويحدث الإرهاق كعلامة على هذا الموت، وتنبعث في الإنسان حاجة إلى النوم والإخلاد إلى الراحة، لماذا؟ حتى تخلق خلايا جديدة، أثناء النوم، تحل محل الخلايا الميتة.

وإلى هذه المعجزة المستمرة في الإنسان، ألا وهي معجزة الموت والبعث المستمرين المتناوبين، تشير الآية الكريمة في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فهذه الآية الكريمة تشير إلى أنكم تموتون في الليل، أثناء النوم، ويعلم الله ما جرحتم بالنهار من الخلايا والجزئيات الأخرى في بدنكم، ثم يبعثكم الله فيه ليقضى أجل مسمى، بمعنى أنكم تبعثون مرة أخرى في النهار، أي تستيقظون من منامكم، لأجل مسمى، أي لمدة مؤقتة، ثم تموتون مرة أخرى بالنوم تارة أخرى، ثم تبعثون مرة أخرى بالإستيقاظ تارة أخرى، وهلم جرا حتى يصل الأجل المحتوم في آخر عمر الدنيا، ثم يكون مرجعكم إلى الله، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وقد نبهنا الرسول الأكرم ﷺ بعلاقة النوم بالموت قائلا: «النوم صنو الموت».

ولكن الإنسان الغافل الجاهل يتحدى ربه من منطلق شقاوته وجهله المركب، منكرا البعث، غافلا عن أنه يموت ويبعث كل ليلة ويوم، وغافلا عما في هذا النوم ـ أي الموت المؤقت ـ من فوائد عظيمة، حيث

يخلق من جديد، وعما في يقظة النهار ـ أي البعث ـ من فوائد عظيمة، حيث الحركة والنشاط والمعاش، من أجل تذوق عظمة وروعة هذه الحياة الدنيا. ولكن الله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، كما ذكر ذلك في سورة الملك قائلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. وهو الذي جعل نومكم سباتا وجعل النهار معاشا، كما ذكر ذلك في سورة النبأ قائلا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٩ ـ ١١].

وأيضا لو تفكرنا مليا في أقواله، لعلمنا بأن الإنسان في الحقيقة محتاج في كل شيء إلى الله ـ في إتيانه إلى هذه الحياة، وفي بقائه على هذه الأرض، بل في كل حركات بدنه الداخلية والخارجية وسكناتها. فهو معتمد اعتمادا كليا على الله، لا ينفك عنه طرفة عين. فمثلا لو انقطع الهواء والنفس، لرجع الإنسان آنا إلى العدم، ولو انقطع الماء والغذاء لما لبث إلا قليلا. ولو انقطع فيض الوجود فأين تكون يا أيها الإنسان المغتر بهذه الفرصة الذهبية التي أعطيتها، المدل بنفسه، في حين أن النعم كلها من الله، فإن كنت ريحا يا أيها الإنسان فقد لاقيت إعصارا!!!

فمن أين الهواء والماء والغذاء؟ إن هي إلا جزء من فيض الوجود. فاترك العناد والتجبر والتكبر والجحود والنكران، فما هذه المعاصي إلا لأنك تتمتع في الوقت الحاضر بالقوة التي أصبغها الله عليك. وعندما تؤول قوتك إلى أفول ـ وما ذلك عنك ببعيد! ـ وعندما يدخل الضعف في جسمك ويدب الوهن في عظامك ـ وما ذلك عنك ببعيد! ـ أيكون هذا موقفك؟ وهل يبقى تصلبك على حاله؟ وهل تبقى (بقبقة في زقزقة)، تفتخر بما ليس عندك، في حين أن النعم كلها من الله، كما كان فرعون وهامان وجنودهما؟ لا أدري!!!

وإنما أدري أن فرعون طغى وتجبر، ولكن حينما أدركه الغرق في

ذلك البحر الغطامط قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ـ [يونس: ٩٠]. وإذا تكون حالتك كحالة فرعون فاسمع النداء: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ـ [يونس: ٩١].

ولكن آمل أن لا تكون كذلك، وأن تتدبر وتتفكر قليلا، عسى أن يفتح الله عليك. وأن لا تتأخر في التوبة، فإن باب التوبة مفتوح. وأن لا تتوان عن اكتشاف حقائق الخالق والصانع في أعماق نفسك، فإنك منتمي إليه بكل قوة، ومرتبط به ارتباطا وثيقا، وإنك لله وراجع إليه، كما نقول دائما: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فلعلك تحمل حساسية بالنسبة إلى الإسم، ولكن بالله عليك ـ بعيدا عن الأسماء والعبارات ـ أما تحس بهذه القوة الخالقة الصانعة المدبرة في أعماق نفسك، ومدى انتمائك إليه وارتباطك به؟؟؟

فلماذا البطر يا أيها الإنسان! فكما أنك أتيت إلى هذه النشأة الدنيا، من دون اختيارك، ولا تدري بأي قوة أتيت، كذلك ترحل عن هذه النشأة إلى نشأة أخرى، من دون اختيارك، ولا تدري بأي قوة ترحل! وإنك تعلم بالتحقيق بأنك لست قائما على أقدامك، وأنك محتاج إلى الغير في كل أمورك، فلهذا أنت مخلوق اجتماعي، لا تستطيع العيش بعيدا عن الناس الآخرين، أو حتى بعيدا عن الحيوانات والنبات والأشجار والمناظر الجميلة الخلابة. وإنه واضح وضح النهار مدى احتياجك إلى الحيوانات، فأنت تعيش على لحمها ولبنها وجلودها وكثير من منتجاتها الأخرى، وإلى النبات والأشجار، فأنت تعيش على النبات والفواكه والأثمار وكثير من منتجاتها الأخرى. وأيضا أنك تحب أن تكون في جوارها، كما تحب أن تكون في جوار الناس، وهذا يدل على مدى ارتباطك بالناس والحيوانات والنبات والأشجار والمناظر الجميلة الخلابة، بل بكل ما يوجد على وجه هذه البسيطة. بل الأهم من كل ذلك، إن هذا يدل على مدى ارتباطك برب الناس والحيوانات والنبات

والأشجار والمناظر الجميلة الخلابة والكرة الأرضية التي تحملها على ظهرها. فإن كنت تدعي الإستقلال والإنفصال عن كل ما حواليك، فقد جريت السمهى!!!

والأهم من هذا وذاك، أنك لا تملك أنفاسك، وأنك محتاج إلى الله في كل نفس تتنفسه! وأنك لا تملك قلبك ونبضاته المستمرة المتناوبة، وأنك محتاج إلى الله في كل دقة من نبضة قلب، فلو انقطعت هذه النبضة لرجعت آنا إلى العدم! وهناك ملايين الملايين من جوارحك وأعصابك وعضلاتك وخلاياك وغيرها التي، لا تعد ولا تحصى، أنت لا تملكها، وأنك محتاج إلى الله في كل شيء منها! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول السيد حسين العالم قدس سره في مكان آخر: ـ

«فالله سبحانه وتعالى قد خلق نوع الإنسان، بحيث إن كل فرد من البشر يحتاج إلى آخر في تصريف أموره، فالحاجة تجبره على ركوب الفلك، التي تجري في البحر، كي يصل إلى احتياجاته في أطراف العالم. وكون الحاجة هي أكبر دليل على وجود الصانع، هو أن احتياجات أفراد البشر وممكنات الوجود ذاتية ولا تنتهي، وأن كل فرد من ممكنات الوجود يحتاج إلى الآخر».

ويستطرد قائلا: «فكل ممكن الوجود البتة لا يتمتع بأي وجود ذاتي ولا كمال ذاتي، بل يحتاج في كل أموره الوجودية إلى ذات واجب الوجود».

وإذا تدبرت قليلا في أقوال السيد، لرأيت عمق انتماء الإنسان إلى الله جل وعلا، فاحتياجاته ذاتية وهو فقير إلى الله في كل شيء. أو ما سمعت موسى الكليم عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]؟ ولأن الإنسان لا يتمتع بوجود ذاتي ولا كمال ذاتي،

فمعناه أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بذات واجب الوجود الذي يتمتع بالكمال الذاتي، وأن الله الأحد الصمد هو الذي يعطي الإنسان وجوده النسبي وكماله النسبي، ولا يحقق رغباته واحتياجاته إلا هو! فالمطلوب منا اكتشاف هذا الإنتماء العميق والإرتباط الوثيق، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وذلك بالتدبر والتفكر.

رجال الله حاجاتهم خفيفة

ويقول السيد حسين العالم قدس سره، في مكان آخر، «إلا أن بعضا من ممكنات الوجود تقل احتياجاتهم عن باقي الممكنات، وهم الأنوار الإلهية الذين هم أول ما خلق الله، لا فرق بينهم وبين خالقهم، إلا أن دفة أمورهم بيد خالقهم يديرها حيث يشاء. وعلى الرغم من أنهم ذاتا من الممكنات، إلا أنهم من شدة قربهم من المبدأ، متصفون بالصفات الإلهية، إلى حد أن الصفات الإلهية غالبة عليهم، لا صفات الممكنات».

وإذا دققت فيما يقوله السيد حسين العالم قدس سره، لرأيت أن الذين تخلقوا بأخلاق الله، واقتربوا إلى الله والتصقوا به، وشاهدوا في أنفسهم النور الإلهي بالكشف والشهود القلبي، تقل احتياجاتهم اليومية عن باقي الناس. والمشكلة الكبرى في ثقافتنا الدينية أننا إذا سمعنا عن الأنوار الإلهية الذين هم أول ما خلق الله، تداعى إلينا أنه لا يمكن أن يكونوا إلا الأنبياء ومحمد ﷺ وأهل بيته. ناسين ما قاله الإمام الباقر عليه السلام: «وشيعتنا من طينتنا»، أو ما قاله النبي محمد ﷺ واعظا به الناس مثلي ومثلك: «تخلقوا بأخلاق الله».

فإذا كنا حقا شيعة، فإننا من طينة محمد ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام، ومن الأنوار الإلهية الذين تكلم عنهم السيد حسين، ومن الذين تخلقوا بأخلاق الله. وما هي الصفات الإلهية التي تغلب عليهم؟

من هذه الصفات قلة الحاجة، فهم مقتنعون بالقليل من حاجات الحياة الأساسية. وكما قال الحسن البصري في إثبات الولاية للإمام علي عليه السلام أنه استغنى عن الكل واحتاج الكل إليه. ومن هذه الصفات وأخلاق الله، ما تجسد في الإمام علي عليه السلام من الحلم الإلهي والعفو الإلهي، حينما زاره في خيمته في صفين معاوية وعمرو بن العاص، كما ذكر قصته بالتفصيل السيد حسين العالم قدس سره.

ولقد ذكر الإمام علي عليه السلام بعض صفاتهم الإلهية في خطبة همام صفحات ١٨٣ و ١٨٤ من نهج البلاغة قائلا: ـ

«فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، وخوفا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم. فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، **وحاجاتهم خفيفة**، وأنفسهم عفيفة».

وفي مكان آخر من نفس الخطبة: «قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى. يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل». وفي مكان آخر: «يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه. بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور. لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب».

الرؤية لا تنحصر في رؤية العين. والعين ما هي إلا أداة، أما

الرؤية فتنبعث من معين آخر. أما ترى في النوم ما يراه النائم! أما رأيت في النوم أحدا لم تره من قبل في يقظتك، وهو الآن حي في ذاكرتك لا يزول، أقوى بكثير من رؤية اليقظة! عيونك في النوم مغمضة، فمن أين لك هذه الرؤية؟ وترى أحيانا في الخيال، ما لا يراه الرائي في اليقظة ولا يراه النائم في النوم، فإن مخيلتك بالتحقيق ترى، في حين أنك لست نائما فترى الرؤية الصادقة، ولا مستيقظا فترى باداة العينين، فمن أين لك هذه الرؤية؟ يقول الشاعر: ـ

وعاجمت الأمور وعاجمتني كأني كنت في الأمم الخوالي

ويقول شاعر آخر: ـ

قف العيس في آثار مية واسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

وهذه أيضا نوع من الرؤية، ليست بأداة العين، ولا فيما يراه النائم، ولا رؤية في الخيال، إنما هي رؤية العبرة ونتاج معايشتك للأحداث، فكأنك فيهم! فمن أين لك هذه الرؤية؟

يقول المثل (لو ترك القطا ليلا لنام)، أو (أهدى من القطا). فهذا الطائر الصغير الذي يشبه الحمامة يهتدي طريقه في ظلمات الليل وفي مجاهل الأرض. يقولون إن هذا من الغريزة. ولكنها رؤية أليس كذلك؟ تتمتع بها الحيوانات والطيور، وحتى الإنسان يتمتع بها، ويسمونها الحاسة السادسة. ولكن الأسماء لا تسمن ولا تغني من جوع! والعلماء ضعيفون إلى حد أنهم يكتفون بالأسماء، لأنهم لا يستطيعون اكتناه الحقائق! فيكتفون بالإسم. وما حيلة المضطر إلا ركوبها!

وهناك نوع آخر من الرؤية، لا يحظى بها إلا رجال الله وأولياؤه الصالحون، وهو رؤية الله ﷻ. يقول الإمام علي ﷺ: (رأيته فعرفته فعبدته)، وهذه هي الرؤية الحقيقية لاتصالك بالسميع البصير، وأين ظهور الشمس للعيان كمثل ظهور الله سبحانه وتعالى! فهو معين الحياة، وينبوع

البصر والسماع والكلام، وما عندنا نحن البشر إلا أداة من الشحم للنظر، وأداة من العظم للسماع، وأداة من اللحم للكلام!!!

فقول الإمام ﷺ (فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون) يشير إلى رؤية من نوع آخر، لست فيها كمن قد رآها فحسب، بل أيضا إنك حاضر في حالتها، فإما من المنعمين أو من المعذبين .

تراه حديد الطرف أبلج واضحا   أغر طويل الباع أسمع من سمع

المجلس الرابع والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

وأما الطريق الخامس، لإثبات أن جريان الفلك في البحر يدل على وجود واجب الوجود، هو الإحتياج، وهو أكبر دليل على وجود الصانع. فالله سبحانه وتعالى قد خلق نوع الإنسان، بحيث إن كل فرد من البشر يحتاج إلى آخر في تصريف أموره، فالحاجة تجبره على ركوب الفلك، التي تجري في البحر، كي يصل إلى احتياجاته في أطراف العالم. وكون الحاجة هي أكبر دليل على وجود الصانع، هو أن احتياجات أفراد البشر وممكنات الوجود ذاتية ولا تنتهي، وأن كل فرد من ممكنات الوجود يحتاج إلى الآخر، إلى أن تنتهي السلسلة لا محالة إلى ذات واجب الوجود، الذي هو غير محتاج. **فكل ممكن الوجود البتة لا يتمتع بأي وجود ذاتي ولا كمال ذاتي، بل يحتاج في كل أموره الوجودية إلى ذات واجب الوجود.** وهذا الأمر ثابت ومحقق في الفلسفة الإلهية، بأن الممكنات كما أنها في وجودها وحدوثها، وإتيانها من كتم العدم إلى ميدان الوجود، محتاجة إلى العلة، كذلك هي في بقائها محتاجة إلى العلة، **بحيث إنه لو انقطع فيض الوجود، لرجعت ممكنات الوجود آنا إلى العدم.**

فيا أيها الإنسان المسكين! أتحسب أنك بجمعك المال والثروة أو العلم أو أي كمالات أخرى، ترتفع عنك الحاجة؟ كلا كلا إن ذلك هراء

بحت! فالحاجة في عنق ممكنات الوجود، ما دام الرب ربا والممكن ممكنا، بل إن الثروة وغيرها من زبرج الدنيا وزينتها، تزيد الإنسان حاجة إلى حاجة. أما ترى الحكام والأغنياء وأكابر القوم، كيف تزيد احتياجاتهم على الفقراء؟ فهم في حاجة إلى جيش وحرس وخدم وحشم، وخزائن محروسة وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى.

إلا أن بعضا من ممكنات الوجود تقل احتياجاتهم عن باقي الممكنات، وهم الأنوار الإلهية الذين هم أول ما خلق الله، **لا فرق بينهم وبين خالقهم، إلا أن دفة أمورهم بيد خالقهم يديرها حيث يشاء.** وعلى الرغم من أنهم ذاتا من الممكنات، إلا أنهم من شدة قربهم من المبدأ، متصفون بالصفات الإلهية، إلى حد أن الصفات الإلهية غالبة عليهم، لا صفات الممكنات. فمن شؤون الإحتياج قتل العدو، إذا تيسر الحصول عليه، حتى يسهل على الإنسان الوصول إلى ما يحتاجه من الأمور والمقاصد، ببركة تصفية العدو من الطريق. فإذا قام الإنسان في هذا المقام بالحلم، وبالعفو عند المقدرة، فذلك دليل على تجسد النموذج من الحلم الإلهي، والعفو الإلهي، في وجود هذا الإنسان.

زيارة معاوية وعمرو بن العاص في ليلة صفين خيمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

فقد جاء في كتاب «أنساب النواصب» أنه في غزوة صفين في مجلس معاوية، جرى ذكر مناقب وفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقام كل من معاوية وأصحابه الذين حضروا مجلسه، ممن لهم سابقة معرفة بمقام وعظمة علي عليه السلام، بذكر بعض فضائله ومناقبه. فجاء دور عمرو بن العاص، فقام هذا الشقي بذكر فضائله ومناقبه الكثيرة التي لا تحصى من علم الإمام عليه السلام وحلمه وكرمه ومروءته ورحمته، وأنها على مرتبة عظيمة بحيث إننا، على الرغم من محاربته ومقاتلته في كل يوم، إذا ذهبنا لزيارته في هذه الليلة المظلمة، فإنه لن يتطرق قطعا إلى أفعالنا القبيحة وأعمالنا الذميمة، ولن يصيبنا بأي مكروه ولا بأي عمل إنتقامي.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: «إذا لم تصدقني فقم معي لزيارته في هذه الليلة الظلماء، حتى تشهد بأم عينيك مدى مروءته وشهامته ورأفته وحلمه وكرمه وعفوه». فقال معاوية: «إنه لكذلك فأنا أعرفه جيدا، وأن الذي ذكرته، هو بعض من كمالاته وفضائله». فقاما هذان المنافقان ملثمين في جنح الليل ـ بحيث لا يمكن التعرف عليهما ـ وركبا ناقتيهما، وذهبا إلى معسكر الإمام عليه السلام حتى وصلا إلى باب خيمته، فترجلا وأخبرا أحد الحراس أن يأتي أمير المؤمنين عليه السلام ويخبره، بأن

هناك إعرابيين على الباب، يطلبان إذن الدخول، وخلو مجلسه، حتى يسرا إليه بشيء. فأتى الحارس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبره بذلك، وكان في المجلس مالك الأشتر وجمع من الأصحاب، فأمرهم عليه السلام بالخروج ولم يبق في المجلس غيره. فدخل معاوية وعمرو بن العاص إلى خيمة الإمام عليه السلام، وكشفا عن لثاميهما، ووقعا على قدميه. فلاطفهما الإمام عليه السلام بكثير من الرفق، وبقيا ساعة في حضوره، وأقرا واعترفا بأعمالهما الشنيعة، ثم استأذنا ورجعا إلى معسكريهما.

وبعد ذلك دخل مالك الأشتر وغيره من الأصحاب الخيمة، فتبسم الإمام عليه السلام، وقال أما عرفتم هذين الإعرابيين فقالوا لا، فقال عليه السلام إنهما معاوية وعمرو بن العاص. ولما سمع مالك الأشتر ذلك عض على أصابعه حسرة وندامة، وقال ليتني علمت بذلك! ولو أنني عرفتهما لأرسلتهما بسيفي هذا إلى المصير الذي يستحقانه. وتأسف غيره من أصحاب الإمام عليه السلام على دخول عدوي الله ورسوله في معسكرهم، ثم الخروج منه سالمين وإفلاتهما من قبضتهم. فقام الإمام عليه السلام بتهدئتهم وقال: «ليس من الحمية والمروءة والشهامة، أن يأتي إلينا العدو واثقا بكرمنا وحلمنا، أن نصيبه بأي مكروه». نعم! هكذا يكون خليفة الله في أرضه! أن يكون متخلقا بأخلاقه سبحانه وتعالى.

رحلة في المجلس الخامس والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

يروي السيد حسين العالم قدس سره حكاية هارون الرشيد مع درويش عارف، حيث أثبت له العارف عمليا أن ملكه الذي، كان يمتد من أقصى المغرب في شمال أفريقيا إلى أقصى المشرق في أندونيسيا، أي العالم كله في ذلك الزمان، لا يعادل نعمة واحدة، هي من أبسط النعم الإلهية في الظاهر، ألا وهي شرب الماء ودفع البول!!!

وفي الحقيقة إن نعم الله لا تعد ولا تحصى، وهي كلها من النعم العظيمة. فماذا تشكر لكي تعظم المنعم على نعمه؟ إلا أن يوفقك الله إلى نعمة أخرى، وهي الشكر ليل نهار، باللسان والقلب وجميع الجوارح، وبملايين الملايين من الخلايا، بل بكل وجودك، حتى تصبح لك عادة، ترددها ليل نهار، وتكون مشغلتك الوحيدة في حياتك كلها .**وهذا هو وظيفتك الوحيدة في الحياة ـ أن تكون وردا واحدا، وحالك في خدمته سرمدا.**

يقول السيد حسين العالم قدس سره مخاطبا الإنسان: «يا أيها الإنسان! اكشف الحجاب عن عينيك، وشاهد النور الإلهي، إلى متى تكون وراء الحجب؟ وإلى متى تعبد الأوهام؟ إن الله تعالى ظاهر للعيان، وهو من شدة ظهوره مخفي عن العيون».

إذا تفكرت مليا فيما يقوله السيد، فستعلم على التحقيق بأنك في الأوهام من الخائضين. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «كل ما ميزتموه بأوهامكم بأدق معانيه فهو منكم ومردود إليكم». وحتى الله الذي تتصور أنه هو الله، هو في الحقيقة مخلوقك الوهمي ومردود إليك!!! ومن تعبد إذن؟؟؟ إنك تعبد أوهامك!!!

فلقد ذكرنا آنفا أنك لن تعرف الله إلا حينما تعرف نفسك، وأنك ما لم تعرف الله فكيف تكون داخلا في الدين؟ فإن «أول الدين معرفته» كما يقول مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيد الوصيين وقدوة العارفين علي عليه السلام. وقلنا لك أن في نفسك جزء من الحقيقة الكبرى، وهي تنطوي تحت عباءة هذا القانون الذي أعلنه شيخي العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدس سره: ـ

الوجود الذي لا يتغير، بين زمانين متمايزين، هو الوجود الأصيل الذي لا يفنى

ففي نفسك تنطوي حقيقة الوجدان النورانية، أو (أنا)، أو هويتك الثابتة، أو العالم الأكبر ـ سمه ما شئت ـ وهو الوجود الأصيل الذي لا يفنى. وإذا اكتشفته بتفاصيله، عرفت أنه المعيار الثابت الذي لا يتغير، والذي به تعرف الله سبحانه وتعالى. فحينذاك تكون النفس قد وجدت ذاتها فتخرج من محيط الموت ـ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فبهذا الميزان، وهو الجزء من الحقيقة التي فيك، تتعرف على الحقيقة العظمى ألا هو الله سبحانه وتعالى. وفي هذا تنطوي مصداقية الحديث النبوي الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فالسالك الذي نفذت معرفته في تفاصيل (أنا)، ووجدت نفسه ذاتها، يكون (أنا) هو الذي يتكلم عن الحقائق الكونية، بكل جزم

وقاطعية وثبات، ومبرأ عن الشكوك والظنون. فإذا قال يجب أن تملك الدنيا لا أن تملكك الدنيا، وأن تملك المال لا أن يملكك المال، وأن تملك الشهوة لا أن تملكك الشهوة، وأن تكون سيد الدنيا لا عبدها، وأن تكون سيد المال لا عبده، وأن تكون سيد الشهوة لا عبدها، فهو (أنا) الذي يتكلم بكل حزم وثبات. وإذا صلى فإنه (أنا) الذي يصلي بحضور القلب، وإذا ذكر الله فإنه (أنا) الذي يذكر الله ذكرا كثيرا، وإذا سبح لله فإنه (أنا) الذي يسبح لله بكرة وأصيلا. وإذا عشق الله فإنه (أنا) الذي عشق الله، وإذا فني في الله فإنه (أنا) الذي فني في الله، كرجوع القطرة إلى البحر ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. وإذا تم الفقر فهو الله ـ كما يقوله الرسول الأعظم ﷺ ـ فذلك أعلى درجات العرفان، وهو منتهى آمال العارفين.

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا في حبها متراخيا

فانظر كيف يصف إمامنا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام المتقين، في خطبة همام، في صفحة ١٨٤ من نهج البلاغة: ـ

قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى

فانظر يا عزيزي أين تكون قرة عينك! إنه العالم المظلم المتغير، والأفكار المتبعثرة التي لا تكاد تسيطر عليها، والأوهام التي تظن أنها الدين، وأنه الله. إن قرة عينك في كل شيء زائل ومتغير، إن قرة عينك في كل شيء إلا ما لا يزول! وما أعظم زهادتك فيما يبقى، وهو هذه الحقيقة الثابته الباقية النورانية التي هي فيك، والروح الذي هو منه وقد نفخه فيك. وما أعظم زهادتك فيما يبقى، وهو الحقيقة العظمى ألا هو الله تعالى!!!

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا كشفت الحجاب عن عينيك، وشاهدت النور الإلهي، تراه ظاهرا للعيان، وهو من شدة ظهوره مخفي عن العيون! تماما كمثال السمكة التي تعوم في ماء البحر لم تجد في حياتها غير الماء، والماء من شدة ظهوره مخفي عن عين السمكة، لأنها لم تشاهد غيره طوال حياتها. كذلك الإنسان لم يشاهد في حياته ضدا لله، فكيف يشاهد الله رغم ظهوره للعيان؟ إنه الظاهر الباطن! وأين ظهور الشمس للعيان كمثل ظهور الله سبحانه وتعالى!!!

يقول مولانا ومقتدانا الإمام الحسين (روحي له الفداء) في دعاء عرفة: ـ

«إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك. كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك .**أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك؟ حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟** ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟». ويقول في مكان آخر من نفس الدعاء: «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الإستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الإعتماد عليها».

الفيوضات الإلهية والتجليات الربانية

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «إن الفيض الإلهي والتجليات الربانية حاضرة لكل فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذات، والتوجه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجودية، لأنه جل اسمه ليس ممسكا طرفة عين».

إذا تدبرت مليا فيما يقوله السيد، من أن الفيض الإلهي والتجليات الربانية حاضرة لكل فرد من أفراد البشر، تعرف على التحقيق، بأن هذه الفتوحات ميسرة لكل أفراد البشر، لا الأنبياء وحدهم، ولا محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرين وحدهم، بل إنها حاضرة لكل البشر. فالخطوة الأولى هي أن تصفي ثقافتك أولا من الترهات، فالثقافة المعوجة هي المانعة الأولى، التي تدرأ عنك الفيض الإلهي والتجليات الربانية. أو ما قرأت القرآن حيث يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. فالله سبحانه وتعالى يقول بأن الله يكلم البشر إما كذا أو كذا. فهل نحن نخاطب الجدران والنصب؟

أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ثانيا لا بد من تصفية الذات، كما يقول السيد حسين العالم قدس

سره. لا بد من تزكية النفس عما سوى الله، والتجافي عن دار الغرور، والجهاد الأكبر الذي يفضي إلى الوجدان النوراني، وإلى روح من الله نفخه فيك، حتى يبزغ ويسطع في كل وجودك، ويحييك الله بعد أن تكون ميتا ومقبورا في بدنك المادي، كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فانهض إلى التطهير والتزكية التي ... تفضي لوجدان ونور سناها
تفضي لروح النفخ غير ملوث ... فبزوغه ختم الردى ومناها

ثالثا أن تجعل الآخرة أكبر همك ودوما نصب عينيك، وأن تتجافى عن دار الغرور، وأن تنيب إلى دار الخلود. فإذا تيقنت بأن النشأة الدنيا ممرك إلى دار الخلود، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الآخرة هي دار القرار، وهي دار الحصاد، وأن وطنك هناك لا هنا، فحينذاك تكون قد غيرت اتجاهك من الدنيا صوب الآخرة. يقول الرسول ﷺ: «إن العبد إذا كان همه الآخرة، كف الله تعالى عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، فلا يصبح إلا غنيا، وإذا كان همه الدنيا، أفشى الله تعالى ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، فلا يمسي إلا فقيرا، ولا يصبح إلا فقيرا». ويقول ﷺ: «خيركم أزهدكم في الدنيا وأرغبكم في الآخرة».

وهذا لا يعني انزوائك في الجبال والكهوف، بل أن تكون في معمعة الحياة الدنيا وأنشط إنسان على وجه البسيطة، ولكن يجب أن يكون همك كبيرا، بكبر عالمك الأكبر الذي انطوى فيك، وأن يكون اهتمامك بالعلل الغائية من خلقك، لا أن تكون الدنيا مبلغ علمك وأكبر همك، ولا مثل البهيمة همها علفها!!!

رابعا أن تتفرغ من غير الله، وتتجه إلى الإنقطاع إلى الله، والإنشغال بذكره وحبه وعشقه، كما يقول إمامنا علي عليه السلام: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»، وكما يقول إمامنا الحسين عليه السلام:

«ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك»، ويقول عليه السلام في مكان آخر: «خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا». فالفراغ من غير الله هو الفراغ من (الأغيار) بعينه، كما يقول أبو عبد الله الحسين، روحي له الفداء: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». فإذا أنت تيقنت ـ فكرا وعقيدة ولسانا وقلبا وبكل وجودك ـ بأن لا أصالة البتة للموجودات، وإنما الأصالة للوجود وحده،، وأن الموجودات هي مجرد تعينات، وأنها ليست شيءا مذكورا، هنالك تتفرغ كليا من غير الله، لأنك حينذاك لا ترى إلا الله.

وهل تعرف ماذا يعنيه السيد حسين العالم قدس سره، بأن الكمالات الوجودية تصل إليك، لأنه جل اسمه ليس ممسكا طرفة عين؟ إنه يعني بأن فيضه تعالى حاضر لكل إنسان، ولكل أفراد البشر، وهو تعالى لا يمسك فيوضاته وتجلياته عن المستعدين والمتلقين طرفة عين. ففيوضاته وتجلياته متدفقة منهمرة تملأ الخافقين، ولكن ما أقل المتلقين!!!

فلننظر مليا في الكون كي نأتيك بالأمثال، حتى تستوعب الأمر جيدا. فلنضرب مثال الأمواج الكهرومغناطيسية التي تملأ الكون، وهي ليست ممسكة طرفة عين، ولكن لا يتلقاها جهاز التلقي إلا إذا كان صالحا. أما إذا كانت الأجهزة فاسدة، فتحرم من تلقي تلك الأمواج، رغم أن الأمواج تملأ الأثير.

واعلم أن كثيرا جدا من الآيات وردت في القرآن الكريم تحث على العمل الصالح، الذي هو العمل الذي يصلح جهازك الذي فسد في عالم الكون والفساد. فصلاح جهازك يجعلك مؤهلا لتلقي الأنوار الربانية والفيوضات الإلهية التي تملأ الخافقين. فالله أقرب إليك من حبل

الوريد، ولكنك بعيد عنه بسبب فساد أجهزتك، وهذا الفساد، مع الأسف الشديد، يكون مانعا من تلقي الأنوار والفيوضات. أو ما سمعت الله تعالى يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فأين أعينك التي لا تبصر؟ وأين آذانك التي لا تسمع؟ وأين قلوبك التي لا تفقه؟ هذه هي الأجهزة المتلقية في وجودك، طمستها بأياديك الجاحدة وأفكارك المعوجة، ثم أنت لا تقوم بالعمل الصالح لإصلاحها. وبدل ذلك تملأ حياتك بالظنون والأوهام، وسوء الظن بهذا أو ذاك، والشك في عباد الله الصالحين، كأنك خير محض والآخرون شر محض!!! يقول الإمام علي عليه السلام: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره».

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

ويؤكد السيد حسين العالم قدس سره على دور العلم والمعرفة للإنفتاح على روائع النفس والكون، ويقول بأن تحصيل العلم والمعرفة تنفخان فيك يقظة الروح، وتهبان لك ثروة الحياة الروحانية. ويقول قدس سره، في مكان آخر، بأن العلم والمعرفة تزيد الإيمان قوة، وتوصل الإنسان إلى المراتب العالية من السعادة، بل إنها توصل الإنسان إلى مراتب من الإيمان، يكون العمل فيها وفي وقتها يعادل عمل الثقلين. وأعطى السيد لذلك مثالا من إيمان الإمام علي عليه السلام يوم الخندق، حتى قال الرسول صلى الله عليه وآله عنه: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله». وقال صلى الله عليه وآله أيضا: «الضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين».

ويعزو السيد حسين العالم قدس سره هذه البطولات التاريخية للإمام علي عليه السلام إلى إيمانه القوي وإلى سعة علمه ومعرفته، حتى قال

سلام الله عليه: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا». فعليه صلوات الله خالدة الدوام، عدد قطر الرهام[1]، وزنة الجبال والآكام، ما أورق السلام، واختلف الضياء والظلام.

(١) المطر الخفيف الدائم.

المجلس الخامس والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

يا أيها الإنسان ويا أيها الحيوان أو ما تشاهد الماء جاريا دوما في خدمتك؟ إنك لا تعرف قدر النعمة الإلهية لأنها مبذولة، ولو فقدت النعمة لعرفت آنذاك قدرها. فلقد نقل أن هارون الرشيد ذهب إلى درويش عارف فقال له عظني، فقال له العارف: «لو أنك كنت عطشانا، ولم يكن الماء في متناولك، وكنت مشرفا على الهلاك، فبأي قيمة تشتري بها كأسا من الماء يرويك من الظمأ؟» فأجاب هارون الرشيد: «أعطي نصف ملكي في مقابل هذا الماء الذي يرويني من ظمأي». فقال العارف: «لو أنك شربت ذاك الماء، وفي وقت الحاجة لم يخرج البول منك، فماذا تدفع حتى تتمكن من البول؟». فقال هارون الرشيد: «النصف الباقي من ملكي». فقال العارف: «**ما قدر الملك الذي يبذل لشرب الماء ودفع البول؟**».

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، فذكر جريان الماء ووصوله إلى بلاد نائية. وكذلك ذكر عظمة نعمة الماء في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. إن الآيات الإلهية قد ملأت العالم بعظمتها، ولكن متى يتنبه الإنسان إلى ذلك ومتى يؤمن بها؟؟؟

ومن الآيات الإلهية في ماء المطر أنه ينزل من السماء إلى الأرض، وبعد ذلك ينفذ في داخل الأرض إلى جذور الأشجار، ثم يصعد إلى أعالي الأشجار. وإذا سألت العالم الطبيعي كيف ينزل الماء من الفضاء إلى الأرض؟ فسيقول لك لأنه جسم تجذبه جاذبية الأرض إليها، وإذا سألته إذا كانت الجاذبية تجذبه إلى الأرض، فكيف يصعد الماء إلى الأغصان والأوراق والأثمار؟ فسيقول لك جاذبية الشجر تجذبه إلى أعلى. وإذا سألته من جعل قانون الجاذبية التي تجذب الماء من أعلى إلى الأرض، ومن أودع الجاذبية في الأشجار التي تجذب الماء في الإتجاه المعاكس، أي من أسفل إلى أعلى؟ فبهت الذي كفر!!!

يا أيها الإنسان! اكشف الحجاب عن عينيك، وشاهد النور الإلهي، إلى متى تكون وراء الحجب؟ وإلى متى تعبد الأوهام؟ إن الله تعالى ظاهر للعيان، وهو من شدة ظهوره مخفي عن العيون!!!

يا من اختفى لفرط نوره　　　الظاهر الباطن في ظهوره

إن الفيض الإلهي والتجليات الربانية حاضرة لكل فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذات، والتوجه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجودية، لأنه جل اسمه ليس ممسكا طرفة عين. فقد وردت حكايات كثيرة عن أشخاص كانت الدنيا نصب أعينهم، ولكن حينما تغيرت إتجاهاتهم، وأصبحت الآخرة نصب أعينهم، وتوجهوا بكليتهم إلى الله سبحانه وتعالى، ظهرت أيادي غيبية لإيصالهم إلى مقصودهم.

الحكيم السنائي وقصته مع المجنون

فلقد نقل أن الحكيم السنائي كان شخصا فاضلا ومتبحرا في الشعر، قل أن يوجد له نظير. وسبب هدايته ويقظته من سبات الدنيا، أنه نظم قصيدة عندما قام السلطان إبراهيم بتسخير قلاع الكفر في الهند، وكان ينوي أن يكتب عريضة إلى السلطان يطلب منه الجائزة. وكان في تلك المدينة رجل يتظاهر بالجنون، وكان يشرب الخمر ثم يتمادى فيما يشبه الهذيان. وفي يوم من الأيام جاء الحكيم السنائي إلى حمام عمومي، وسمع من داخل الحمام صوت ذلك المجنون وهو يقول: «إملأ الكأس يا ساقي واسقني حتى أتخلص من هذه الأفكار». فقال الساقي: «إن السلطان إبراهيم رجل فاتح في الحروب، لا يصمد أمامه مبارز في ميادين القتال». فقال المجنون: «صه! السلطان إبراهيم لم يعط بلاد الإسلام حقه من النظام والعدل، وغزا بلاد الكفر، وأهل الإسلام يعانون من ظلم جلاوزته، وقد ذهب لغزو الهند لأجل المال».

واستطرد المجنون قائلا: «إملأ الكأس يا ساقي فليخسأ الشاعر السنائي». فقال الساقي: «إن السنائي شاعر عظيم وأديب وفاضل، ورجل لطيف الطبع فكه ظريف». فقال المجنون: «صه! فلو كان السنائي لطيف الطبع لما شغل نفسه بما لا يعنيه، ولو سأله الله غدا ماذا قدمت لنا من أعمالك، وما أتيت به من زاد لدار الآخرة، لأجاب بأنه أتى إلى الله بمدح السلطان إبراهيم، وملأ صحيفته بالنفاق والترهات، ولا يعلم

لماذا خلق وبماذا يجب أن ينشغل». فلما سمع الحكيم السنائي هذه الكلمات العظيمة وهذا الكلام الحق من ذلك المجنون، تنبه إلى نفسه، وتغيرت حالاته، واستيقظ من سبات الغفلة، وصحا من سكر الخطايا، وعزف فجأة عن الدنيا وزبرج الجاه، وانزوى في منزله كالعنقاء في جبل القاف، واستغرق في عبادة الخالق، حتى أن الملك بهرام شاه أراد أن يزوجه أخته لم يقبل بعرضه، وأعرض عن غير الله، واهتدى ببركة كلام المجنون! وحينما توجه بقلبه إلى دار الخلود، برزت يد غيبية في وجوده، ترفعه كل يوم في معارج الترقي[١].

ومن الآيات الإلهية أنه تعالى ينزل من السماء ماء تعتمد عليه حياة الإنسان كليا، وأيضا من هذا الماء وعناصر أخرى يتكون غذاء الإنسان، لأن الماء يجري في عروق الأشجار وأغصانها وأوراقها وثمارها، وتتكون تدريجيا الخضروات والفواكه والشعير والقمح وسائر الحبوب التي يتغذى منها الإنسان ويعيش بها في هذه الحياة.

ويشهد الله أن الآيات الإلهية لا حد لها ولا حصر، ولكن كل هذا يحتاج إلى إنسان متدبر متفكر يتأمل في هذه المعجزات[٢]. أو ما فكرت كيف أن الماء يجري في جوف الأشجار، وأن كل ورق إذا تفحصته تجد فيه العجب العجاب! ستجد فيه عرقا كبيرا هو أصل الورق، ثم تتشعب عن هذا العرق الكبير عروق صغيرة في طول الورق وعرضه، ويشبه العرق الكبير النهر، والعروق الصغيرة جداول تنشعب عن النهر، ثم تنشعب عن الجداول السواقي التي هي أصغر منها، ثم تنشعب عن

---

(١) في عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت.

(٢) فالإنسان بطبعه يتعود على هذه المعجزات، ويتلقاها كأنها أشياء عادية في حياته. فالعادة هي الحجاب في حياة الإنسان، تحجبه عن روائع خلق الله. فكسر العادة عبادة، كما يقول شيخي ومولاي صادق العنقاء قدس سره.

السواقي خيوط عنكبوتية غاية في الصغر، منتشرة على سطح الورق، تكاد أن تحتجب عن حواس الإنسان.

وهناك مقسم يقسم الماء بقدر الكفاف على هذه العروق، لأنه إذا قل الماء في أي جزء صغير من الورق، عن قدر الكفاف، يبس ذلك الجزء وزالت طراوته، وإذا زاد الماء عن ذلك القدر، فسد ذلك الجزء ونتن[١]. وكل ورق وكل زهرة وكل ثمرة تتكلم إليك: «أنا ذاك الماء الشفاف، وذاك الطين الذي يدوسه نعلاك، فانظر إلي جيدا، كيف أن يد القدرة رسمت علي لوحتها الرائعة، من ألوان زاهية وأطعمة لذيذة وروائح عطرة، وكيف أن يد القدرة خلقت من الطين والماء ـ الذين هما أرخص الأشياء طرا، وأكثرها وفرا على وجه هذه البسيطة ـ مناظر رائعة للسلاطين!!!». فيا أيها البشر الغافل! إذا رأيت رسما على ورق، صدقت بالضرورة بوجود الرسام. أليست هذه الآثار الرائعة كافية لتصديقك بواجب الوجود؟

فيا أيها الأعزاء!! من دون العلم والمعرفة، يتعذر على الإنسان الإنفتاح على هذه الروائع، التي تنبئك بوجود الخالق. يجب تحصيل العلم والمعرفة، فهما تنفخان فيك يقظة الروح، وتهبان لك ثروة الحياة الروحانية. فالعلماء وإن كانوا يعانون من الجوع، ومن الجهد الشاق لتحصيل العلوم، فالعلم لا محالة تعطي نتائجها الطيبة، وتؤتي أكلها إن آجلا أو عاجلا، في هذه الدنيا أو في دار العقبى. فلقد قالوا إن العلم يعطي وإن كان يبطئ.

---

(١) فسبحان الله الخالق الرازق المدبر! وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قصة القاضي أبي يوسف مع هارون الرشيد

وسأضرب لك مثالا دنيويا على قدر فهمك، حتى تفهم بنفسك النتيجة الأخروية، وثمار العقبى، للعلم والعلماء.

فلقد نقل أن القاضي أبا يوسف في حين اكتسابه للعلوم، كان مفلس الحال، وفاقد المال، إلى حد أنه كان يكتب فتاويه الإجتهادية على الصفائح السفالية، وعلى عظام أكتاف الأغنام، ويضعها في صندوق، ولم يكن عنده شيء من الدرهم والدينار لشراء حاجاته من ورق الكتابة. فجاء يوما إلى أمه وطلب منها طعاما، ولم يكن في المنزل شيء منه. فأشارت الأم إلى الصندوق، الذي كان كنزه من العلوم والرقوم، تعني بذلك بأنه كان يصرف عمره في تحصيل قطع السفال، ويكتب عليها أرقاما ثم يضعها في الصندوق، بدل أن يدبر أمور معيشته اليومية. فلما لاحظ القاضي أبو يوسف ضعف همتها، أقسم أن يضع حلوى من العسل على طبق من لجين، ثم يضع الحلوى في فمها بملعقة من ذهب. وصادف في نفس اليوم أن كان جار القاضي يبني بيته، وقد ضيق عليه الطريق، فقال له أبو يوسف: «يا عزيزي لا تضيق الطريق، ولا تنتهك حق الجار». فأجاب جاره مستهزئاً: «متى ملكت قطارا من جمال، ولم يسعها هذا الطريق، حينذاك أخرب البناء وأوسع لك الطريق». فزاد همه وغمه في ذلك اليوم من كلام هذا الجاهل.

ومن القضاء والقدر أن وقع الخليفة هارون الرشيد في ذلك اليوم

في خصام مع زوجته المحبوبة زبيدة، وأدى ذلك الخصام إلى أن زبيدة اتهمت الخليفة بأنه من أهل النار. فأقسم الخليفة بأنه لو كان من أهل النار، فإن زبيدة حرام عليه ومطلقة. وبعد ذلك الخصام رجعت المياه إلى مجاريها، وحصلت المودة بينهما. فتحير الخليفة في أمره ودعا أبا حنيفة فلم يجدوه، فالتجأ إلى أبي يوسف الذي كان تلميذ أبي حنيفة، فاستفسر منه الأمر وطلب الفتوى. فتأمل أبو يوسف في هذا الأمر ثم سأل الخليفة: «هل حصلت لك المقدرة على المعصية في يوم من الأيام ثم منعت نفسك منها خوفا من الله؟» فقال الخليفة: «نعم في يوم من الأيام صادف أن رأيت جارية زبيدة، وهي في كمال حسنها وجمالها، وكانت في متناول يدي، ومالت نفسي كل الميل إليها، ثم منعني خوف الله من ذلك العمل». فقال أبو يوسف: «في ظاهر الأمر إنك من أهل الجنة». فسأله الخليفة: «ما هو الدليل على ذلك؟» فتلا أبو يوسف هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

فارتاح الخليفة من هذا الجواب، وأمر بأن يملأوا فم القاضي بالجواهر، ووهبه العطايا والهدايا المخصوصة، ووهبته زبيدة قطارا من الجمال محمولة بأشياء ثمينة. وينقل أنهم حملوا في ذلك المجلس إلى أبي يوسف حلوى من العسل على طبق من لجين، وعليه ملاعق ذهبية، فلما نظر إلى الطبق، تذكر القسم الذي أقسمه أمام أمه، فحمل الطبق والهدايا والعطايا والجمال إلى منزله. ولم يكن الجار قد فرغ من عمارة منزله، فإذا بأبي يوسف، مع قطار من الجمال محملة بأشياء ثمينة، قد وصل إلى المنزل، فوسع الجار له الطريق فورا. ولما دخل منزله حمل طبق الحلوى إلى أمه، ووضعه بملعقة من ذهب في فمها، مبراً بقسمه.

لضربة علي عليه السلام يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين

لقد علمت الآن ما هو نتيجة العلم في آخر المطاف في الأمور الدنيوية. فاعلم الآن بأن نتيجة العلم والمعرفة هي كذلك في الأمور الأخروية، فالعلم والمعرفة تزيد الإيمان قوة، وتوصل الإنسان إلى المراتب العالية من السعادة، بل إنها توصل الإنسان إلى مراتب من الإيمان، يكون العمل فيها وفي وقتها يعادل عمل الثقلين.

أما سمعت قصة مولاك علي عليه السلام مع عمرو بن عبد ود، التي أوردها الشيخ المفيد والشيخ الطبرسي وابن شهراشوب وابن أبي الحديد وسائر المؤرخين؟ فقد اتفقت العامة والخاصة على هذه الرواية، بأن عمرو بن عبد ود كان يجول في معركة الخندق مناديا: «هل من مبارز». فقام رسول الله صلى الله عليه وآله مسائلا: «من سيبارزه». فلم يجبه أحد، وقام علي عليه السلام وقال: «يا نبي الله أنا سأبارزه». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنه عمرو فاجلس فلعل أحدا غيرك سيقوم لمبارزته». فطغى عمرو بن عبد ود وتجبر قائلا: «أليس فيكم من يبارزني؟ أين الجنة التي تقولون من قتل منكم دخلها؟». فقام علي عليه السلام مرة أخرى قائلا: «أنا سأبارزه يا رسول الله». فقال له الرسول صلى الله عليه وآله اجلس. وفي المرة الثالثة أذن له بالمبارزة، فألبسه درعه الشريف، ووضع عمامته الشريفة بيده على رأسه، وقلده سيف ذي الفقار بيده الشريفة، وقال له اذهب لمبارزته، ثم قال: «اللهم

أعنه». وعندما برز أسد الله إلى المعركة، قال رسول الله ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، (فداك نفسي يا علي! كيف أن اليقين والعلم والمعرفة تصل بالإنسان إلى هذا المقام المنيع!).

وعندما وقف علي عليه السلام أمام عمرو، عرفه عمرو، فقال له ارجع لعل أحدا غيرك يبارزني، فإني لا أريد أن أقتل كريما مثلك، وكانت بيني وبين أبيك صداقة، ولا أريد أن أقتل ابنه. فقال علي عليه السلام: «ولكني أريد قتلك ما دمت على الكفر». ولكن الملعون كان يكذب، فقد رأى عليا عليه السلام في ميدان القتال، وتذكر ضرباته في يوم بدر وأُحد، فخاف على نفسه، وأراد الإفلات من سيف علي عليه السلام بهذه الأعذار الواهية. فغضب الملعون من كلام علي عليه السلام، ونزل من على فرسه، وضرب عليا عليه السلام بسيفه، فشق درعه وجرح رأسه المبارك. فقام علي عليه السلام في لمحة بصر وضرب بسيفه على عنقه[1]، ففصل الرأس عن البدن، وقال الله أكبر. وعرفوا من تكبيره بأن عليا عليه السلام قد قتل عمرو بن عبد ود. وجاء برأس الملعون إلى النبي ﷺ، فقال الرسول الأكرم ﷺ: «يا علي طوبى لك فلو وضع عملك اليوم في كفة ميزان وفي كفة أخرى وضع عمل أمتي جميعا لزاد عملك اليوم على عمل أمتي، فلا بيت من بيوت المشركين إلا ودخله الضعف بعملك اليوم، ولا بيت من بيوت المسلمين إلا ودخلته العزة بعملك اليوم». وجاء في الحديث النبوي أيضا: «الضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين».

---

(١) وفي رواية أخرى ضرب الإمام ساقه بسيفه فقطعه، فوقع الملعون على الأرض وهو ينزف دما، وبدأ بسب علي عليه السلام والإمام صابر محتسب، حتى هدأ الملعون، وبعد ذلك جاء فقطع رأسه المشؤوم.

رحلة في المجلس السادس والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

إن السيد حسين العالم قدس سره قد كتب بالتفصيل عن الحيوان والماء والهواء، وحتى عن عجائب خلق الجنين، قبل حوالى سبعين سنة[١]. وإن المرء ليتعجب على غزارة علمه في تلك الحقبة من الزمن، التي كانت الثقافة تعيش أحلك أيامها، وخصوصا في هذه البقعة من الأرض. وحتى دراساته في النجف الأشرف لا يمكن أن تكون قد زودته بهذه الغزارة من العلوم الطبيعية، كما نسميها اليوم. فالواضح أنه كان مولعا بالأسفار التي هيّأت له الإحتكاك بالحضارات المختلفة. ففي الأرض للحر الكريم منادح، وللأرض من كأس الكرام نصيب! وكان أيضا مولعا بقراءة الكتب، لا في ميدانه الخاص في الشريعة الإسلامية فحسب، بل أيضا في الكتب العصرية والثقافة العالمية. والكتب الكثيرة التي خلفها في مكتبه، والتي جمعتها قدر استطاعتي، ووضعتها في ركن خاص في المكتبة في أوقاف اللواتية في مطرح، تؤكد ما أقوله.

(١) فلقد وجدت في مخطوطة له بأنه ابتاع دفترها (الخالي) في عام ١٣٤٥ هجرية، أي قبل أكثر من ثمانين سنة. وذكر أنه ابتاعها بشلنك ونصف من مدينة ممباسا في شرق آفريقيا.

وأتذكر أني في طفولتي كنت أقضي ساعات طويلة في مكتبته الخاصة، ألتهم الكتب التهاما. وأتذكر أن أحب الكتب إلى نفسي كان كتاب (جامع السعادات) للعلامة النراقي، وكان فقيها عارفا، في أوائل القرن الثاني عشر الهجري. وقد خلف العلامة السيد مهدي بحر العلوم، الذي كان أعلم علماء عصره ـ وكان أيضا عارفا فقيها ـ في مركز المرجعية الدينية في النجف الأشرف. وقد ولد العلامة بحر العلوم في عام ١١٥٥ وتوفي في عام ١٢١٢ للهجرة. وقد كتب رسالته المشهورة في السير والسلوك، والتي تعتبر نسيج وحدها، بشهادة العلماء الأعلام، وعلى الأخص العارف الكبير السيد علي ميرزا القاضي قدس سره. فقد قال العلامة الطباطبائي أن أستاذه السيد علي ميرزا القاضي كان يقول بكل جزم وقاطعية بأن هذه الرسالة هي للسيد مهدي بحر العلوم، وأنه لم يكتب في العرفان كتاب بهذا الإيجاز وبهذه الشمولية في المطالب العرفانية ـ راجع صفحة ١٧ من رسالة السير والسلوك للسيد مهدي بحر العلوم، وشرح العلامة المرحوم آية الله سيد محمد حسين الحسيني. والواضح أنه في تلك الأيام الخوالي ـ قبل حوالى ٢٥٠ سنة ـ كان العرفاء هم المراجع الدينية في النجف الأشرف. وقد انقلبت الآية بعد استقلال العراق في العشرينيات من القرن الماضي، فماذا حدث؟؟؟

تساءل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين

علما بأن حوزة النجف الأشرف بدأت بحوزة الفقراء ـ يعني حوزة العرفاء ـ قبل حوالى ١٢٥٠ سنة، يعني في أيام الأئمة ﷺ، وهم منها مرأى ومسمع. وأضيفت إليها بعد قرون حوزة الفقهاء.

ومن أغرب الأشياء التي جاءت في هذا المجلس، ما جاء تحت فصل (عجائب خلق الجنين)، ويجب أن تعرف أن هذه الغرائب كانت قد كتبت قبل حوالى سبعين سنة. فلقد ذكرت هناك أشياء عجيبة عن خلق الجنين، تستحق القراءة والتأمل والتدبر في قدرة الخالق، الذي خلقنا

ولم يشهدنا خلقنا، ولم نكن نعلم عن تلك المعجزة حين حدوثها. فسبحان الخالق المصور الذي خلقنا على هذه الصورة الرائعة!!! علما بأن ما كتبه عن خلق الجنين قبل حوالى سبعين سنة ينطبق تماما مع العلم الحديث، ومع علم الطب في يومنا هذا (سنة ١٤٢٧ هجرية).

يقول السيد حسين العالم قدس سره، حينما يتكلم عن طائر الهدهد وقصته مع النبي سليمان ﷺ، أن الطائر تكلم عن التوحيد الخالص، وبوجوب السجود لله. ثم قال: «فيا أيها الناس! ما بالكم لم تتعرفوا على التوحيد، بمقدار هذا الطائر الذي يعرف الله، ويعرف السجود لغير الله؟ أما تستحي أن تسمي نفسك إنسانا ولما تعرف ربك!!!»

وإذا تكلم السيد عن التوحيد الخالص، فهو يعني بوجوب السجود لله سبحانه وتعالى جسما وجوارحا وعضلا وشعرا، وعصبا ودما ولحما وعظما وبشرا، وقلبا وقالبا ووجدانا وروحا، بل بكل الخلايا التي تعد بملايين الملايين، وبكل القوى الكامنة والمختبئة في وجود الإنسان. ألا تقرأ سورة الفاتحة كل يوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؟ فلماذا صيغة الجمع؟ لأنك لست فردا واحدا، بل مجموعة من الأشياء والقوى التي ذكرتها الآن، على طريق المثال لا الحصر. فلربما تقولها باللسان، وجوارحك وقلبك وخلاياك ونفسك... في واد آخر. فالعبادة والإستعانة بالله يجب أن تكون وردا واحدا، وأن تكون بقوة النهر المتدفق في اتجاه واحد، وليست ضعيفة متبعثرة، تتجاذبها القوى في اتجاهات مختلفة، فتكون نتيجتها أن يبقى طلبك ودعاؤك في محله، يراوح مكانه، ولا يتحرك شبرا إلى الأمام، ومن ثم لا يصل هذا الطلب والدعاء إلى ربك، ومن ثم عدم الإستجابة، وعدم تحقيق العبودية الحقة فيك، وعدم الإجابة للإستعانة، كما ترى النتائج بالعين المجردة. وهل ينفع اللسان وحده

في غياب القوى العملاقة في وجودك!!! وهل تنفع الشعفة[1] في الوادي الرغب[2]!!!

فلا بد من معرفة هذه النفس الصعبة المعقدة، والقوى الكامنة فيها، ولا بد من جهاد أكبر مستمر في أعماق نفسك وبواطنها، بل في أعماق الأعماق وفي بواطن البواطن، حتى تكتشف هناك النور الإلهي[3]. فإن الطائر يقول: «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون». فما هو الذي تخبئه وتخفيه من أشياء تستثمر فيها اهتماماتك؟؟؟ فإن توجهت اهتماماتك لغير الله فهو حتما سجود لغير الله. فمثلا لو صبت اهتماماتك في المال فهو السجود للمال، وإن صبت اهتماماتك في شهواتك فهو السجود للشهوات، وإن صبت اهتماماتك في قضايا الجاه والمنصب فهو سجود للجاه والمنصب، وإن صبت اهتماماتك إجمالا في المسائل الدنيوية فهو السجود للدنيا، وإن صبت اهتماماتك في الأنانية وحب الذات، فهو السجود لذاتك، وهو الشرك الخفي بعينه، لأن نفسك حينما تتمحور على الأنانية وحب الذات، فإنك تبرئها باستمرار، جاهلا حبائل الشيطان في ذاتك، فهو يجري فيك مجرى الدم، كما يقول الرسول الأعظم ﷺ.

فانظر ماذا تنوي ومدى إخلاصك لله، فهذا هو الخبء وهذا هو ما تخفون. فلقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «النية الحسنة تدخل صاحبها الجنة»، وأيضا: «أخلص دينك يكفيك القليل من العمل»، وأيضا: «أخلصوا أعمالكم لله فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له». وقال الشاذلي: «بمقدار الإخلاص في النية يكون الثواب ويكون الترقي».

---

(١) الشعفة = القطرة الواحدة.

(٢) الوادي الرغب = الوادي الذي لا يسيل إلا من مطر كثير.

(٣) يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الإستبصار».

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن خلاصنا من الشرك الجلي وحده ـ يعني النطق بشهادة التوحيد باللسان لا بالقلب ـ لا يوصلنا إلى الله، ولا يهدينا الله لنوره ـ كما ذكره الله تعالى في سورة النور: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. ويقول بأن الشرك الخفي أرذل من الشرك الجلي. فماذا يعنيه السيد قدس سره؟ إنه يعني بالتأكيد كل ما ذكرناه الآن من اهتماماتك في غير الله فهو الشرك الخفي بعينه. فإنك بعملك واهتماماتك تشرك المال مثلا بالله ـ وإن لم يكن ذلك باللسان ـ وتشرك الشهوات والجاه وحب الذات مثلا بالله ـ وإن لم يكن ذلك باللسان. فأنت حينئذ كما يقول الشاعر: (جعجعة ولا أرى طحنا)! فالمطلوب منك فراغك من غير الله، وكل المال والشهوات وغيرها إلى الله، فإنه أودع فيك الغرائز وهو يديرها بأحسن وجه. فلو عرفت وتيقنت بأنه يديرها بأحسن وجه، ولا حاجة البتة لاهتمامك بها وتمحورك حولها، فإنك حينذاك تتخلص من الأغيار، ولا ترى إلا الملك المهيمن الجبار!

كمال النفس والأمن الإلهي

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن بدنك خلق كمقدمة لكمال النفس، ولم يكن البدن أصلا مقصودا بذاته. وكيف أن الله استثمر كل هذه الحكمة والفنون في صنع بدنك، حينما كنت جنينا في بطن أمك. ثم يقول فما ظنك بخلقة النفس، التي هي مقصودة بذاتها، كيف استثمرت فيها اللطافات والفنون الرفيعة!!! ويقول بأن الله خلقك في أحسن تقويم، وأمرك أن تتبع طريقه، حتى تجد نفسك في الأمن الإلهي.

فماذا يعني السيد بالأمن الإلهي؟ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ[1] وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولا أعلم أن أحدا لا يريد الأمن والأمان في داخله، بل هو ضالة كل البشر. ولا أعلم أن أحدا لا ينشد السعادة والطمأنينة في داخله، بل هي ضالة كل البشر. فكل السعي البشري على الأرض هو من أجل تحقيقها، ولكن السعي الهداف نادر ندرة الكبريت الأحمر. فمعظم الناس يسعون لتأمين متاع الدنيا وتحقيق رغباتهم

---

(١) بالنسبة للسالك المنصف الذي يمكنه الإطلال على نفسه، ملاحظة الأمن في داخل نفسه شيء سهل. لذلك فيا أيها السالك! فليكن الأمن أو عدمه دليلا على مدى تطورك في إزالة آثار الظلم عن نفسك. فإن لم تكن قد وصلت إلى (الأمن الداخلي)، فأمامك مشوار طويل!!! فواصل يا فتى جهادك الأكبر!!!

وشهواتهم، ظنا منهم أن هذه هي الضالة المنشودة. ولكن يرون في آخر المطاف أنها لم تحقق لهم الأمن والطمأنينة.

فالسعي الهداف، للوصول إلى الأمن الداخلي الثابت المستقر في نفسك، يجب أن يأخذ طريقه عبر إزالة الظلم الذي التصق بأعماق نفسك. بل إن الظلم يلتصق بإيمان المؤمن التصاق اللباس بالبدن، كما ذكره الله تعالى في الآية الآنفة الذكر. وفي هذا سلوان لنا، فإزالة اللباس ليس بالشيء الصعب، ولكنه يحتاج إلى الإرادة والعزيمة. فما هو الطريق للتخلص من الظلم والظلمات في أعماق نفسك، حتى تصل إلى الأمن والهداية والنور الإلهي؟ الجواب هو ما ذكرناه في كتاب (الف باء العرفان)، أو رسالة (يقظان بن حي) صفحة ٦٦ : ـ

أن تتبلور في وجودنا انقلابات وجودية عظمى، وتحولات كيفية وسيعة، بهدف الخلاص من أغلال الفكر، وقيود العقل، وحبائل الأساليب الفكرية ومصائدها، التي اكتسبناها من المجتمع، وإسقاط كل الإضافات التي طرأت على فطرتنا.

يقول الله جل وعلا في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. فالمطلوب منك هو الرجوع إلى الدين القيم، بعد إزالة كل التبديلات البشرية على فطرتك، وهذا ما نسميه في العرفان (الإضافات) على فطرتك. ولا مناص عن (إسقاط الإضافات)، حتى تصبح كيوم ولدتك أمك، من النزاهة والبراءة والفراغ الكامل من كل برمجة بشرية، التي رانت على قلبك. فأنى لجهاز الكمبيوتر الذي يذخر بمختلف البرامج البشرية، وينوء تحت أعبائها من الرين على القلوب، أن يكون فارغا ومستعدا لتلقي البرمجة الإلهية، أو

بالأحرى التوبة والإنابة إلى البرمجة الإلهية، التي هي موجودة فعلا في فطرتك. وذلك هو الدين القيم، الذي به قوام نفسك وخلاصها من الظلم والظلمات. فالحق أبلج والباطل لجلج! يقول ابن الفارض: ـ

فلئن رضيت بها فقد أسعفتني ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [**المطففين**: ١٤]، فتراكم هذا الكسب هو الذي أوجد عمى الرين، والظلم والظلمات، في نفوسنا الصعبة. أسأل الله أن يجعلها سهلة، وذلك بتوفيق منه ورحمة. فيا رب قد نزل بنا ما قد تكأدنا ثقله، وألم بنا ما قد بهظنا حمله، فتغمدنا برحمتك حتى نتخلص من الظلم والظلمات، التي التصق بإيماننا التصاق الثوب بالبدن. فقد قال رسول الله ﷺ مرة لأصحابه: «لا ينجو أحدكم بعمله»، قالوا حتى أنت يا رسول الله، قال: «حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته». فأسأل الله أن يتغمد برحمته كل من أراد بجدية التخلص من الظلم والظلمات في داخل نفسه.

(فالإنسان يستطيع أن يتدرج في مراتب الإنسانية، ويصعد ويعرج إلى أن يصل إلى المقام، الذي يكون فيه ذلك الفرد الأكمل الإنساني الذي يقال في حقه: «لولاك لما خلقت الأفلاك») ـ كما يقول السيد حسين العالم قدس سره في هذا المجلس. ويضيف السيد: «فافرض الإنسان على الصراط، فمن بقي في أي مرتبة على الصراط، فهو مبتلى بجهنم البعد عن الله، إلا إذا تجاوز مراتب الإنسانية وصراط عالم الوجود، ومن ثم يدخل جنة اللقاء، وذلك هو الفوز العظيم!!!»

فإذا تفكرنا مليا في أقوال السيد، عرفنا أن مراتب الإنسانية، التي أشار إليها، والتي يجب تجاوزها، هي البرمجة البشرية الآنفة الذكر، والتي يجب مسحها مسحا كاملا من جهازنا، حتى ندخل جنة اللقاء، وذلك هو الدين القيم. ونرى كيف استطاع مسلم بن عوسجة مثلا، في

يوم عاشوراء، أن يرقى إلى مقام ذلك الفرد الأكمل الإنساني، بكل هذه السهولة! وكيف استطاع أن يتجاوز مراتب الإنسانية وصراط عالم الوجود، ومن ثم دخل جنة اللقاء، بكل هذه السهولة!! أليس هذا هو الفوز العظيم!!! إن الله حقا قد تغمد مسلم بن عوسجة برحمته، بلطف منه وعناية ورعاية. يقول الإمام علي عليه السلام: -

إلهي لئن لم ترعني كنت ضائعا   وإن كنت ترعاني فلست أضيع

فيا إلهي تغمدنا برحمة منك، بلطف منك وعناية ورعاية، كما فعلت بمسلم بن عوسجة، فإن لم تفعل ضعنا!!! واجعلنا للدين كالثين، وعن حوزته مرامين، آمالنا عن الدنيا مكفوفة، وهمتنا عن زينتها مصروفة، وألحاظنا عن بهجتها مطروفة، وارزقنا رزقا واسعا حلالا طيبا، مريئا دارا سائغا فاضلا مفضلا، صبا صبا، من غير كد ولا نكد، ولا منة من أحد، ولا تجعلنا للبلاء عرضا، ولا للفتنة نصبا.

يقول السيد حسين العالم قدس سره أن مسلم بن عوسجة قام وخاطب إمام زمانه قائلا: «أنخليك يابن رسول الله وحيدا فريدا، فماذا نعتذر غدا عند جدك وأمك وأبيك وأخيك، والله لأكسرن فيهم رمحي ولأضربنهم بسيفي ما ثبتت قائمته بيدي، والله لو لم يكن سلاح أقاتلهم به لقاتلتهم بالحجارة، حتى يعلم الله أني قد حفظت ذرية نبيه، والله لو أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ويفعل ذلك بي سبعين مرة ما تركتك، فكيف وهي قتلة واحدة وبعدها الكرامة التي لا أوفى منها».

يا لائمي في الهوى العذري[1] معذرة   مني إليك ولو أنصفت لم تلم

(١) العشق الطاهر.

قابلية الإنسان لأن يكون مجردا صرفا

(وهذه الصورة الإنسانية، يعني النفس الناطقة، التي يستطيع بها الإنسان الطيران إلى أوج السعادة، ويتمكن بها أن يتحول إلى مجرد صرف، أصبغها الله تعالى على الإنسان وهو في طور الجنين)، كما يقول السيد حسين العالم قدس سره.

فمعنى ما يقوله السيد حسين العالم، أن كل إنسان، وهو في بطن أمه، قد جعل الله فيه قابلية لأن يتحول من هيولا المادة إلى مجرد صرف، بمعنى قابلية التحول من هيولا المادة إلى إنسان مجرد لطيف، يتجرد من علائقه القلبية بالدنيا ومتاعها وزبرجها وزينتها، وبطره وعجبه وكبره، ويتوجه إلى الله بقلب سليم، لا وجود فيه لنقطة سوداء من حب الدنيا، ولا وجود فيه لعلة إيمانية[1]، أو مرض الإنحراف الفكري، أو نفاق أو رياء، أو حب لغير الله، أو بغض أو حقد أو كراهية أو عداوة وغيرها، تماما كما حصل لمسلم بن عوسجة رضوان الله عليه.

أي أن كل إنسان يحمل، وهو في بطن أمه، قابلية بأن يكون إنسانا من هذا النوع الرفيع، صاحب القلب السليم، الذي يقول الله في حقه في سورة الشعراء: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

---

(١) ألا هي علة الظلم التي ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

لذا فإن مسلم بن عوسجة لم ينطلق من الصفر في يوم عاشوراء، بل انطلق من هذه القابلية العظمى التي أودعها الله فيه، ويستطيع أي إنسان أن ينطلق منها إذا شاء.

فيا عجبا إن العجائب خمسة وأعجب منها عيبهم سبحاتي[1]

لذلك فإن الإنسان إذا لم يستعمل هذه القابلية للطيران إلى أوج السعادة، فلا يلومن إلا نفسه، ولا يقولن وهو في سكرات موته: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ - [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]. وهل يغني من الحدثان ليت!!!

---

(١) يعني بها ذكره الدائم لله تعالى.

انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى

ثم يذكر السيد حسين العالم قدس سره الآية الكريمة في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ويضيف بأن هذه الآية الكريمة تدلك جيدا على **أن وطن حقيقتك ليس هنا، ولكن يجب عليك الطيران إلى عالم وسيع ومقام منيع، وأن تتخلص من علائقك المادية.**

إن هذا الكلام المقدس الذي تفوه به السيد يجرنا جرا إلى التفكر والتدبر العميقين، وكيف أننا بؤساء حقا في ثقافاتنا المعوجة! أليس الأحرى بك أن تقف طويلا على هذه الكلمة المقدسة، التي تفوه بها هذا الرجل المقدس، تتفكر وتتأمل وتتدبر مليا في مغزاها، وتسائل نفسك: إذن أين وطنك؟؟؟

هل هي الأرض التي تعيش فيها أعواما معدودة وسنوات قليلة؟ ناهيك عن بلد كذا وكذا و...... التي يعدها ويحصيها القوميون والعنصريون والجهلاء في العالم، حتى قالوا بأن «حب الوطن من الإيمان» هو حب هذا البلد أو ذاك، أو قالوا يجب أن يكون ولاؤك لهذا البلد أو ذاك (ناسين ولائك لوطنك الأصلي في الملأ الأعلى). وأعجب من ذلك أن المثقفين في العالم ترسخت عندهم عناصر الجهل، حتى ظنوا أن الوطنية وولاء الوطن (بمعنى حب بقعة من التراب والولاء لها) هو وحي منزل، وغير ذلك خيانة! ولكنك إذا ذكرتهم بقول الله

تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فإنك كما تخاطب الجدران والنصب!!!

نعم أين وطنك؟ هل هي الأرض التي تعيش عليها أعواما معدودة وسنوات قليلة؟ أم في جوار الله أو دار الخلود أو الآخرة، حيث تعيش فيها إلى الأبد أزليا سرمديا؟ أي دار أحق وأولى بالعمل والإستهداف؟ دار سبعين أو ثمانين عاما؟ أو دار تكون فيها من الخالدين أو المخلدين؟ إنكم كالمسافرين في قلب الصحراء، رضيتم بظل شجرة كوطن لكم، ونسيتم وطنكم الأصلي! فهل تسميتكم بالأغبياء شيء عجيب!!!

نعم وطن حقيقتك ليس هنا، بل إنك تنتمي إلى الملأ الأعلى، بل إنك تنتمي إلى الروح الأعظم والحقيقة العظمى. أليس فيك الروح الذي هو من الله وقد نفخه فيك؟ أليس الروح من أمر ربك؟ أليس الروح هو من الله سبحانه وتعالى؟ أليس الروح الآن هو فيك! فما أعظمك أيها الإنسان!!! إنك تحتوي على كنز عظيم! فيا ليتك انتبهت إليه! أنسيت ما ذكره لك شيخي ومولاي صادق العنقاء، بأن فيك ذلك الجزء من الحقيقة الذي يتجانس مع الحقيقة العظمى، أي أن فيك عينة من الروح الأعظم، أي أن فيك ذلك (الروح الذي هو منه) وقد نفخه فيك! وهو من أمر ربي ويتجانس مع الله سبحانه وتعالى! أي أن وطن حقيقتك هو هناك في الحقيقة العظمى!!!

أو كما يعبر عنه شيخي ومولاي صادق العنقا قدس سره بأن ذلك الجزء من الحقيقة هو (أنا). فالسالك الذي عرف نفسه وتوصل إلى حقيقة نفسه، عندما يقول: «يجب أن أملك أفكاري، لا أن تملكني أفكاري»، فهو (أنا) الذي يتكلم بكل جزم وثبات. وعندما يذكر الله ذكرا كثيرا ويسبحه بكرة وأصيلا، فهو (أنا) الذي يذكر ويسبح. وإذا عشق ربه فهو (أنا) الذي عشق ربه. وإذا فني في الله، فهو (أنا) الذي فني في الله،

كرجوع القطرة إلى البحر ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية!!! يقول شيخي ومولاي صادق العنقا قدس سره: «كل شيء فان إلا اللطيفة الرحمانية الخالدة، التي يسميها كل منا (أنا) في ذاته. (أنا) ثابت ولا يتغير وغير مقيد، لا يترك الزمان والمكان فيه أثرا، وكل نفس تعرفه إجمالا، وأيضا تعرف آثاره. فشخصية كل أحد منا تعتمد على (أنا)، وعندما تنفذ معرفته في التفاصيل، تكون النفس قد وجدت ذاتها، وخرجت من محيط الموت. فأحكامها في كل شيء ستكون قاطعة، ولا تحمل الخطأ» ـ راجع فصل (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ثانيا إن الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] تؤكد، فوق كل شك وريب، انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى، أي إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، حيث زرع الله فيه هذه القابلية وهو في بطن أمه. بل إن هذه القابلية قد زرعت فيه وهو في عالم الذرة، حيث قال «بلى» جوابا على مساءلة الله له: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وهل الملكوت الأعلى إلا العبودية الصرفة لله تعالى! أليست العبودية جوهرة كنهها الربوبية؟ ـ كما يقوله مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيد الوصيين وقدوة العارفين الإمام علي عليه السلام. أو ليس الإمام الحسين عليه السلام (روحي له الفداء) هو الذي يقول: «وأقمني بصدق العبودية بين يديك»؟ ألست أنت من أتباعه وشيعته؟ ألا تريد أن تقتدي به؟ ألا تريد أن تحذو حذوه (حذو النعل بالنعل)؟

ثم إن الله سبحانه وتعالى يفتخر ويتباهى بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وهذا التباهي والإفتخار إنما هو للخلق الآخر، حيث أوتي الإنسان قابلية للطيران إلى أعلى عليين. وبدون ارتفاع الإنسان إلى الملأ الأعلى، يكون في مستوى البهيمة والأنعام بل أضل من ذلك.

فكيف يعتقد الجاهلون أن الله يتباهى بخلقتهم، في حين أنهم رضوا بأن يبقوا في مستوى البهائم، ولم يفعلوا شيءا ليرفعوا أنفسهم إلى الملأ الأعلى، بل بالعكس يستهزؤون بالذين يحضونهم على هذا العمل، معتقدين أن الإرتفاع إلى الملكوت والجبروت واللاهوت هو في شأن الأنبياء والأئمة فقط لا غير. وهذا هو مبلغهم من العلم! وهكذا هي ثقافتهم الدينية، مع الأسف الشديد! وما أعظم هذا الرين في القلوب!!!

يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ **[الصافات: ١٢ ـ ١٣]**.

وهل ينهض البازي بلا جناح؟ أم هل يكون الإنسان، وهو على حاله من مستوى البهيمة والأنعام، في مركز يؤهله كي يبتغي جوهرة كنهها الربوبية؟ وهو على حاله لا يراوح مكانه في أوساخ المزبلة، ويحسب أن الله يتباهى بخلقته! إن هذا من المستحيلات!!!

ومبتغي الجوزاء في أوساخ مزبلة كمبتغي الصيد في عرينة الأسد

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾

ما أعظم هذه الآية الكريمة، وما أروع المعاني التي تعكسها من دقائق لطيفة في واقع هذا الوجود. وإن المرء ليتوقف طويلا ـ في خشوع وخضوع ـ أمام هذه الآية التي هي في سورة الصافات، في تدبر وتأمل لا ينتهيان. فرجال الله دوما في عجب وحيرة من روائع خلق الله، لا في الآفاق والأكوان فحسب، بل أيضا في أنفسهم من روائع ملكوت الله. فالله يريهم آياته دأبا في الآفاق وفي أنفسهم، لا ينفكون يشاهدون هذه الآيات في حيرة وعجب، فهم فيها منجذبون، جذبات تكلم عنها النبي محمد ﷺ حيث يقول: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين». فهذه هي سمتهم التي لا تنفك عنهم، وهذا هو مقامهم.

ويمكن أن تعتري الإنسان حالة يتعجب ويتحير فيها من روائع الملك والملكوت، ولكن الحالة دائما في تغير وتحول. أما إذا تطورت الحالات المتغيرة إلى حالة ثابتة لا تتغير، فهي تسمى المقام. فرجال الله بلا شك ولا ريب في هذا المقام. كذلك كانوا أصحاب الكهف، حيث يقول الله تعالى في حقهم في سورة الكهف: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]. ويقول الله تعالى في حق محمد ﷺ: «بل عجبت ويسخرون».

يرى الله تعالى نبيه محمدا ﷺ في عجب وحيرة من روعة هذا الكون، وما يحمله من معجزات الخلق، ومن وفرة المخلوقات التي لا

تنتهي. فهناك ملايين الملايين من الكائنات على سطح البسيطة، في وفرة وتنوع وتعدد، لا تعد ولا تحصى. وهناك ملايين الملايين من الجزئيات، أو الكائنات الصغيرة جدا، أو ما يسمى الخلايا في داخلنا، في وفرة وتنوع وتعدد، لا تعد ولا تحصى. وهناك ملايين الملايين من نجوم وكواكب في القبة الزرقاء، في وفرة وتنوع وتعدد، لا تعد ولا تحصى.

أراعي نجوم الليل وهي كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج

وكل واحدة من هؤلاء البلايين من الكائنات الأرضية، ومن الجزئيات الصغيرة في البدن أو ما يسمى الخلايا، ومن النجوم الزاهرة، والكواكب التي تدور حولها، كل واحدة منها تعد لوحدها عالما زاخرا بالمعجزات الربانية!!!

ناهيك عن روائع خلق الله في نفس الإنسان الناطقة، التي سماها الإمام علي ﷺ بالعالم الأكبر. فلقد أثبت العلم الحديث أن الإنسان يختلف عن الإنسان الآخر، بسبب اختلاف الحامض النووي فيهما. وحتى النملة الواحدة لا تشبه النملة الأخرى، وحتى الذبابة الواحدة لا تشبه الأخرى، وحتى البعوضة الواحدة لا تشبه الأخرى. وحتى الجزئيات الحية الصغيرة جدا جدا من الخلايا والميكروبات والفيروسات لا تشبه إحداهما الأخرى. فكل واحدة منها فريدة ونادرة من نوعها، فسبحان الله الجواد الكريم، الذي لا انتهاء لكرمه وجوده!!! فهو لا ينسخ مخلوقاته نسخا، بل هو بديع السماوات والأرض، يخلق كل واحدة من هذه البلايين البلايين، فريدة ونادرة من نوعها!!!

إن الذي سمك السماك بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

يقول السيد حسين العالم قدس سره أن الإنسان جامع للملك والملكوت، وفيه نموذج من هذين العالمين، فكأن الإنسان نسخة مختصرة من الكتاب الكبير الإلهي، لأن جميع العالم كتاب كبير جامع

لجميع المعلومات. ويقول إن الإنسان نموذج منه، بل كل ما في العالم الكبير موجود في الإنسان الصغير. ثم يقول إن الإنسان من حيث نشأته الظاهرية كتاب صغير منتخب من ذلك الكتاب الكبير. وأما الإنسان من حيث نشأته الباطنية، ومن حيث الكمال والإحاطة بالمعلومات الكلية والجزئية، وإدراك المدركات العقلية والحسية، كتاب كبير كالعالم، بل هو أكبر من ذلك. ويستشهد بالشعر الذي ينسب إلى مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وسيد الوصيين وإمام المتقين وقدوة العارفين الإمام علي عليه السلام: -

وأنت الكتاب المبين الذي بآياته يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ما يعنيه السيد هو انجذاب رجال الله في عالمهم الأكبر، وفي مقامهم الشامخ المنيع، وعجبهم وحيرتهم. أما في الطرف الآخر ترى الأقزام (الفكريين) لا يعلمون شيءا، وكل واحد منهم يحسب نفسه علامة الدهر، ويزعم أنه يعرف كل شيء، ثم يجلسون ويسخرون ويستهزئون، ويطعنون بألسنتهم السليطة في هذا وذاك، ويا ليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل طالت ألسنتهم أولياء الله الصالحين، **فهم يرفعون سيوفهم ورماحهم ويطعنون في أبدانهم وقلوبهم الطاهرة**، كما يقول السيد حسين العالم قدس سره في المجلس العشرين في فصل (با يزيد البسطامي)!!!

وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

ويخاطبهم السيد في نفس المجلس وفي نفس الفصل قائلا« **«تضيعون حقائق الدين المحمدي، وأنتم لا تعلمون شيءا، وما عندكم من علم، بل هي أسماء سميتموها، فيا ليتكم سكتم لكان أحسن لكم!!!»**

فمتى ينتصف حليم من جهول؟ ألا إن ترك الجواب على الجاهل جواب! وإن نبح الكلاب لا يضر بالسحاب!

ترنح بالكلام علي جهلا　　　فصمت الصالحين هو الجواب

أما تسمع إمامك عليا عليه السلام يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أعادي لك وليا». فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحرارا في دنياكم. أليس إمامنا ومقتدانا علي عليه السلام حريا بالتأسي والإقتداء؟

أسمعت لو ناديت حيا　　　ولكن لا حياة لمن تنادي

ترى محمدا صلى الله عليه وآله يتكلم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وعن معراجه إلى السموات السبع، وما عاين هنالك من روائع عوالم الغيب، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، دنوا واقترابا من العلي الأعلى!!!

ومن طرف آخر ترى أبا جهل (وهو يمثل هؤلاء الجهال في كل زمان ومكان)، يقول يا محمد تدعي أنك قد عرج بك إلى السموات، فإذا كنت صادقا، فارفع رجلك عن الأرض. فرفع محمد صلى الله عليه وآله رجله عن الأرض، فقال والآن ارفع رجلك الأخرى. فلما لم يستطع محمد صلى الله عليه وآله رفع رجله الأخرى، ضحك أبو جهل ومن حوله من قريش، وبدأوا بالإستهزاء والسخرية، وأوصوا أولادهم الأشقياء بأن يرموه بالحجارة، حتى أثخن صلى الله عليه وآله بالجراحات. فقال صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت». وقال صلى الله عليه وآله: «إلهي اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فكان أمر الله القاطع في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. فأصابهم الخزي والعار في الدنيا، وهم في الآخرة في عذاب الجحيم. فيا أبا جهل ثكلتك أمك أي جرد ترقع!!!

المواجهة بين النور والظلمة

ما هذا التناقض العجيب بين النور والظلمة؟ وبين العلم والجهل المركب؟ وبين الإيمان والكفر؟ ولا زال هذا التناقض العجيب قائما، ولو أن صور المواجهة وأساليبها قد تغيرت بفعل الزمان والمكان. ولا زالت الغالبية من الناس يعتقدون بنظرية المؤامرة، لتريحهم عن الموضوعية، وعن تحليل الوقائع، واكتشاف الحقيقة كما هي. فإذا حدث شيء ما، فإن أبسط التحليل هو أن هناك مؤامرة من جانب كذا وكذا، فيصدقونه الناس ويرتاحون. حتى أن الوقائع التاريخية عندهم لا تحتاج إلى تحليل موضوعي، لأن التاريخ عندهم مبني على المؤامرة. فهم بهذا التفسير لا يحتاجون إلى تحليل الوقائع كما هي. وهذا الإبتعاد عن الموضوعية تغذيه أطراف في وسائل الإعلام من الراديو والتلفزيون والجرائد والمنابر، ثم يلقون في أذهان هؤلاء الناس ما يشاؤون من ترهات، لأن الناس فقدوا قدرتهم على التحليل الواقعي، وانقادوا وراء الشعارات اللماعة، وكثير من كلمات حق يراد بها باطل.

فالمواجهة بين النور والظلمة اليوم تدور في نفس الفلك. فلقد شاء الله تعالى أن تكون وسائل الإعلام بيد الذين يريدون علوا في الأرض، فكان حافزهم حب الدنيا والجاه في الأرض. فعملوا بأساليبهم الخاصة على إقصاء الراسخين في العلم. فحملوا على أولياء الله الصالحين، ورفعوا سيوفهم ورماحهم، وطعنوها في أبدانهم وقلوبهم الطاهرة، كما

قال السيد حسين العالم قدس سره في المجلس العشرين.

فعلوا كل هذا لأغراض إقصائية، حتى ينزلوا من قدرهم في عيون الناس، بحيث يمهدوا الأرضية لتوجيه السخرية إليهم والإستهزاء بهم، ومن ثم إقصائهم عن الحياة العامة، حتى لا يسمع الناس الحقائق الربانية من هؤلاء العلماء الربانيين، الذين إذا خلا لهم الجو لنشر تعاليمهم السماوية، لأصبح أنصاف العلماء عاطلين عن الكسب والعمل. علما بأن العلماء الربانيين، حين نشرهم التعليمات السماوية، لسان حالهم يقول: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا».

فنحن جميعا نرفع ذكر الأئمة ﷺ، ولكن حتى هذا العمل العظيم، تكون درجات ثوابه على قدر النية. فإذا كانت النية معقودة على رفع ذكر هذه الشخصيات العظيمة لحث الناس على الإقتداء بهم، وحذوهم حذو النعل بالنعل، وبالنتيجة اهتداء المستمعين ولو بعضهم، لكان ثواب هذا العمل في أعلى درجاته. يقول النبي ﷺ لعلي عليه السلام: **«لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»**. والأعمال بخواتيمها، ففي مثل هذه المدارس يتخرج أولياء الله الصالحون الذين يصلون إلى النور الإلهي، والهداية الحقة من النور، كما ذكره الله تعالى في سورة النور: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ **[النور: ٣٥]**، وكما يذكرها النبي محمد ﷺ في وصف العلم الذي هو النور قائلا: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

أما إذا كانت النية معقودة على الأغراض الإقصائية، بمعنى رفع ذكر الأئمة ﷺ (وكأنها حكر عليهم) لخلق جو الإستقطاب، كما فعل الخوارج حينما رفعوا ذكر الله وقالوا «لا حكم إلا لله»، فبإمكانهم إقصاء الأولياء الصالحين في هذا الجو الإستقطابي، كما أقصوا الخوارج الإمام الناطق عليا عليه السلام. ففي أجواء نظرية المؤامرة يسهل عليهم أن يسلبوا العوام القدرة على التحليل الموضوعي للوقائع، واكتشاف الحقيقة كما

هي، لكي يمهدوا الأرضية لإلقاء الترهات في أذهان الناس، في أجواء الإستقطاب. فمثلا قام أحدهم أخيرا على التلفزيون وقال: «إن بني العباس أشهروا الصوفية للتغطية على الأئمة ﷺ». وهذه من الشعارات اللماعة التي يحبذها الجهلة من الناس، للتهجم على من يريدون من أولياء الله الصالحين. لأن الخوف من الله معدوم، والخوف من الحساب والمساءلة في يوم القيامة يكاد لا يتطرق إلى قلوبهم!!! فيا عجباه! يضعون العرفاء في مقابل الأئمة ﷺ، في حين أنهم هم تلامذتة الأئمة ومريدوهم. أما سمعوا الإمام عليا ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أعادي لك وليا».

والواضح أن هذا الشعار مخالف للواقع، وإذا كان الهدف هو اكتشاف الحقيقة كما هي، فلينظروا مليا في التاريخ. أما إذا كان الهدف هو البقاء في الضلال، والجري وراء الشعارات اللماعة، فإن الله يكلهم إلى أنفسهم العاصية.

فلقد ذكر السيد حسين العالم قدس سره أن بشر الحافي كان مريد الإمام موسى الكاظم ﷺ، وأن با يزيد البسطامي كان مريد الإمام الصادق ﷺ، وفي بعض الروايات (كما في مجالس المؤمنين للقاضي) كان مريد الإمام موسى الكاظم ﷺ. والمعروف أن سلمان الفارسي (رض) وأويس القرني (رض) (وهم من أوائل العرفاء في التاريخ الإسلامي) كانوا من صحابة الرسول ﷺ، ومن تلامذة إمام المتقين وسيد الوصيين وقدوة العارفين الإمام علي ﷺ. والمعروف في التاريخ أن إبراهيم الأدهم، وهو من أقطاب الطريقة الأويسية، كان من تلامذة الإمام الباقر ﷺ. وأبو علي شقيق البلخي (وهو أيضا من أقطاب الطريقة الأويسية) تعلم الفقر على يدي الإمام موسى الكاظم ﷺ، بل إنه استشهد لأنه كان من شيعة الإمام موسى الكاظم ﷺ. والمعروف الكرخي كان من تلامذة الإمام الرضا ﷺ وغيرهم كثيرون.

والمعروف أن العرفاء هم مريدو الأئمة ﷺ، وهم الوحيدون الذين يقتدون بالأئمة ﷺ، ويحتذون بهم حذو النعل بالنعل. أما غيرهم من الذين قال الله تعالى عنهم في سورة الصف: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣] هم من الأدعياء المسلطين على رقاب الناس، الماسكين بوسائل الإعلام المختلفة، الملتصقين بحب الدنيا، وبحب العلو والإسم والرسم في الأرض، فكلامهم كالعسل وفعلهم كالأسل، يرمون الكلام على عواهنه، لا يخافون الله، والناس من ورائهم أعداء ما جهلوا، همج رعاع، أتباع كل ناعق (إلا من رحم ربي). فمتى ينتصف حليم من جهول! حيث يغلب الحليم الذي يعجز عن مسافهة الجهول! أليس ترك الجواب على الجاهل جواب!!!

ترنح بالكلام علي جهلا فصمت الصالحين هو الجواب

فهذه الحقيقة العظمى، التي ذكرها الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] قائمة إلى قيام يوم الساعة. فهناك الغالبية الضالة حينما يذكر العرفان، تعتلي وجوههم بسمات السخرية والإستهزاء، بدل التقدير والتقديس. وفي الطرف الآخر هناك قلة من الرجال، وهم العرفاء والأولياء وعباد الله الصالحون، يعيشون في العالم الأكبر، الذي ذكره إمامنا علي ﷺ: «وفيك انطوى العالم الأكبر»، في عجب وحيرة من أمر الله، وروعته وعظمته وإعجازه، في الآفاق وفي هذا الكون، بل من أمره تعالى في أنفسهم، حيث أودع الله فيها عالم القدس، وجعلهم في حضرة الأنس، فهم فيها منجذبون. يقول الرسول ﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين». فما بالك بجذباتهم التي لا تعد ولا تحصى، طوال عمرهم الشريف!!!

زعم العواذل أنني في جذبة صدقوا ولكن جذبتي لا تنجلي

المجلس السادس والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

ومن عجائب أمر الحيوانات مراتبها الوجودية، فأخس مرتبة تلك التي هي شبيهة بالنبات، ويكاد لا يصدق اسم الحيوان عليها. وآخر مراتب الحيوانات وأعلاها، تصل إلى المقام الذي خاطب به الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ قائلا: «لولاك لما خلقت الأفلاك»[1]. فبعض الحيوانات خسيسة بشكل لا تكون لها حركة إلا حركة ضعيفة كالإنقباض والإنبساط، ولا يكون لها حس إلا حاسة اللمس، التي هي أسفل الحواس. والمرتبة التي هي أعلى قليلا، تملك حاستين أو ثلاثة مثل اللمس والذوق والشم، وليس لها نصيب من حاستي السمع والبصر مثل العقرب. والبعض الآخر يملك الحواس الظاهرة، ولكنه فاقد للحواس الباطنة، كالفراشة التي ترفرف حول النار ثم تحترق بها، ولكنها فاقدة لقوة الذاكرة، فتعود لنفس العمل حتى تحترق. وتستمر مراتب الحيوانات بالصعود إلى حد، تكون فيها بعض الفصائل من الحيوانات شبيهة بالإنسان كالقردة.

---

(١) وهو مقام الإنسان الكامل الذي هو الهدف من عملية الخلق المستمرة.

مملكة الحيوانات التي هي أحذق من الإنسان

ومن العجائب أن بعض الحيوانات تقلد الإنسان تماما، فلقد نقلوا في ذكاء الفيل، بأنه كان هناك في الهند خياط مشغول بعمله في دكانه، إذ مر بالقرب منه فيل مع صاحبه. وفي أثناء حركة خرطوم الفيل، تصادف أن دخل الخرطوم في دكان الخياط، فوخز الخياط الخرطوم بإبرته، ولم يظهر الفيل أي رد فعل. فذهب صاحب الفيل بفيله إلى ترعة ماء كي يروي ظمأه، وبعد أن شرب الفيل الماء، ملأ خرطومه بالطين المتجمع في قعر الترعة. وعند رجوعه وقف أمام دكان الخياط، وأفرغ ما في خرطومه من الأوساخ في دكانه، بحيث إن كل ملابس زبائنه الجديدة، مع كل الأثاث في الدكان، توسخت بالطين المتبعثر هنا وهناك.

ومن أعجب القضايا أن الحيوانات، على الرغم من مرتبتها الحيوانية وفقدانها للشعور الإنساني، إلا أن رب العالمين، بيد قدرته الكاملة، أودع في جبلتها قوة صناعية يعجز البشر عن الإتيان بمثلها. أما ترى العنكبوت كيف أنه يصنع بيتا سداسي الشكل، بخيوط غاية في الرقة، وبشكل لا تستطيع الفريسة أن تفلت من هذا البناء العجيب، حتى تصبح الذبابة مثلا طعمة سائغة في فم العنكبوت!!!

أو ما ترى النملة، كيف أنها تجول وتصول في ليلها ونهارها وتصنع بيتا لسكناها، ومخزنا لجمع المؤونة! وكيف أنها تبحث عن

المؤونة، وتحملها إلى مخزنها، وكيف أنها إذا حصلت على حبة، وعرفت بجبلتها بأن الحبة لو بقيت على حالها لاخضرت، شطرتها نصفين! وكيف أن بعض الحبوب على الرغم من انشطارها نصفين تخضر أيضا، كيف أن النملة تعرف بجبلتها ذلك فتشطرها إلى أربعة أجزاء! وكيف أن النمل، على الرغم من ضعف حواسها وقلتها، تستأنس ببعضها البعض، وكيف ترتبط الأنثى والذكر بالالفة والمودة، ومدى محبة الأم لولدها! إن هذا كلام عادي، ولكن لو تدبرت هذه الحقائق بدقة، لكانت كل حقيقة منها جبلا من المعرفة.

أو ما ترى القطة كيف تتعامل مع أولادها، وكيف أنها تغير مواضعها سبع مرات، وكيف أنها حين ولادة أولادها تأكل واحدة منها! لو لم تكن مجبولة على محبة أولادها، فلماذا تبذل هذا الجهد الكبير، وتغير مواضعها سبع مرات؟ ولو كانت مجبولة على محبة أولادها، إذن لماذا تأكل واحدة من أولادها؟ إن الله ليشهد بأن العقول متحيرة في هذه الأمور!!!

أو ما ترى كيف أن الحيوانات ولدت أساتذة في دفع الأعداء، بحيث يبقى الإنسان حيرانا من أمرها، هل أنها ذهبت إلى المدارس وتعلمت دروسها هناك، أم أن الطبيعة الفاقدة للشعور وهبتها هذا الشعور العجيب؟؟؟ فمثلا النملة التي لم تر حشرة الليل في حياتها، فحين تراها لأول مرة تريد أن تتغلب عليها، فتركب بالفور على ظهرها، ومن ثم على عنقها، ثم تفقدها الإحساس بأساليبها العجيبة، ثم تلدغها على بطنها وتجرحها، لكي تجعلها طعمة سائغة في فمها. أو ليس هو الصانع الحكيم والمدبر القديم الذي يربي كل شيء بيد قدرته، إما بواسطة أو من غير وسائط!!!

أو ما ترى كيف أن النحلة تكون متنبهة جدا، كي لا تمتص الزهور والنباتات المتعفنة، حتى لا يكون إنتاجها شهدا مضرا! بل تمتص الورود

والأزهار والرياحين العطرة والنباتات الصالحة. وكيف أنها إذا سمحت أحيانا للخطأ أن يقترف، تقوم زملاؤها الآخرون من النحل بتأديبها، ومن ثم تشطرها نصفين! وكيف أنها تعرف بجبلتها بأن إنتاجها من الشهد يجب أن يكون دواء لآلام كثيرة!!! قال الله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

أو ما ترى كيف أن النحل تبني بيوتها بحيث لا يستطيع أحد الإطلاع على كيفية صنعها للعسل! فقد نقل أن سلطانا أراد أن يعرف كيف تصنع النحل العسل، فعين موضعا للنحل أمر أن توضع فيه مرآة، حتى يشاهد النحل في حين صنعها للعسل. فلما جاء الموسم، كان أول ما فعلته النحل أن صنعت مادة تسود بها وجه المرآة، فاظلم وجه المرآة بحيث تعذر على السلطان أن يشاهد أسرارها!!!

الهدهد وقصته مع النبي سليمان عليه السلام

أو ما فكرت كيف أن الطينة الميتة تتحول إلى حيوان حي موهوب بذلك الشعور العجيب، بحيث إن طائرا من طيور سلطان عالم، وهو في الوقت نفسه نبي زمانه، يأتيه بملك من دون حرب؟ أو ما سمعت قصة طائر الهدهد مع النبي سليمان عليه السلام؟ فقد روى علي بن إبراهيم بأن النبي سليمان عليه السلام حينما كان يجلس على عرش السلطنة، تحضر جميع الطيور التي سخرها الله له، وتلقي بظلالها عليه وعلى العرش وعلى كل الحاضرين حول العرش. ففي يوم من الأيام غاب الهدهد، وغاب الظل الذي يلقيه، فنفذ نور الشمس من تلك البقعة إلى حاشية قميصه. فنظر إلى الأعلى فلم ير الهدهد، كما يروي قصته الله سبحانه وتعالى في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٦].

أو ليس هذا بأمر عجيب، أن يحيط حيوان ما بأمر لا يعرف عنه نبي مرسل شيءا؟ فقال في تحد عظيم: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ

﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ويخبره عن عرش بلقيس ابنة شراحيل بن مالك قائلا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]. ويخبره عن معتقداتها وعن معتقدات قومها، وبأعمالهم التي تتنافى مع الرسالة الإلهية التي بعث بها سليمان عليه السلام. ثم يتكلم عن التوحيد الخالص وبوجوب السجود لله. فيا أيها الناس! ما بالكم لم تتعرفوا على التوحيد، بمقدار هذا الطائر الذي يعرف الله، ويعرف السجود لغير الله؟ أما تستحي[1] أن تسمي نفسك إنسانا ولما تعرف ربك[2]!!! فلقد بقينا في الشرك، رغم أننا نصرخ بأعلى أصواتنا: «لقد تطهرنا من الشرك الجلي»، **فاعلم أيها الإنسان هذه الحقيقة، بأن الشرك الخفي أرذل من الشرك الجلي.**

فأراد النبي سليمان عليه السلام أن يمتحن الطائر، كما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة النمل: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا

---

(١) هذه العبارات الصريحة تدل دلالة واضحة على أن السيد حسين العالم لم يكتب كتابه للنشر، وإنما وضع فيه الصرخة المدوية، التي صرخ بها ضميره ووجدانه، في جوف هذا العالم المظلم، الذي كان يكتنفه. فالإسلام عاد غريبا، والناس لا يميزون بين الدر والحجر، بل إنهم اتخذوا الباطل حقا والحق باطلا. وإذا تكلم العرفاء بحقائق محمدية صرفة، فهي تظهر غريبة جدا على الناس، كأن الناس في واد، والإسلام الحق في واد آخر!

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **[النمل: ٢٧ ـ ٤٤].**

والعبرة في هذه القصة العجيبة ليست فقط أن الطائر أحاط بما لم يحط به النبي سليمان عليه السلام، بل بما بعده أيضا، حيث نفذ الهدهد أوامر سليمان عليه السلام بإيصال الكتاب إلى الملكة بلقيس، ثم تولى عنهم وأخفى نفسه في مكان ما، بحيث يراهم وهم لا يرونه، وسمع ما دار بين الملكة وبين حاشيتها من حديث[١]. وليس المقصود هو سرد القصة، بل المقصود هو لعلك تأخذ العبرة من هذه القصة بما تفعله الحيوانات. فيا أيها الإنسان! إن لم تكن إنسانا، ولم تكن تملك النفس الإنسانية ولا العقل الإنساني، فإنك على الأقل حيوان! فلماذا لا تتصرف بحسب الشرائط الحيوانية؟؟؟[٢].

---

(١) ونظر الهدهد ماذا يرجعون من رد بلقيس على كتاب سليمان عليه السلام، وكانت هي الهدية التي أرسلتها بلقيس، وحملها المرسلون إلى سليمان، ثم أخبر طائر الهدهد النبي سليمان عليه السلام بكل ما جرى.

(٢) هذه العبارات الصريحة لمولانا السيد حسين العالم قدس سره تثبت بأن كتاب المجالس لم يعد لغرض النشر، بل هو صرخة ضميره ووجدانه في هذا العالم المظلم الجاهل الذي كان يكتنفه.

الإنسان هو الذي انطوى فيه العالم الأكبر

ومن جملة الحيوانات، التي هي أعجب حكمة وأكثر دلالة على وجود الخالق والصانع، ألا هو الإنسان، أو الحيوان الناطق. لأن الإنسان جامع للملك والملكوت، وفيه نموذج من هذين العالمين، فكأن الإنسان نسخة مختصرة من الكتاب الكبير الإلهي، لأن جميع العالم كتاب كبير جامع لجميع المعلومات، ومنشئ ومصنف ومبدع هذا الكتاب هو الله تعالى رب العالمين. والإنسان نموذج منه، بل كل ما في العالم الكبير موجود في الإنسان الصغير. فالإنسان من حيث نشأته الظاهرية كتاب صغير منتخب من ذلك الكتاب الكبير. وأما الإنسان من حيث نشأته الباطنية، ومن حيث الكمال والإحاطة بالمعلومات الكلية والجزئية، وإدراك المدركات العقلية والحسية، كتاب كبير كالعالم، بل هو أكبر من ذلك، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: ـ

وأنت الكتاب المبين الذي ... بآياته يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وللإنسان أيضا مراتب، وليس كل إنسان يصل إلى المرتبة الإنسانية الشامخة. فبعض أفراد البشر جاهل وغبي، بحيث إن الحيوان الذكي أفضل منه، والبعض الآخر مجرد وفارغ من اللطافة الإنسانية، بحيث إن الحيوانات أعلى منه في هذه الأمور. والبعض لا يعرف غير المكر والخداع، كما هو دأب الشيطان، ويصرف فكره، الذي يتمتع بالقابلية

للوصول إلى المقامات العالية، في الأمور الدنيوية والمادية والطبيعية. والبعض تجاوز هذه المرتبة، ووصل إلى مرتبة العشق، ولكنه ليس عشقا حقيقيا الذي يهب الروح حياته، بل بقي حيرانا في عشق مجازي، في حين أن البعض وصل الكمال في هذه المرتبة من الإنسانية، ألا هي مرتبة العشق المجازي.

نموذج من الكمال في العشق المجازي

فقد نقل أنه في مدينة بنارس في الهند في عهد شجاع الدولة، عشق شاب إيراني شابة هندوسية، التي كانت ابنة صراف عادي، ووله بغرامها بقلبه وروحه. وفي مدة وجيزة فقد توازنه في حب تلك الفتاة، وخاف والد المعشوقة من سوء السمعة، فمنع ابنته من الخروج والقيام بطقوس الغسل في نهر الغانغ. وعندما لم يشاهد العاشق الصادق معشوقته في أيام معدودات، سأل عنها بعض أقاربها، فقالوا له بأن تلك الجوهرة الفريدة غرقت في نهر الغانغ. فاضطرب العاشق الملهوف اضطرابا كبيرا من سماع هذا الخبر المحزن، وسألهم في أي بقعة من النهر غرقت معشوقة قلبه، فأشار هؤلاء الجهلة الجائرون إلى بقعة في النهر، فتوجه ذلك العاشق الملهوف إلى ذلك المكان، وقذف بنفسه في النهر ليلتقي بحبيبته، وضحى بنفسه من أجلها، وغرق في المكان الذي أشاروا إليه.

فرجع أقارب الفتاة إلى منازلهم مستبشرين بهذا الخبر، وأخبروا الفتاة بتفاصيل ما جرى، ظنا منهم أن ذلك سيفرحها. فتظاهرت المعشوقة الوفية بالفرح، وقالت خيرا فعلتم لإطفاء نار العار بماء الغانغ. وفي اليوم الثالث خرجت للقيام بطقوس الغسل في نهر الغانغ، وسألت أقاربها في أي بقعة من النهر أغرقتم تلك الفتنة. فأرشدوا تلك الحسناء صاحبة الوجه الجميل إلى بقعة معينة. وبعد ما تيقنت المعشوقة الحسناء من

المكان، استجمعت قواها، وقذفت بنفسها في النهر، وأغرقت نفسها في ذكرى عاشقها الوفي. فتحسر الأقارب على عملهم الشنيع، وأخبروا أبا المعشوقة الحسناء، فصرخ في بكاء ونحيب، وجاء إلى ذلك المكان، فغطس الغواصون فوجدوا ذلك الزوج من جوهرة العشق متعانقين متلاصقين، فأخرجوهما وحاولوا أن يفصلوهما فلم يستطيعوا. وفي آخر المطاف، أمر الحاكم الذي كان شيعيا، أن يدفنا في مقام واحد، وبنوا قبة على مكان القبر.

الإنسان هو الصراط بين جهنم البعد وجنة اللقاء

نعم هذا ما يفعله العشق والوله بالإنسان المحب العاشق! وأنت الذي لم تعرف العشق الحقيقي، ولم تعلم شيءا عن معبودك، وتعبد غيره في الليالي والأيام، وعلى الرغم من ذلك تريد معرفته معرفة تامة! هيهات هيهات!!! ففي الطريق إلى بيت ليلى تكمن الأخطار، وشرط الخطوة الأولى في هذا الطريق المحفوف بالأشواك أن تكون مجنونا![١] فالإنسان يتدرج في مراتب الإنسانية، ويصعد ويعرج إلى أن يصل إلى المقام، الذي يكون فيه الإنسان ذلك الفرد الأكمل الإنساني الذي يقال في حقه: «لولاك لما خلقت الأفلاك»، ويقول جبرائيل مقرا معترفا بعجزه[٢] أمام عظمته ومقامه المنيع: «لو دنوت أنملة لاحترقت». فافرض الإنسان على الصراط، فمن بقي في أي مرتبة على الصراط، فهو مبتلى بجهنم البعد عن الله، إلا إذا تجاوز مراتب الإنسانية وصراط عالم الوجود، ومن ثم يدخل جنة اللقاء، وذلك هو الفوز العظيم!!!

---

(١) فانظر ماذا يقول مجنون ليلى:

مررت على الديار ديار ليلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

وانظر ماذا يقول لسان حال السيد حسين العالم قدس سره:

ديار العشق حفت بالبلايا   زيارتها لمجنون تباح

وفي خدر الخباء وصال ليلى   لمجنون مباح مستباح

(٢) فطاوس الملائكة جبرائيل عجز عن تخطي سدرة المنتهى.

والسبب في أن الإنسان هو الصراط، هو سير الإنسان في مراتب الوجود الإمكاني، ففي مرحلة ما يكون الإنسان قوة صرفة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وبعدها يتحول إلى الصورة العنصرية بالقدرة الإلهية الكاملة. ثم يستمر في سيره في أطوار الوجود، فهو أحيانا حشيش الأرض وأحيانا النبات، وأحيانا فاكهة الأشجار يأكلها الإنسان والحيوان، ثم يذبح الإنسان الحيوان ويأكل من لحمه وغير ذلك، ثم يجعل الله بحكمته البالغة محبة بين المرأة وزوجها، ثم تجمعهما الشهوة على مائدة الجماع. ومن تأثير الأطعمة والأشربة المختلفة، التي يتناولها الإنسان، تتولد النطفة، التي يسر الله لها قوة الدفع من الآلة الرجولية، وقوة الجذب في رحم المرأة، حتى تجذب إلى نفسها نطفة الرجل، كي تتمازج مع مني[١] المرأة، ثم يستقر اللقاح في رحم المرأة، ويلتصق بالرحم التصاق الخميرة في التنور، ثم تبدأ عملية خلق الجنين، وتمنع يد القدرة الإلهية اللقاح الملتصق على جدار الرحم من الإنهيار في دم الحيض، وتهب النطفة الفاقدة للشعور قوة تجذب بها الدم بواسطة العروق، حتى تظهر عليها النقط الدموية، وتتحول إلى علقة، ثم تزداد حمرتها، وتظهر أكثر فأكثر، حتى تصبح شبيهة بالمضغة.

---

(١) بويضة المرأة.

عجائب خلق الجنين[1]

ومن أعجب قضايا الجنين، أنه ثبت في علم الحيوان، أنه خلال الدورة الدموية في الإنسان والحيوان، تأخذ الشرايين دما صافيا زلالا من القلب، ثم تقسمه وتوزعه على جميع الأعضاء والجوارح، كي تأخذ كل واحدة منها نصيبها من الدم وتتغذى به. ووظيفة العروق أن تستلم الدم الفاسد المخلوط بالفضولات من أعضاء البدن إلى الرئة، كي تعمل الرئة على تصفية الدم من المواد الفاسدة، حتى يعود دما صافيا زلالا مرة أخرى، ويرجع إلى القلب، ثم يرجع مرة أخرى إلى الشرايين وإلى الأعضاء، وهكذا دواليك في دورة دموية مستمرة. وأما الدورة الدموية في الجنين، فهو على عكس ذلك، بمعنى أن الجنين يتلقى غذاءه من المشيمة، التي تتلقاه بدورها من رحم الأم عن طريق الوريد، ثم ترجع الفضلات أيضا إلى المشيمة، إلى مكان خاص فيها.

وسرة الجنين في المشيمة ترتبط برحم الأم بواسطة الوريد، فيندفع الدم الصافي الزلال من الرحم عن طريق الوريد إلى السرة، ومن ثم إلى المشيمة، حيث يتوزع الدم بقدر على أعضاء الجنين، كي تكبر هذه الأعضاء رويدا رويدا، ثم تحمل الشرايين الفضولات والمواد الفاسدة

(١) ومن العجب العجاب أن التفاصيل الدقيقة التي ذكرها السيد حسين العالم قدس سره، قبل حوالى سبعين عام، عن خلق الجنين، تنطبق في مجملاتها انطباقا كاملا مع علم الطب الحديث.

من الأعضاء إلى المشيمة مرة أخرى، بحيث تكون الدورة الدموية في الجنين على هذه الصورة، بمعنى أن الدم الصافي الزلال يكمل دورته عن طريق الوريد، وتخرج الفضلات عن طريق الشرايين إلى المشيمة. ولكن بعد الولادة مباشرة تنعكس الآية، وتأخذ الدورة الدموية مسيرها من القلب إلى الأعضاء عن طريق الشرايين، ومن الأعضاء إلى الرئة[١] عن طريق العروق، وذلك لتصفية الدم من المواد الفاسدة، فويل لمن جحد المدبر!!!

فلنرجع إلى الموضوع السابق، بأنه بعد مرحلة العلقة ،تزداد حمرة العلقة، وتظهر أكثر فأكثر ،حتى تصبح شبيهة بالمضغة، ثم يهيج فيها الهواء الساخن فتصبح مضغة. فيبدأ الخالق المصور، بقدرته الكاملة، بإظهار مكان الجوارح والأعضاء، وبتصوير هيئاتها وأشكالها وصورها. وعلى الرغم من وجود التشابه بين هذه الأعضاء والجوارح في هذه المرحلة، إلا أن الخالق المصور يميزها، بعضها عن بعض، بأمور مختلفة يقسمها بينها، كالعروق والشرايين، والعصب والغضروف والوتر، والعظم واللحم والشحم والجلد، ثم رويدا رويدا تظهر الأعضاء وهي مختلفة الشكل. ويصور الخالق المصور رأس الجنين مستديرا، ويفتح منافذ العينين والأذنين والفم والأنف وغيرها من المنافذ، ويخلق اليدين والرجلين، ويجعل لكل منها خمسة أصابع، ويخلق لكل إصبع رأس الأنامل وظفرا. ويجعل الخالق المصور في رأس الجنين مخا، ويخلق في باطنه قلبا وكبدا وطحالا ورئة، ومعدة ورحما ومثانة وغيرها من الأعضاء، ويجعل لكل عضو هيئة خاصة وشكلا مخصوصا، ويودع في

---

(١) تتم تصفية الدم بثلاثة طرق: أولا عن طريق الرئة لتصفية ثاني أكسيد الكربون، كي يحل محله الأوكسجين، فالعمليتان تتمان عن طريق التنفس بالزفير والشهيق. ثانيا عن طريق الكلى لتصفية الدم من مخلفات التغذية وجزء من السموم. وثالثا عن طريق الكبد لتصفية الدم من متحطمات الكريات الحمراء وبواقي السموم.

كل عضو وظيفة معينة وعملا خاصا. والجنين في جميع هذه الأحوال مستقر في ظلمة الرحم، ومسجون في كيس، وغاطس في دم الحيض، كفاه على طرفي الوجه، ومرفقاه على خاصرتيه، وركبتاه على صدره، وذقنه بين ركبتيه، وسرته متصلة بسرة أمه، يمتص منها غذائه، والولد وجهه على ظهر أمه، والبنت وجهها على بطن أمها، لا يعلم الجنين شيءا عن الرسوم البديعة التي ترسم عليه، ولا يعلم بذلك أبوه، ولا تعلم أمه، ولا يرى في باطن الأم رسام، ولا يظهر في خارجها مصور. ولم يكتف الخالق المصور بهذا، بل أصبغ على الجنين الصورة الإنسانية، يعني النفس الناطقة، التي يستطيع بها الطيران إلى أوج السعادة، ويتمكن بها أن يتحول إلى مجرد صرف، حيث قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وهذه الجملة من هذه الآية الكريمة تدلك جيدا على أن وطن حقيقتك ليس هنا، ولكن يجب عليك الطيران إلى عالم وسيع ومقام منيع، وأن تتخلص من علائقك المادية.

علي بن يقطين ومعرفة الإمام الكاظم عليه السلام حق معرفته

أو ما فكرت وتدبرت يوما، بأن بدن الإنسان خلق كمقدمة لكمال النفس، ولم يكن البدن أصلا مقصودا بذاته، وعلى الرغم من ذلك، كيف أن يد القدرة استثمر كل هذه الحكمة وكل هذه الفنون في صنع البدن الإنساني! فما ظنك بخلقة النفس، التي هي مقصودة بذاتها، كيف استثمرت فيها اللطافات والفنون الرفيعة!!! أليس من المؤسف أن يخلقك الله في أحسن تقويم، ويأمرك بأن تتبع طريق الله، حتى تجد نفسك في الأمن الإلهي، ثم تعزف عن ذلك، وتصب فكرك تماما في الأمور المادية والدنيوية والطبيعية؟؟؟ مع الأسف الشديد جدا، أإنا نسينا الله واتبعنا الشيطان وهوى النفس، على الرغم من أننا نعلم بأن ذلك الملعون أقسم بقوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. أما آن لنا أن نتوسل بأولياء الله علنا نفلح؟

فانظر إلى رجال استيقظت ضمائرهم، ورغم وجودهم في مناصب حكومية، إلا أنهم بسبب توسلهم بالأئمة عليهم السلام، وتوسلهم بوجه الله تعالى، ضمنوا لأنفسهم الجنة.

فانظر إلى علي بن يقطين الذي كان في منصب حكومي، ولكنه توسل إلى أهل البيت عليهم السلام، وأوصل نفسه إلى سفينة النجاة، حتى وصل

أمره إلى ما رواه بكر بن محمد الأشعري حيث قال، سمعت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «في الليلة الماضية طلبت من الله تعالى أن يهبني علي بن يقطين فوهبه لي، أما إن علي بن يقطين بذل ماله ومحبته في سبيلنا، فاستحق كرامات الدنيا والآخرة».

فإن علي بن يقطين لم يعمر آخرته فقط، بل هو ببركة التوسل إلى وجه الله نجا من كل بلية. فقد روي أيضا أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال لعلي بن يقطين: «إضمن لي واحدة أضمن لك ثلاثة»، فقال علي فداك نفسي ما هو الشيء الذي تريده أن أضمن لك، وما هي الثلاثة التي تضمنها لي؟ فقال عليه السلام: «الثلاثة التي أضمنها أن لا يصيبك سهم ولا سيف، وأن لا تبتلى بسجن، وأن لا تصبح محتاجا حتى الموت». فقال علي وما هي الواحدة التي يجب أن أضمنها؟ فقال الإمام عليه السلام: «أن تضمن لي أن تكرم أولياءنا الذين هم إخوانك المؤمنون حين يأتون إليك». فضمن علي بن يقطين مكرمة واحدة، وضمن الإمام عليه السلام ثلاث مكرمات.

فيا عزيزي! إلتمس المحتاجين، لعلك تجد سيدا مسكينا أو شيعيا مكروبا محتاجا، فاخدمهم قلبا وروحا، وابذل المال والروح بإخلاص وبنية القربة إلى الله تعالى، وبعد ذلك التمس مولاك وإمام زمانك الحجة ابن الحسن عليه السلام واذهب إلى باب داره قائلا: «لقد وقعت في حبائل هوى نفسي وابتليت بالشيطان، خدمت الناس قدر المستطاع، والآن أتيت إليك طالبا نظر عنايتك».

أصحاب الحسين عليه السلام نماذج حية كاملة من الإنسانية

أو ما ترى أن الأئمة كانوا يجيزون لأتباعهم بأن يذهبوا، ولكن أتباعهم كانوا يعرفون شأن وقدر آل محمد صلى الله عليه وآله، وكانوا يتمسكون بحجزهم؟ كيف وهو يطلبنا ولكنا مع الأسف الشديد لا نذهب إلى باب داره! ألم يكن أصحاب الحسين عليه السلام شيعة؟ ألم يخاطبهم الحسين عليه السلام في ليلة العاشر من محرم: «معاشر المؤمنين لست أعلم أصحابا أصبر منكم ولا أوفى ولا أعلم أهل بيت أفضل من أهل بيتي فجزاكم الله عني أحسن الجزاء، وإني أظن أن هذا اليوم هو آخر أيامنا مع هؤلاء القوم الملاعين. قد أبحتكم فما في رقابكم من ذمام، فاخرجوا وهذا الليل قد انسدل عليكم فليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في البيداء يمينا وشمالا عسى أن يفرج الله عنا وعنكم فإن القوم يطلبوني دونكم»؟؟

هل قال أصحابه بعد هذا الكلام، ماذا يكون أحسن من هذا، نحن جاهزون للرحيل؟؟؟ كلا كلا! فإن أصحابه عرفوا إمامهم حق معرفته، فتمسكوا بحجزة الحسين عليه السلام التي هي حجزة الله تعالى، فكيف يمكنهم ترك حجزته؟؟؟ حاشا وكلا! بل قام كل واحد منهم وتكلم!

فقام مسلم بن عوسجة[1] وقال: «أنخليك يابن رسول الله وحيدا

(١) لقد تكلم السيد حسين العالم كثيرا عن اللطافات الروحية وقدرة الإنسان على=

فريدا، فماذا نعتذر غدا عند جدك وأمك وأبيك وأخيك، والله لأكسرن فيهم رمحي ولأضربنهم بسيفي ما ثبتت قائمته بيدي، والله لو لم يكن سلاح أقاتلهم به لقاتلتهم بالحجارة، حتى يعلم الله أني قد حفظت ذرية نبيه، والله لو أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ويفعل ذلك بي سبعين مرة ما تركتك، فكيف وهي قتلة واحدة وبعدها الكرامة التي لا أوفى منها».

فداهم روحي ونفسي! فكل واحد منهم أو كل جماعة منهم تكلموا على هذا النحو، ولم يفترقوا عن الحسين عليه السلام، بل في الحقيقة أتوا بتضحية لا يبلغ التصور مداها!!! بأبي أنتم وأمي! فزتم والله فوزا عظيما فيا ليتنا كنا معكم فنفوز معكم فوزا عظيما!

وهذا هو زهير بن القين، حينما رأى الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء وقد تغير حاله، فيقول له: «بأبي أنت وأمي يابن رسول الله ما هذا الإنكسار الذي أراه في وجهك ألست تعلم أنا على الحق». فقال الحسين عليه السلام: «بلى وإله الحق إني لأعلم علما يقينا إني وإياكم على الحق والهدى». فقال زهير: «إذا لا نبالي ونحن نصير إلى الجنة ونعيمها».

فلما فرغ الحسين عليه السلام من صلواته حرضهم على القتال وقال: «يا أصحابي إن هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وانبعثت أثمارها وزينت قصورها وتآلفت ولدانها وحورها وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله والشهداء الذين قتلوا معه وأبي وأمي يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم وهم مشتاقون إليكم فحاموا عن دين الله وذبوا عن حرم رسول الله».

= العزوف عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتجرد من حب الدنيا والعلائق المادية، والعروج إلى الملأ الأعلى الذي هو الهدف الأسمى من خلقته. فلا بأس الآن من الإتيان بنماذج حية من رجال الله، وفنائهم في حب الله وعشقه، وقدرتهم على التضحية بأرواحهم بين يدي إمام زمانهم، حبا في الله وفي رسوله وأهل بيته الطاهرين. فما أحقر الدنيا في أعينهم وما أعظم الآخرة في نفوسهم!

رحلة في المجلس السابع والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

كتب السيد حسين العالم قدس سره مواضيع شيقة في العلوم العصرية، وذلك قبل حوالى سبعين سنة. فقد كتب عن الإنسان، وعلى الأخص عن عجائب خلق الجنين في رحم الأم[1]. وكتب عن الإنسان واحتياجاته الذاتية، حتى أنه كان مجبورا على ركوب الفلك، لتصريف أموره في المناطق الأخرى من العالم. وحتى في وقتنا الحاضر ازداد السفر كثيرا بالطائرات والسيارات والبواخر البحرية، وذلك لاحتياجات الإنسان الذاتية، إما للسياحة والنقاهة، وإما للأمور التجارية والإقتصادية، وإما لزيارة الأهل والأقارب، وغيرها.

وقد كتب قبل حوالى سبعين سنة عن الحيوانات، وسرد قصصا شيقة عنها، وكتب بالتفصيل معلومات مهمة وشاقة عن الحيوانات، مثل الفيل والعنكبوت والنمل والقطط والحشرات الليلية والنحل وغيرها. وكتب قبل حوالى سبعين سنة عن الماء وعن لطافاته، وكيف ينفذ في داخل الأرض إلى جذور الأشجار، ثم يصعد إلى أعالي الأشجار، متحديا قانون الجاذبية. وكيف أنه يتقسم، بقدرة خالق عظيم، بقدر

---

(١) ومن العجيب أن المعلومات التي ذكرها السيد حسين العالم قدس سره، قبل حوالى سبعين سنة، تنطبق مع العلم الحديث ومع علم الطب اليوم.

الكفاف على أوراق الشجر. وقد شبه العرق الكبير في وسط الورق بالنهر، والعروق الصغيرة المتشعبة عن العرق الكبير بالجداول، والعروق الأصغر منها المتشعبة عن الجداول بالسواقي، ثم تنشعب عن السواقي خيوط عنكبوتية غاية في الصغر، منتشرة على سطح الورق، تكاد أن تحتجب عن حواس الإنسان.

والعجب العجاب أنه إذا قل الماء في أي جزء صغير من الورق، عن قدر الكفاف، يبس ذلك الجزء وزالت طراوته. وإذا زاد الماء عن ذلك القدر، فسد ذلك الجزء ونتن. فسبحان الخالق الذي يقسم الأرزاق على قدر، حتى على الجزئيات الصغيرة جدا، التي لا ترى بالعين المجردة، بحيث لو زاد الرزق أو نقص عن قدر الكفاف، لظهر الفساد في تلك الأشياء!

وفي هذا المجلس يكتب عن الهواء، وتفاصيله العلمية الكثيرة. فلو أن الرياح توقفت، وتبعا لذلك هدأت الأمواج في البحار، لاستحالت الحياة على الإنسان والحيوان والنبات. وذكر أن الإنسان لا يحتاج إلى الهواء للتنفس فقط، بل إن الهواء موجود في كل جزء من البدن، بل في كل جزيئة من البدن. ولولا الهواء الذي في داخل البدن، لاختلت سلامة الإنسان وتلاشى البدن، ناهيك عن التنفس الذي لو انقطع لرجع الإنسان آنا إلى العدم، وكذلك الحيوان والنبات.

وذكر عن الرياح كيف أن التلقيح في الأشجار يتم بواسطتها، ولولا هذا التلقيح لما كانت هناك أثمار وفواكه، ولاستحال المعاش على الإنسان. وذكر أن هذه النعم، التي لا تعد ولا تحصى، هي من الله سبحانه وتعالى، وأن الشكر عليها أيضا نعمة عظمى، وهي أيضا من الله سبحانه وتعالى. وهذا هو شكر الله حق شكره! **فالعبد إذا اعترف وأقر بأنه ليس شيءا مذكورا، ولا يستحق أي شيء، ووجد نفسه فانيا في الله، وهبه الله تعالى كل قابلية، وكل شأن عظيم يستحقه الوجود الإمكاني.**

المجلس السابع والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

وهناك واحدة من عجائب العالم التي تدل على ذات واجب الوجود، ألا وهي تصريف الرياح، التي بسبب دورانها وحدوث الأمواج في البحار، يعيش الإنسان والحيوان والنبات. فلو لم تكن هناك آية غير هذه الآية في الهواء، لكانت كافية لإثبات ذات الصانع.

والهواء جسم سيار، ويحدث فيه الموج، بمعنى أن الهواء يضغط على الهواء، حتى يصل إلى جوارنا، فنحس بحركته. والهواء عنصر يوجد في كل مادة، فلا يمكن أن تكون هناك مادة لا يوجد الهواء في تركيبتها. فلا تظن أن جسمنا يحتاج إلى الهواء للتنفس فقط وفقط! بل إن الهواء موجود في كل جزء من البدن، بل في كل جزيئة من البدن. فإن سلامة البدن هي ببركة الهواء، ولولا الهواء لتلاشى البدن. فإن رطوبة الهواء غالبة على كل جزئيات البدن وأجزائه، ولولا الهواء لتصلبت جزئيات البدن ثم الأجزاء ثم البدن نفسه.

وأما حقيقة الهواء فهو جسم لطيف، وحرارته أكثر من الماء، لأن الهواء لو كان باردا مثل الماء، لأصبح ثقيلا ومال إلى المركز. لذا فلو وضعت الثلج في ظرف لرأيت الهواء[١] المجاور للثلج يتحول إلى ماء،

(١) هذا الهواء هو بخار الماء الذي هو في حالة الغاز، وحينما يبرد يتحول إلى حالة الماء.

لأن البرودة تغلب عليه، فتبعا لذلك تنخفض حرارته الذاتية، فيحصل فيه الثقل. وترى أيضا الماء حين يتعرض لحرارة الشمس، يتبخر وينتشر في الهواء. وهذا أيضا يثبت أن حرارة الهواء أكثر من الماء.

ومن أعظم الآيات الإلهية في الهواء أنه أحيانا رحمة وأحيانا أخرى غضب. وهذا الأمر يدل بوضوح على أن الهواء مطيع ومنقاد لأمر آخر، والذي هو المختار المطلق يفعل ما يشاء. لأن الهواء لو كان طبعه خيرا لاستحال صدور الشر منه، ولو كان طبعه شرا لما كان خيرا ومفيدا. ولكنك تلاحظ أن الهواء، الذي تعتمد عليه حياة جميع الكائنات، إذا اختفى فجأة بأمر إلهي، فإن هلاك جميع الكائنات أمر حتمي، وإذا سكن وتوقف عن الحركة، تمنى كل شخص أن يكون الهواء جاريا.

ومن الأمور العجيبة عن الهواء ما ذكره الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، حيث إن تلقيح الأشجار يحدث ببركة الرياح، بواسطة انتقال رائحة الشجرة الذكر إلى الشجرة الأنثى. فالهواء أمر يحتاج إليه الإنسان في تنفسه، وفي حفظ جسمه، وأيضا يحتاج إليه في غذائه. لأنه لولا بركة الرياح، لما كانت هناك أثمار يانعة يأكل منها الإنسان لإمرار معاشه.

ومن عظمة الخالق ورحمته بعباده، أن كل شيء إذا زاد احتياج الإنسان والحيوان إليه، جعل ذلك الشيء متوفرا أكثر. وأكثر شيء يحتاج إليه الإنسان والحيوان هو الهواء، لأنه لو اختفى لدقيقة لمات كل إنسان وحيوان فوق الأرض. فلذلك فإن الله تعالى خلق الهواء بوفرة، وجعله سهل التناول بحيث لا تحتاج إلى الذهاب هنا وهناك للحصول عليه، أو استعمال آلة خاصة لاستخراجه، فالهواء موجود في كل مكان وفي كل حال.

وبعد الهواء يأتي الماء في المرتبة الثانية من حيث احتياج الإنسان إليه، فلذلك فالماء خلقه الله في وفرة، ولكن الحصول عليه ليس سهلا كالهواء. فللحصول على الماء تحتاج إلى أن تذهب إلى مكان خاص، وأن تستخرجه بآلة خاصة، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الماء أقل من الهواء.

الشكر على النعمة نعمة أخرى وتوفيق من الله

وهذا الهواء هو الذي يحرك الركام من السحب والغيوم، حتى يتروى من ودقها بستانك وزراعتك. يقول الله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]. فالله سبحانه وتعالى يسوق الماء الزلال الصافي العذب إليكم أينما كنتم، فما أعظمه من رب!!! فهو يفعل كل ذلك لراحتكم أيها البشر! فالسحاب والرياح والضباب والشمس والفلك في عمل مستمر، حتى تحصل على الخبز لكي لا تأكله في غفلة! فالكل لأجلك أصبح وأمسى مطيعا ومنقادا، فهل من الإنصاف أن لا تكون مطيعا[1]!!!

والريح إنما سميت ريحا، لأن الغالب عليها في هبوبها المجيء بالروح والراحة، وانقطاع هبوبها يكسب الغم والكرب. وكما قال الشاعر: ـ

هواء دونكم مبقي الحياة   هواء حولكم فرح لذات

فكل نفس تتنفسه يحمل نعمتين، وكل نعمة تستوجب الشكر. فكيف يستطيع الإنسان أن يشكر نعماء ربه؟ لأن الشكر فعل ينبئ عن تعظيم

---

(١) ولقد نظمت هذا المعنى شعرا:

سحاب السماء وشمس الضحى   تجري لخبزك يا غافل
رياح الفضاء وأفلاكه   تسعى لرزقك يا جاهل
فكل لأجلك طائع ربه   فانصف أطعه أيا عاذل

المنعم لكونه منعما. فإذا شكر الإنسان لنعم أنعمها المنعم الحقيقي، أما لسانا أو قلبا أو بكل وجوده، فهذا ينبئ عن تعظيم المنعم الحقيقي. ومما لا شك فيه، إنك إن شكرت فذلك بتوفيق إلهي، وهذا التوفيق يستوجب شكرا آخر، وهذا الشكر الآخر توفيق إلهي آخر، والذي يستوجب الشكر أيضا. وهكذا فلو شكرت الله إلى قيام يوم الساعة، لما أتممت شكرك لنعمة واحدة، فكيف تستطيع شكره على النعم المتعددة[1]؟

فقد ورد في الآثار أن زاهدا، في الأزمنة السابقة، عبد الله في زاوية من الجبل، لمدة ستمائة سنة، ولم يعص الله طرفة عين. وقد وهبه الله هناك شجرة رمان وعين ماء، فكان يأكل الرمان من تلك الشجرة، ويشرب الماء ويتطهر به من ذلك العين. فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه، وهو في حالة السجود، حتى يقوم من سجدته في يوم القيامة، فاستجاب الله لدعائه. يقول جبرائيل لقد وجدت في اللوح المحفوظ مكتوبا، بأنه في يوم القيامة سيقوم الزاهد من سجدته، فيخاطبه الملك العلام أن ادخل برحمتي في جنتي. فيقول الزاهد يا رب أأدخل الجنة برحمتك؟ فأين أجر عبادتي التي استمرت ستمائة سنة؟ فيأمر الله تعالى ملائكته أن احسبوا له ستين سنة عبادة، في مقابل كل رمان أكله. ويجيء النداء الإلهي: «وأين شكر النعم الأخرى؟ فيستعر الزاهد احمرارا من شدة الخجل. فيجلجل خطاب العزة: «خذوه إلى النار». فتعلو صيحات الزاهد قائلا: «لقد أسأت السلوك فارحمني واعف عني». فيتغمده الله برحمته ويدخله جنته. فمن يستطيع شكر النعم الإلهية؟

يقول الإمام الباقر عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى خاطب آدم قائلا: «اشكرني حق شكري». فقال آدم: «**يا رب كيف أشكرك حق شكرك، والنعمة منك والشكر عليها نعمة منك**». فقال الله عز وجل: «**إذا عرفت أن**

---

(١) ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ذلك مني فقد شكرتني حق شكري». ولعل المراد من ذلك أن العبد إذا اعترف وأقر بأنه ليس شيءا مذكورا، ولا يستحق أي شيء، ووجد نفسه فانيا في الله، وهبه الله تعالى كل قابلية، وكل شأن عظيم يستحقه الوجود الإمكاني.

قوم عاد وعذاب الريح العقيم

فريح الرحمة تحولت إلى ريح العذاب على قوم عاد، بحيث لم تبق منهم أحدا حيا. وقصة هود كما ذكرتها الآثار هي على النحو التالي: ـ

فحين حضرت نوحا عليه السلام الوفاة، أحضر شيعته والتابعين للحق تعالى وقال لهم: «ستكون بعدي غيبة، يكون فيها زعماء الباطل والملوك الجبابرة هم الغالبين. والله تعالى سيرفع عنكم الشدة بقائم من ذريتي اسمه هود، وسيكون على هيئة حسنة وأخلاق حميدة، وعلى سكينة ووقار، وسيكون شبيها بي في الصورة والسيرة. وعندما يظهر هذا القائم سيهلك الله أعدائكم. فكانت شيعة نوح عليه السلام في انتظار قدوم هود عليه السلام على الدوام. فطالت عليهم المدة، وقست قلوب كثير منهم. وعندما استيأسوا وعظم عليهم البلاء، أظهر الله هودا عليه السلام.

أعلم بأن قلوبكم تطفح بالتمنيات، فشيعة نوح انتظروا طويلا حتى ظهر هود، والمؤمنون انتظروا طويلا حتى ظهر موسى. فيا إلهي لقد طالت المدة، وقلوب شيعة آل محمد مجروحة، ولقد أحاطت بهم المحن والمصائب. فأين هو الآن؟ ومتى يظهر قائم آل محمد عجل الله فرجه، حتى تتنور عيوننا برؤيته؟ فلا تظن بأن قلبك وحدك متألم، فقائم آل محمد أيضا ينتظر قدومه. فارفعوا أيديكم بالمناجاة إلى الله في ظلمات الليالي قائلين: «إلهي ضاقت الأرض، ومنعت السماء، فإليك يا رب المشتكى، وعليك المعول في الشدة والرخاء». إلهي أظهر النور الإلهي، فوجوده

ينبوع البركات. فسيظهر إن شاء الله، وحينئذ تتحول القلوب المجروحة إلى مسرورة.

ورجوعا إلى قصة هود عليه السلام، ففي الأربعين من عمره الشريف، أوحى الله تعالى إليه، أن اذهب إلى قومك وادعهم إلى عبادتي، وأن لا يشركوا بي شيءا، فإن أجابوا دعوتك زدتهم قوة وأموالا. ففي يوم من الأيام كان قوم هود مجتمعين، ففاجأهم هود بدعوته قائلا: «يا قومي اعبدوا الله الذي خلقكم، فلا معبود سواه». فقالوا يا هود لقد كنت فينا أمينا وموضع ثقة واعتماد. فقال: «أنا رسول الله إليكم، فاتركوا عبادة الأوثان». فلما سمعوا ذلك غضبوا وجروا إليه وخنقوه حتى شارف الموت فتركوه. فسقط بلا وعي ليوم وليلة، فلما أفاق كلم ربه قائلا: «إلهي لقد فعلت ما أمرته، ولقد رأيت ما فعلوه بي». فنزل عليه جبرائيل وقال: «الحق تعالى يقول لك لقد جهدت جهدك، ولم تتوان عن دعوة قومك، وهو يعدك أن يلقي الرعب والخوف في قلوبهم، ولن يستطيعوا أن يضربوك بعد هذا اليوم».

فرجع إليهم مرة أخرى وقال: «لقد تجبرتم في الأرض كثيرا، وظهر الفساد منكم كثيرا». فقالوا يا هود تخل عن هذا الكلام، فإن آذيناك في هذه المرة، يكون وقعها أكبر من الأولى. فقال هود: «تخلوا عن هذا، وتوبوا إلى بارئكم». فدخل الرعب والخوف العظيم في قلوبهم، وعلموا بأنهم لن يستطيعوا ضربه، فأضمروا جميعا أذيته. فصاح هود عليهم، فوقعوا على ظهورهم من شدة الدهشة. فقال هود: «يا قوم بقيتم طويلا على الكفر كما بقي قوم نوح، وحقيق علي أن أدعو عليكم، كما دعا نوح على قومه». فقالوا: «يا هود كانت آلهة قوم نوح ضعفاء، أما آلهتنا فهي قوية، وإنك ترى بعينيك قوة أبداننا وطولها» ـ كان طولهم مائة وعشرين ذراعا، بقياس الذراع الذي كان متعارفا في زمانهم.

فلم تكن نصائح النبي هود عليه السلام ومواعظه تؤثر عليهم، فنزل عليهم

العذاب الإلهي متتاليا، إذ أحاطت رمال الصحراء بأطراف البلاد وبمنازلهم، وتوقف المطر لسبع سنوات وأصابهم القحط، فلم يرتدعوا. فأرسل الله عليهم الريح العقيم، التي كانت تحمل العذاب، والتي كانت عقيما من الرحمة الإلهية. فدمرت الريح قصورهم وقلاعهم ومدنهم وأبنيتهم، وجعلتهم جميعا كالرميم. كما قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢]. وفي سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧]. واستمرت الريح سبع ليال وثمانية أيام متتالية، وكانت تقلع الرجال والنساء من الأرض، وترفعهم في الهواء، ثم ترميهم إلى الأرض على رؤوسهم. وكانت تجتث جبالهم، وتدمر بيوتهم وتحولها إلى حصوات صغيرة. حتى أن عجوزا دخلت تحت الأرض، فتبعتها الريح وأهلكتها في اليوم الثامن.

أعلم بأنكم مسروررون بأننا أمة مرحومة، ومثل هذا العذاب لا ينصب علينا. لذا جلسنا مطمئنين، ننتهك سنن الشرع المقدسة، ونتجاوز الأحكام الإلهية، لماذا لا نفعل ذلك، ألسنا أمة مرحومة لا ينزل العذاب عليها؟ فالويل ثم الويل لك أيها المسكين! ألم تقرأ القرآن حيث يقول إذا أسأنا يكون لنا يوم، ولو أنه بحسب الظاهر لا يكون من أيام الدنيا. ولكنه يوم آخر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وفي سورة الإنشقاق ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الإنشقاق: ١٠ ـ ١١]. والآن وقد سمعت، فانتهك أحكام الشريعة كما يحلو لك، إلى يوم يسائلك فيه الأب الروحاني محمد ﷺ قائلا: «أوصيتكم بأحكام القرآن فلماذا انتهكتموها؟»، ففكروا مليا ماذا يكون جوابكم لنبيكم؟

يقال بأن المعتصم أمر بحفر بئر، فحفروا إلى ثلاثمائة قامة، ولم يظهر الماء. فتركه المعتصم ولم يستمر في الحفر. ولما جاء المتوكل العباسي أمر بالإستمرار في حفر البئر إلى أن يظهر الماء. ففعلوا وكانوا يضعون دولابا بعد كل مائة قامة. إلى أن وصلوا إلى صخرة فكسروها، فخرجت من البئر ريح صرصر أهلكت جميع من كانوا في قرب البئر. فوصل الخبر إلى المتوكل، فاستشار العلماء فلم يعرفوا سر هذا الأمر. فكتبوا كتابا إلى الإمام علي النقي عليه السلام. فأجاب الإمام عليه السلام: ـ

«إنها ريح صرصر عاتية التي سخرها الله على مدن الأحقاف وعلى قوم عاد فأهلكتهم. وكانت مدنهم معمورة وفيها خير كثير. ولما لم يؤمنوا بدعوة نبيهم هود عليه السلام، حبس الله تعالى المطر عنهم لسبع سنوات، حتى انتشر القحط فيهم، وزال الخير عن بلادهم. فوعظهم هود عليه السلام أن استغفروا ربكم وتوبوا إليه، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزيدكم قوة إلى قوتكم. فلما لم يؤمن المجرمون، وزاد طغيانهم، أوحى الله تعالى إلى نبيه هود عليه السلام بأن العذاب نازل عليهم في يوم كذا، وسيكون ريحا صرصرا فيها عذاب أليم. فلما آن الأوان، رأوا غيوما تأتي إليهم، فاستبشروا قائلين بأنها الغيوم التي ستمطر عليهم. فقال هود عليه السلام بل هو العذاب الذي كنتم تستعجلونه وتطلبونه».

رحلة في المجلس الثامن والعشرين من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

إن السيد حسين العالم قدس سره يتكلم في هذا المجلس عن وحدة الوجود، ويقول بأنه هو عالم التوحيد بعينه، الذي هو كله نور وأنس وسرور، وأن الظلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلا.

فما هو عالم التوحيد وعالم وحدة الوجود الذي يتكلم عنه السيد بهذه الثقة والإطمئنان؟ فلو كنت شفافا ونورانيا، لقرأت صفحات كتابك الذي تحمله في فطرتك، ولشاهدت بأنه عالم القدس وفي حضرة الأنس، وهو العالم الذي نقر بألسنتنا على الدوام بانتمائنا إليه بقولنا: «إنا لله وإنا إليه راجعون». ولكن الغالبية الضالة، على الرغم من قول هذا الذكر العظيم باللسان، إلا أنهم لا يقرون بهذه الحقيقة قلبيا ووجدانيا ووجوديا. أليسوا هم أتيه من قوم موسى، إذ أرادوا الوطن، ولكنهم انجرفوا إلى التيه انجرافا!!! فلذلك فهم يسخرون ويستهزؤون بوحدة الوجود الذي ننتمي إليه، ونحن إليه راجعون، إن طوعا أو كرها!!! إن طوعا فنعيم مقيم، وإن كرها فعذاب عظيم. لماذا لا يقرون؟ لتعصبهم الطاغي عليهم، ولوجود الحساسية لديهم ضد بعض الأسماء، فهم أهل الأسماء لا أهل المعاني. وما لهم به من علم! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم!!! وإن رجعوا إليه كارهين فعذاب عظيم،

وستبدي لهم الأيام بأن جنايتهم على أنفسهم لا على غيرهم، فعلى أهلها جنت براقش!!!

هذا هو وحدة الوجود الذي يسخر منه كثير من أنصاف العلماء، ويسخرون من محيي الدين بن العربي لتأكيده المطلق على هذه الحقيقة، والسخرية لا تنبع إلا عن جهل بما يقع في الوجود من الحقائق التي يراها رجال الله وأصحاب البصيرة النافذة. يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

وأتعجب كيف يكون هذا التناقض فيهم؟ يرددون الحقائق القرآنية بلسانهم ويقولون (إنا لله وإنا إليه راجعون)، ثم إنهم يستنكفون عن قول (إنا للوجود وإنا إليه راجعون) وعن قبوله. لا أدري هل هم يعيشون في الألفاظ أم في المعاني؟ بل قل لي إذن ماذا يفهمون من قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩] فهل هم ينشدون الآيات البينات في الألفاظ والكتب؟ ألا يدرون أن الآيات البينات هي المعاني العظيمة في صدور الذين أوتوا العلم؟ وهل يقرون بظلمهم إذ يجحدونها؟

يقول السيد حسين العالم قدس سره بأن أرباب الهمم من البشر لا يقر لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكل وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همة وإصرار. ويضيف بأن عالم وحدة الوجود عالم، تتجرد فيه كل الأشياء عن قوقعة النفس، وتصبح الله الأحد، فهناك لا (أنا).

وإذا أردت أن تفهم ما يعنيه السيد، فاخرج من قوقعة النفس، تنحل لك كل المشاكل. فإنك أسير هذه القوقعة ويا للأسف! فافطم النفس وإلا شبت كالطفل على حب الرضاع، وعلى حب القوقعات!!!

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فكل سالك يتمنى أن يصل إلى وحدة الوجود، لأن الوجود هو موطنه الذي افتقده، فهو ينشده بكل قوة، وفي همة وإصرار. فهم يعشقون أن يفنوا في عالم التوحيد فناء محضا، يذوب فيه (الأنا) بكل صوره التي لا تعد ولا تحصى، وهذا هو حقيقة التوحيد، وغيره إما شرك جلي أو شرك خفي، الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، كما يقول الرسول الأعظم ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء».

السعادة والنفس المطمئنة والبقاء والخلود

يقول السيد حسين العالم قدس سره أن هناك طائفة من الناس شملتهم نظر العناية، ولا زالت تشملهم، فآثار الأنس بالله لا زالت باقية فيهم، رغم أنهم بعقلهم لا يعلمون بأنهم كانوا في عالم آخر، في حين من الأحيان، وهو عالم القدس وفي حضرة الأنس.

وإذا كان هناك مثل هذه الطائفة من الناس، كما يقوله السيد، وهم بالتحقيق هناك، وبأعداد لا يستهان بهم، فأنا أخاطب هذه الطائفة. فاعلم يا عزيزي بأن عالم القدس وفي حضرة الأنس، الذي كنت فيه، لا يمكن الوصول إليه بواسطة العقل. فإن العقل المادي الذي تتمتع به، هو لدفع الضرر وجلب المنفعة، في هذه الدنيا، وليس معيارا وميزانا ثابتا تكتشف به عوالم الغيب. فإن كشف عوالم الغيب له معيار وميزان آخر في وجودك وفي أعماق نفسك، ألا هو حقيقة الوجدان النورانية.

فإنك تكتشف موطنك الأصلي في وحدة الوجود، وفي عالم القدس وفي حضرة الأنس، حينما تستقر في (أنا) أو حقيقة الوجدان النورانية، ألا هو الروح الذي هو من الله وقد نفخه فيك، وهو المعيار الثابت الذي لا يتغير، الذي تكتشف به عوالم الغيب. فلأنه روح من الله، فهو ثابت لا يتغير، وهو الجزء من الحقيقة العظمى. وهذا الجزء الذي هو فيك، تكتشف به الله سبحانه وتعالى وتتعرف عليه. وبمعرفة الله، التي هي أول الدين، كما يقوله إمامنا ومقتدانا علي عليه السلام، تكتشف آفاق الدين وعوالم الغيب.

وحينما تستقر في وجدانك، تعلم مدى قوة انتمائك إلى الوجود الباقي الذي لا يفنى، وإلى عالم القدس الذي كنت فيه. وتعلم مدى قوة انتمائك إلى حضرة الأنس والسرور والسعادة المطلقة. وآثارها قوية فيك، وهي الحاجة الملحة التي تشعر بها إلى السعادة وإلى البقاء والخلود. فانظر مليا في نفسك، أما ترى هاتين الحاجتين مترسختين فيك، بحيث إن مساعيك كلها متوجهة إلى تحقيقهما؟ فإنك ترى بوضوح بأني لا أعاملك بالبراهين الفلسفية، ولا بالإستدلالات الذهنية، فإن الذهنيات لا توصلك إلى الحقيقة العظمى الثابتة. والذي يوصلك إليها هو (الروح الذي هو منه وقد نفخه فيك)، وهو نور الله الذي يسطع فيك. فإذا اكتشفته فهو كما ذكره النبي ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». فاكتشف في نفسك هذا العلم النوراني، حتى تكتشف الحقائق الكونية النورانية الثابتة!

فلقد قلت لك بأن مساعيك كلها متوجهة إلى تحقيق السعادة والبقاء. ألا ترى أنك لا تحب الشقاء، وتحاول في كل مساعيك تحاشي الشقاء وتحقيق السعادة؟ ألا ترى أنك البتة لا تحب الموت، وتحاول في كل مساعيك تحاشي الموت وتحقيق البقاء؟

ففي كل محاولة من محاولاتك، تحاشيت الشقاء وحققت سعادة نسبية، ثم انقلب السحر على الساحر، وتحولت السعادة النسبية إلى شقاء. وحاولت مرة ثانية دفع الشقاء عنك وتحقيق السعادة، ثم اكتشفت بأنها سعادة نسبية، تتحول مرة أخرى إلى شقاء. ثم حاولت مرات ومرات، وفي كل مرة تكتشف بأن السعادة التي حققتها نسبية، تتحول مرة أخرى إلى شقاء.

فلنضرب مثلا أنك، في مقتبل العمر، تتمنى وتقول: «لو كان عندي عمل يدر علي دخلا، لكنت أسعد الناس». ثم تحصل على العمل والدخل، ولكن ذلك لا يحقق لك الرضا كاملا. فتتمنى وتقول: «لو

كانت عندي سيارة، لكنت أسعد الناس». ثم تكتشف بعد هنيهة أن ذلك لم يحقق رضاك كاملا. فتتمنى وتقول: «لو كانت لي زوجة، لكنت أسعد الناس». ثم تحصل على زوجة، وبعد هنيهة تكتشف بأنها لا تحقق رضاك كاملا، إن كانت زوجة طيبة. أما إذا كانت زوجة سيئة سليطة اللسان، فتكتشف بأنك حصلت على الشقاء بدل السعادة. ثم تتمنى وتقول: «لو كان عندي منزل أملكه، لكنت أسعد الناس». فتبذل مجهودات جبارة للحصول على قرض مصرفي لشراء منزل. ثم تكتشف بعد هنيهة أن ذلك لم يحقق رضاك كاملا. وهلم جرا... تبرز حاجات مادية أخرى، وتحسب أن تحقيقها يوصلك إلى السعادة. ولكنك في نهاية المطاف، تكتشف بأن إرضاء الحوائج المادية لا يوصلك إلى السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية. وتتمنى لو كنت طيرا حتى تنفلت من الشقاء، وتحصل على ضالتك المنشودة!!!

مرت بنا سحرا طير فقلت لها طوباك يا ليتني إياك طوباك

وسؤالي الآن: هل حاجتك إلى السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية قد جعلت فيك عبثا، وأن تحقيقها من المستحيلات؟ وهل يمكن أن يودع الله فيك حاجة، ثم يجعل تحقيقها مستحيلا عليك؟ بالله عليك فكر في هذا، ولا تكن من الكافرين!

ثم إنك لا تحب الموت، أليس كذلك؟ ثم إنك تحس في نفسك حاجة ملحة للبقاء، وتقول: «لو أني بقيت مخلدا ولم أمت، لكنت أسعد الناس». ثم إنك تحاول جهدك لإطالة عمرك قدر المستطاع، وتلتجئ إلى الطبيب لشفاء أمراضك. لماذا؟ حتى لا تموت بسبب ذلك المرض. ثم إنك تستعمل أساليب وقائية لدفع الأمراض عنك، وتسميها الوعي الصحي. لماذا؟ حتى لا تبتلى بالأمراض، وتموت في إثرها. ثم إنك إذا حدث لك أن ابتليت بمرض، استعملت أدوية لشفاء ذلك المرض. لماذا؟ حتى لا تموت بسبب ذلك المرض. وإذا كان مرضك لا شفاء له،

استعملت الدواء على الدوام، كحبوب الكولسترول وضغط الدم والسكري وغيرها من الأمراض. لماذا؟ حتى لا تموت، وحتى تستطيع إطالة عمرك قدر المستطاع. ولو اكتشف علاج للموت، واستطاع الطب أن يخترع دواء لإطالة العمر، لهرع الناس كلهم إلى استعماله بدون استثناء، طلبا للبقاء والخلود.

أما إذا تحقق ذلك، وطالت أعمار الأبدان إلى الأبد، لامتلأت البسيطة بالمعمرين الذين حصلوا على العمر الخالد. وطفحت الأرض بأعدادهم الهائلة، وقل الغذاء والماء لاستمرارية بقائهم، ودفع الموت. وعانت الأجيال الناشئة معاناة عظيمة، فلا ماء ولا غذاء ولا قدرة على تنظيم الإقتصاد العالمي ودفع الموت. ونتيجة لذلك تموت الأجيال القديمة والأجيال الناشئة معا، من المجاعة أو سوء التغذية، بسبب قلة الغذاء وقلة الماء. فقد استجرت بالخلود المادي أو خلود الأبدان، فرارا من الموت، فماذا حصل؟؟؟

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فسؤالي الآن: هل يمكن أن تكون في نفسك هذه الحاجة الملحة للبقاء والخلود، ثم لا يمكن تحقيقها؟ هل من الممكن أن يودع الله فيك هذه الحاجة الملحة للبقاء والخلود، ثم يجعل تحقيقها من المستحيلات؟ بالله عليك فكر مليا في ذلك، ولا تكن من الكافرين!!!

إذن أين يقع تحقيق السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية؟ وأين يقع تحقيق البقاء والخلود للجنس البشري؟

محاورة حي بن يقظان مع أبسال

أتعجب من الغالبية العظمى من الناس يحسون بالحاجة الملحة إلى السعادة والبقاء، ثم لا يستطيعون تحقيقها بكل الوسائل المادية التي استعملوها وجربوها، كيف أنهم لا يرحبون ولا يستقبلون بقلوبهم تلك القلة من العرفاء، الذين اكتشفوا الأسلوب الناجع لتحقيق هاتين الحاجتين الملحتين في الفطرة الإنسانية!!! أتعجب من المريض الذي جرب كل السبل لعلاجه ولم يشفَ! وجرب كل الأساليب التي توصل إليها الطب ولم يشفَ! وجرب كل الأدوية التى وصفها الأطباء لعلاجه ولم يشفَ! كيف أنه إذا وجد أحدا كان مريضا بنفس المرض، ثم اكتشف الإكسير والعلاج الناجع فشفي، كيف أنه يستنكف عن الإعتبار بهذا الإكسير، الذي هو إكسير العرفاء، والذي هو شفاء لكل داء. أما في الإعتبار غنى عن الإختبار!!! أم هو يريد مواصلة تجربة الوسائل المادية إلى يوم حتفه، للحصول على السعادة النسبية، بتجربة أنواع المتع والملذات! وللحصول على البقاء النسبي، بتجربة أنواع الأدوية المادية! أليس هو إذن أبله من الحبارى إن فعل ذلك! بل ما هو أدهى وأمر، كيف يسخر هذا الشخص ويستهزىء بالعرفاء ورجال الله الصالحين!!!

في كتاب (حي بن يقظان) لابن طفيل، يقول حي بن يقظان، الذي تربى في الجزيرة بين الحيوانات، منذ نعومة أظفاره، يقول لأبسال ذلك الرجل السالك إلى الله، الذي أتى إلى الجزيرة من المدينة المجاورة ما

مضمونه: «هذا الذي اكتشفته من إكسير النفس المطمئنة الراضية المرضية، وإكسير الخلود في جنات النعيم، لو أني ذهبت إلى المدينة لأعلمهم ذلك الإكسير، لاستقبلوني الناس أحسن استقبال، ورفعوني على أكتافهم، ورحبوا بي أحسن ترحيب، واستعملوا أسلوبي للوصول إلى السعادة المطلقة، والخلود في دار الآخرة».

فقال له أبسال ما مضمونه: «لا يا بني، بل يسخرون منك ويستهزئون بك، ويرمونك بالبيض الفاسد والطماطم النتنة، هكذا يكون استقبالهم لك يا بني، فإنني أعرفهم حق المعرفة. إنهم متهافتون على الدنيا، ويحبون المال حبا جما، فإذا كنت ممن يريهم بريق المال والجاه، فإنهم يستقبلونك أحر استقبال، طمعا في هذا المال وفي هذا الجاه، وإلا فلا».

فتعجب حي بن يقظان من كلام أبسال. أيمكن أن يستقبله الناس بالبيض الفاسد والطماطم النتنة، وأن يسخروا منه ويستهزئوا به، في حين أنه يأتيهم بالإكسير الذي اكتشفه، وبأحسن هدية خلقها الله تعالى!!! أيمكن أن يأتيهم بكل هذه الثروة الروحانية، وخزائن الرحمة الإلهية، والأسرار الربانية العلوية، ثم إنهم لا يرحبون بها أحسن ترحيب، ولا يستقبلونها بقلوبهم وأرواحهم، ولا حتى يشكرونه، مجرد شكر بسيط، للإكسير العجيب الذي اكتشفه، وللهدية الإلهية العظمى التي لا يطلب منهم على ذلك أجرا ولا عوضا ولا بدلا!!! أيمكن أن يكافئوا هذا الإحسان العظيم بالإساءة والسخرية، وأن يجزوه جزاء سنمار!!!

واستطرد أبسال واستفاض في الحديث مع حي بن يقظان بما مضمونه: «إن ما قلته لك يا بني غيض من فيض. فإذا ذهبت إليهم فاستعد للبلاء والجفاء، والعداوة والكراهية، والأحقاد والضغائن، وربما الإضطهاد والقتل. فإن لم يفعلوا ذلك، فأقلها السخرية والإستهزاء وجرح اللسان. فانظر ماذا فعلت قريش بمحمد ﷺ في بداية رسالته، حيث كانوا

يرمونه بالحجارة، ويسخرون منه ويستهزئون به، ويستعملون الأساليب المختلفة لاضطهاده، حتى أنهم قتلوا والدي عمار ـ ياسر وسمية ـ تحت التعذيب، وعذبوا عمارا وبلالا وغيرهما، وحاصروا محمدا وأصحابه اقتصاديا بالتجويع وغيره، ثلاثة أعوام كاملات، حتى أن أصحابه المقربين إليه هاجروا إلى الحبشة، اتقاء من بطش قريش، حتى قال ﷺ: «ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت».

وانظر ماذا فعل قوم نوح بنبيهم، وقوم إبراهيم بنبيهم، وقوم موسى بنبيهم، وقوم عيسى بنبيهم. وانظر ماذا فعلوا بأوصياء محمد ﷺ، حتى لم يمت فيهم أحد إلا مقتولا أو مسموما، وحتى أن أواخر أوصيائهم ماتوا مسمومين في مقتبل العمر. وحتى أن خاتم الأوصياء غاب عنهم لتحاشي الإضطهاد والقتل، ولو ظهر اليوم لرفعت الغالبية العظمى من الناس سيوفهم ورماحهم عليه، وفي مقدمتهم أنصاف العلماء، إلا من رحم ربي!!!

حتى أن الإمام زين العابدين عليه السلام أنشد هذه الأبيات المنسوبة إليه: ـ

إني لأكتم من علمي جواهره	كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا

علما بأن الذكر الحكيم أوصى الأمة بالمودة في قربى الرسول ﷺ في سورة الشورى قائلا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

فبقي حي بن يقظان في جزيرته مفضلا الإستئناس بالله على الإستئناس بخلق الله. وفضل تحاشيهم والإبتعاد عنهم، حتى لا يلاقي الإضطهاد والقتل الذي لاقاه أولياء الله وعباده الصالحون، من الذين

ذكروا، وغيرهم كثيرون، من أمثال الحلاج وعين القضاة وغيرهم.

يقول السيد حسين العالم قدس سره: «والتي توجب حجب الإنسان وبعده وظلمته وجهالته، وتسبب حرمانه من عوالم الغيب، هو روحه الذي انحبس تحت ركام من الحجب الروحانية والجسمانية، التي حصلت له بعد العبور على الملكوت والملك والتعلق بالقالب، وترسخت فيه بسبب **الطبع والعادة** التي تدير في فلكها باستمرار حركاته وأفعاله وأقواله ونظراته وخواطره، التي تنبع من ظاهره وباطنه، لا تكاد تتوقف **بمقتضى قوة الطبع والعادة**. ولو أن ألف مخبر صادق أخبره بأنه كان، في حين من الأحيان، في عالم القدس وفي حضرة الأنس، لما آمن بذلك عقله». ويقول في مكان آخر: «وأما الذي لم يبق أثر من الأنس عنده، فقلبه مغلق كليا، فلا يؤمن صاحبه بتاتا».

فطوبى لمن تحرر من قوة الطبع والعادة، واستفاد من هذه الحكمة الخالدة: (كسر العادة عبادة)، التي تفوه بها شيخي ومولاي صادق العنقاء!!! وطوبى لمن أصبح من الأحرار، كيوم ولدته أمه! فلو كان الناس كذلك لما كان هذا الأمر عليهم صعبا مستصعبا، ولأصغوا إلى التعليمات الإلهية، وتلقوها بكل شوق، كما تتلقى رمضاء الصحراء ودق السماء. فإنهم نسوا الحكمة المعروفة التي نطق بها مولانا ومقتدانا علي عليه السلام: «انظر إلى ما قيل ولا تنظر إلى من قال». فلو أنهم اتبعوا هذه الحكمة، ولم يخلطوا بين المتكلم وكلامه، لاتضح لهم الحق، واتبعوه من دون تدخل الحسد والضغائن. فإن الناس مع الأسف ينظرون إلى المتكلم بحسدهم وضغائنهم، كما نظروا إلى علي عليه السلام، فلم يستفيدوا من كلامه، وضاعت فرصة العمر عليهم، لأن أكثريتهم نظروا إلى كلامه أيضا بحسدهم وضغائنهم، مع الأسف الشديد!!!

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

السير والسلوك

ويذكر السيد حسين العالم قدس سره الآية من سورة الواقعة ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]. فيقول إن البعض يعملون في أمور الآخرة من دون واسطة، وهم السابقون وعباد الله المقربون. وهناك الطائفة الثانية تحصل لهم البصيرة بواسطة الطائفة الأولى، ويسمون أصحاب الميمنة والأبرار وأصحاب اليمين. وهناك الطائفة الثالثة وهم الذين لا تحصل لهم البصيرة لا بواسطة ولا من دون واسطة، وهم أصحاب الشمال.

فماذا يعني كلام السيد بالنسبة إليك؟ فإن كنت من ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١] فطوبى لك! فأنت من الذين سبقت لهم من الله الحسنى! أما في غير ذلك فلا تحصل لك البصيرة إلا بواسطة الطائفة الأولى. فادخل السير والسلوك تحت تربية أحد من الواصلين، لعلك تصبح من أصحاب اليمين، وتتدرج في الرقي إلى أعلى عليين، وتندمج مع السابقين السابقين. لأنك إن لم تفعل، وقعت في أصحاب الشمال، والعياذ بالله!!! فإما هلك وإما ملك!!!

فالأحرى بك أن تدخل في السير والسلوك إلى الله خالصا مخلصا لله، حتى تترفع عن الدرك الأسفل الذي يكون فيه أصحاب الشمال، وحتى تنجو وتتخلص من ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢ ـ ٤٤]، الذي جعله الله لأصحاب الشمال ـ اقرأ سورة الواقعة.

وإذا كانت المسألة بهذه الجدية، وبهذه الحدة والشدة، فلا مناص لك إلا أن تدخل في سلك السالكين، وترفع نفسك من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وإلى أحسن تقويم، الذي خلق الله عليه فطرتك. يقول الله تعالى في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٤ ـ ٥]. فلقد أصبح السير والسلوك واجبا عليك لإنقاذ نفسك من هذه الورطة الكبيرة، فهناك ثلاثة أزواج ـ كما ذكرت ذلك سورة الواقعة. فإن لم تكن من (السابقون السابقون)، **فلا خيار إلا بين اثنين، لا ثالث لهما، فإما من أصحاب اليمين وإما من أصحاب الشمال. فانظر ماذا تختار!!!** هل تهب لنصرة نفسك، أم تتخاذل وترجع بخفي حنين!!!

تقول الغالبية العظمى من الناس إن السير والسلوك، والوصول إلى الله، هو حكر على الأنبياء والأئمة ﷺ. أما نحن فيجب علينا أن نكرر أسماءهم وقصصهم، بقصد التبرك بهم، وربما اكتساب بعض صفاتهم وخصالهم. أما أن نصل إلى الله كما وصلوا، وأن نتخلق بأخلاق الله، فهذا من المستحيلات. وأن الذي يقول بإمكان الوصول إلى الله، كما وصل الأنبياء والأئمة ﷺ، فهو صوفي يستحق السخرية والإستهزاء.

أما أنا فأقول لقد صدقت يا أخي، فهذا الأمر من المستحيلات بالنسبة إليك، ما دمت تحمل هذا النمط من التفكير السلبي. فبهذه الثقافة السلبية، إنك حقا كمبتغي الصيد في عرينة الأسد. فإنه محال عليك أن تصل إلى الله، اللهم إلا إذا غيرت نمط تفكيرك، فهل يستقيم الظل والعود أعوج!!! يقول خاتم الأنبياء ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر». ويقول ﷺ: «إن الله تعالى يقول أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرا فخير وإن شرا فشر». ويقول ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم». ويقول ﷺ: «لا سهل إلا ما جعلت سهلا». ويقول ﷺ: «من كان سهلا هينا لينا حرمه الله على

النار». ويقول ﷺ: «إن الله تعالى يحب السهل الطليق». فلتكن يا أخي سريرتك إيجابية لا سلبية، حتى يلبسك الله رداء الهمم العالية في جهاد النفس، وأحسن ظنك بالله، وأخلص نيتك للوصول إليه، فإنه لا سهل إلا ما جعلت سهلا!!!

وأعتقد أن هذه المواقف السلبية ترجع مصداقيتها إلى النص القرآني الشريف في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فهذه المواقف السلبية هي بحق انقلاب على الأعقاب، ظهر منذ وفاة الرسول الأكرم ﷺ، وغروب شمسه الظاهرية.

وإلا فهناك حديث عن ابن عباس يقول فيه: «كنا في عهد رسول الله ﷺ تنزل الآيات القرآنية، فنأخذها عشرا وعشرا ونطبقها على أنفسنا، ثم ننتقل إلى الآيات العشر الأخرى»، وهلم جرا. فكان الإتجاه في عهد الرسول ﷺ نحو تطبيق الآيات المنزلة على النفس في كل جدية. فلذلك خرجت من هذه المدرسة المحمدية العظيمة صحابة منتجبون، من أمثال سلمان ومقداد وأبي ذر وعمار وأبي حذيفة وأبي سعد الخدري وابن عباس وأبي سهل الساعدي وجابر بن عبد الله الأنصاري وزيد بن أرقم وكثير غيرهم، وعلى رأسهم أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيد الوصيين وقدوة العارفين الإمام علي بن أبي طالب والسبطان الحسن والحسين سلام الله عليهم أجمعين.

إلا أنه بعد وفاة النبي ﷺ حصل الإنقلاب على الأعقاب، وتغيرت الوجهة من جهاد النفس إلى تقوية شوكة المسلمين، وحب المال والرفاهية التي حصلت من غنائم الفتوحات. وبقيت آثارها وتبعاتها إلى يومنا هذا، حيث دب الكسل، وقويت الأعذار لتبرير المواقف السلبية من الجهاد الأكبر، ومن السير والسلوك، إلا من رحم ربي من عباد الله الصالحين.

فمنهم من يقول بأفواههم: «يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزا عظيما» عندما يذكر أصحاب الحسين عليه السلام ومواقفهم العظيمة، إلا أنهم لا يسلكون مسلك أهل الجذب وأهل السير والسلوك، بتطهير أنفسهم وتهيئتها للمواقف المشابهة لمواقف أصحاب الحسين عليه السلام. فهم يفضلون الإنغماس في المادة، وجمع المال، والمكر والخديعة، على تطهير النفس من الأوساخ والرذائل والمعاصي، ويفضلون اللغو وذكر الدنيا على ذكر الله سبحانه وتعالى. وإذا قيل لهم انهضوا إلى التزكية وتطهير القلوب واللقاء بالله، سخروا منك، وقالوا الوصول إلى الله هو خاص بالأنبياء والأئمة عليهم السلام. فكأن الله خلق الأنبياء والأئمة عليهم السلام ليتبرك الناس بهم، لا لأن يكونوا قدوة للناس، يتبعونهم الناس، ويقتدون بهم، ويحذونهم حذو النعل بالنعل، ويعملون على منهاجهم ومثالهم، ويتبعون نهجهم المقدس. فماذا أفعل! أنا وهم مختلفان، وما يجمع بيني وبينهم إلا كما يجمع بين الأروى والنعام! فأنا تئق وأنت مئق فكيف نتفق!!!

ويذكر السيد حسين العالم قدس سره الحديث النبوي الشريف في المجلس الواحد والعشرين في فصل (ما هو علم اليقين وعين اليقين): «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض». فاعمل جادا لأن ترى ملكوت الله ـ لا أن تتصوره وتتوهمه ـ وذلك بتطويع الشياطين وترويضها، تماما كما تقوم بتطويع البهيمة الوحشية وترويضها. فبإمكانك رؤية ملكوت الله، كما يقول الرسول صلى الله عليه وآله، إن أنت دخلت في السير والسلوك. وبإمكانك أيضا لقاء الله كما يقول الله تعالى في آخر سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. فمن قال لك أن لقاء الله خاص بالأنبياء والأئمة عليهم السلام؟ فباستطاعتك رؤية ملكوت الله، وبإمكانك لقاء الله. فماذا يحجبك عن ذلك؟

فحجابك هو أنت ونفسك، وتفكيرك السلبي، وتخاذلك عن جهاد النفس، وثقافتك المعوجة. وما قلبت للعرفاء ظهر المجن، إلا بسبب هذا التخاذل والتكاسل والسلبيات التي أظلمت وعسعست وادلهمت، كحندس الليل الحالك، حينما يغدف إغدافا!!! فاخرج من السخرية والإستهزاء، فإن ذلك يسود وجهك أمام الله. واخرج من العجب، وتواضع لله، ثم ادخل السير والسلوك، لتصل إلى رؤية ملكوت الله، ومن ثم إلى لقاء الله تعالى. يقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: «طوبى للمتواضعين فإنهم يرون الله». ويقول النبي ﷺ: «من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله». ويقول ﷺ: «لم لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك، العجب العجب». ويقول ﷺ: «من سره أن يجلس مع الله فليجالس أهل الفقر» وفي رواية «أهل التصوف». ويقول ﷺ: «الفقر فخري». والفقر هو العرفان بعينه، لا الفقر المادي. ويقول ﷺ لأبي ذر الغفاري: «يا أبا ذر الفقراء ضحكهم عبادة، ومزاحهم تسبيح، ونومهم صدقة، ينظر الله إليهم في كل يوم ثلاث مرات».

علما بأن حوزة النجف الأشرف أسست قبل حوالى ١٢٥٠ سنة، وكانت تسمى (حوزة الفقراء) ـ أي حوزة العرفاء ـ في زمان الأئمة عليهم السلام وهم منها مرأى ومسمع. وبعدها بقرون أضيفت إليها حوزة ثانية وسميت (حوزة الفقهاء).

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «لولا لغو في لسانكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع». فالأجدر بك أن تتغلب على لغو اللسان، كيف؟ بذكر الله المستمر، حتى يتراجع اللغو شيءا فشيءا، ويخلو الجو لذكر الله فقط. والأحرى بك أن تتغلب على تمريج القلب، كيف؟ بثبات التركيز على النقطة النورانية في القلب، والتوجه إلى الله بكل وجودك وخلاياك وضربات قلبك، وأنفاسك التي لا تتوقف، ووقف الأفكار والواردات من الخواطر، وتوجيه كل قواك وكل شيء فيك وجهة

واحدة، ووردا واحدا، نحو الله تعالى. فإن الرسول ﷺ يضمن لك أن ترى ما يراه، وأن تسمع ما يسمعه!!!

وأريد أن أتوج هذا الفصل، وهو فصل السير والسلوك، بشعر أستاذنا ومولانا الشيخ محمد النمر قدس سره: ـ

ومن أعجب الأمر هذا الخفاء ... وهذا الظهور لأهل الوفا
وما في الوجود سوى واحد ... ولكن تكثر لما صفا
وأصل جميع الورى نقطة ... على عين أمر بدت أحرفا
وتلك الحروف غدت كلمة ... فكانت نشوق الحشا المدنفا
وقد حال بينك يا عاذلي ... وبيني بأنك لن تعرفا
ولما شربت كؤوس الهوى ... وذقت المدامة والقرقفا
أزيلت صفاتي فلا وصف لي ... وعني جميعي مضى واختفى
فما أنا إلا هيول الورى ... ولمحة نور من المصطفى

المجلس الثامن والعشرون من مخطوطة كتاب المجالس للسيد حسين العالم قدس سره

من كتاب بحر المعارف ما معناه إجمالا، أن البشر كانوا في بدايتهم في وحدة الوجود[1]، وهو عالم التوحيد[2] الذي كله نور وأنس وسرور، وأن الظلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلا، وأن أرباب الهمم من البشر لا يقر لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكل وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همة وإصرار، ولسان حالهم يقول:

إما اللقاء ووصله في رأسي ... إما فداء الرأس في سكري وأنسي

وعالم وحدة الوجود عالم، تتجرد فيه كل الأشياء عن قوقعة

---

(١) هذا هو وحدة الوجود الذي يسخر منه كثير من أنصاف العلماء، ويسخرون من محيي الدين بن العربي لتأكيده المطلق على هذه الحقيقة، والسخرية لا تنبع إلا عن جهل بما يقع في الوجود من الحقائق التي يراها رجال الله وأصحاب البصيرة النافذة. يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

(٢) هو عالم القدس وفي حضرة الأنس، وهو العالم الذي نقر بألسنتنا على الدوام بانتمائنا إليه بقولنا: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ولكن الغالبية العظمى منا لا تقر بهذه الحقيقة قلبيا ووجوديا، فلذلك فهم يسخرون ويستهزؤون بوحدة الوجود الذي ننتمي إليه، ونحن إليه راجعون، إن طوعا أو كرها!!! إن طوعا فنعيم مقيم، وإن كرها فعذاب عظيم.

النفس، وتصبح الله الأحد، فهناك لا (أنا)[1]. فاعلم بأن الحقيقة الإنسانية تعينت في مرتبة القلم الأعلى التي هي مرتبة العقل الأول، وبعدها أصبحت النفس الكلية في مرتبة اللوح المحفوظ، وبعدها مرتبة العرش العظيم التي حددت الجهات وهو مقام اسم الرحمن، وبعدها مرتبة الكرسي وهو مقام اسم الرحيم، وبعدها في السماء السابعة التي هي فلك زحل وهو مقام اسم الرب، وبعدها في السماء السادسة وهي فلك المشتري وهو مقام اسم العليم، وبعدها في السماء الخامسة وهي فلك المريخ وهو مقام اسم القهار، وبعدها في السماء الرابعة وهي فلك الشمس وهو مقام اسم المحيي، وبعدها في السماء الثالثة وهي فلك الزهرة وهو مقام اسم المصور، وبعدها في السماء الثانية وهي فلك عطارد وهو مقام اسم البارئ، وبعدها في السماء الأولى وهي فلك القمر وهو مقام اسم الخالق، وبعدها في العناصر الأربعة، ومن ثم إلى المواليد الثلاثة، ومن ثم إلى صلب الأب. ومجموع هذه المراتب تسمى مرتبة الإستيداع. ثم تنتقل الحقيقة الإنسانية من صلب الأب إلى رحم الأم، وتستقر فيها، وتسمى مراتب الإستقرار. قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨] (وهي النفس الكلية) فمستقر ومستودع (أي فلكم استقرار في الرحم واستيداع في الصلب في المراتب المذكورة آنفا).

---

(١) بل فناء محض في عالم التوحيد يذوب فيه (الأنا) بكل صوره التي لا تعد ولا تحصى، وهذا هو حقيقة التوحيد، وغيره إما شرك جلي أو شرك خفي، الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، كما يقول الرسول الأعظم ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء».

معرفة الله ورسوله والإمام في فطرة الإنسان

والتي توجب حجب الإنسان وبعده وظلمته وجهالته، وتسبب حرمانه من عوالم الغيب، هو روحه الذي انحبس تحت ركام من الحجب الروحانية والجسمانية، التي حصلت له بعد العبور على الملكوت والملك والتعلق بالقالب، وترسخت فيه بسبب الطبع والعادة التي تدير في فلكها باستمرار حركاته وأفعاله وأقواله ونظراته وخواطره، التي تنبع من ظاهره وباطنه، لا تكاد تتوقف بمقتضى قوة الطبع والعادة. ولو أن ألف مخبر صادق أخبره بأنه كان، في حين من الأحيان، في عالم القدس وفي حضرة الأنس، لما آمن بذلك عقله.

وفي العلل عن المفضل بن عمر قال سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن الطفل يضحك من غير عجب، ويبكي من غير ألم، فقال عليه السلام: «يا مفضل بن عمر ما من طفل إلا وهو يرى الإمام ويناجيه، فبكاؤه لغيبة شخص الإمام عليه السلام، وضحكه إذا أقبل عليه، حتى إذا أطلق لسانه، أغلق ذلك الباب عنه، وضرب على قلبه بالنسيان».

أما هناك طائفة من الناس شملتهم نظر العناية، ولا زالت تشملهم، فآثار الأنس بالله لا زالت باقية فيهم، رغم أنهم بعقلهم لا يعلمون بأنهم كانوا في عالم آخر، في حين من الأحيان، ولكن إذا جاء مخبر صادق القول وتكلم، فإن أثر نور صدقه يتناغم مع الأنس الذي لا زال باقيا في قلب المستمع، فيقر بذلك فورا ويؤمن. وإجمالا متى كان

هناك أثر من الأنس في القلب باقيا، فهو بذر الإيمان، فيؤمن صاحبه فورا. وأما الذي لم يبق أثر من الأنس عنده، فقلبه مغلق كليا، فلا يؤمن صاحبه بتاتا، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

الشيخ علي المؤذن وتذكره عالم الأرواح

وبعض السالكين طريق الحق، في أثناء سلوكهم، ينكشف الحجاب عن أبصارهم، حتى يبصروا مرة أخرى أحوال المقامات الروحانية والجسمانية التي مروا عبرها. وأحيانا في حين تعلق الروح بالقالب، تنكشف بصيرة البعض، فيتذكر عبوره على الموجودات من المقام الأول، وحتى وصوله إلى صلب الأب، ومن ثم إلى رحم الأم، وحتى ولادته في هذا العالم.

فقد نقل في كتاب مرصاد العباد، بأن شيخ وقته الخواجه محمد ذكر مرارا، بأن الشيخ علي المؤذن في نيشابور كان يقول:

«أتذكر حينما كنت في عالم الأرواح، وعند مجيئي من عالم قرب الحق إلى هذا العالم، كانت روحي تمر عبر السموات، فكلما مررت على سماء، كان أهل ذلك السماء ينظرون إلي ويقولون: «إن هذا المسكين ينقلونه من مقام القرب إلى عالم البعد، ومن الأنس إلى الوحشة، ومن الأعلى إلى الأسفل، ومن سعة حضائر القدس إلى ضيق سجن الدنيا»، وكانوا يتأسفون على حالي. فجاءهم خطاب العزة يقول: «لا تظنوا بأن إنزاله إلى عالم الدنيا هو من جهة الهوان والذلة، فبعزتي وجلالي لو أنه وقف على بئر، ولو مرة واحدة في خلال عمره في الدنيا، وصب دلوا من الماء في كوز عجوزة، لكان أحسن له من مائة ألف سنة في حضائر القدس، وانشغاله هناك بذكر سبوح قدوس. فإن

رؤوسكم في الرمال، وأنتم في مقام ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فكلوا الأمور إلى ربوبيتي، فإني أعلم ما لا تعلمون».

وبعد ما تفهمت بعض المراتب والمنازل، فاعلم بأن الله ﷻ قال في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] وهذه إشارة إلى أن البعض يعملون في أمور الآخرة من دون واسطة، وهم السابقون وعباد الله المقربون. وقد جعل الله لهذه الطائفة من رجال الله ثلاثة عيون في الجنة: أولاها عين زنجبيل، وجعلها لهم لأنهم من السابقين، كما قال الله تعالى في سورة الدهر: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]. والثانية هي عين كافور، وقد جعلها لهم لكونهم عباد الله، كما قال تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٦]. والثالثة هي عين تسنيم، وهي أشرف العيون، وجعلها الله لهم لكونهم من المقربين، كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: ٢٧ ـ ٢٨].

والطائفة الثانية تحصل لهم البصيرة بواسطة الطائفة الأولى، ويسمون أصحاب الميمنة والأبرار وأصحاب اليمين، وهذه الطائفة لا يشربون الصرف من العيون الثلاثة، ولكن نصيبهم منها بقدر اندماجهم في الطائفة الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن[1] كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

والطائفة الثالثة هم الذين لا تحصل لهم البصيرة لا بواسطة ولا من دون واسطة، وهم أصحاب الشمال، وقد قال الله تعالى في شأنهم في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤].

---

(١) فحرف (من) يدل على البعضية، وبقدر اندماجهم في الطائفة الأولى.

فيا عزيزي، الرجل الحقيقي هو من لا يتعلق قلبه بهذه الدنيا، ولا يعتبر غربة الدنيا وطنا له. وإذا لم يستطع أن يكون من المقربين، فلا أقل أن يجعل نفسه في زمرة الأبرار وأصحاب اليمين، فيبدأ بالرياضة وتهذيب الأخلاق ويجتهد في تغييرها، بمعالجة كل صفة نفسانية ذميمة بصفة مضادة لها. فإن الله تعالى قد سهل الأمور على هذه الأمة المرحومة، لأنه فتح باب التوبة بكل سهولة، كما قال ﷻ في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

توبة بني إسرائيل من عبادة العجل

فتمسكوا بالتوبة، واخرجوا من قوقعة النفس والمال والعزة والشرف، واتجهوا إلى الله. فإن الأمم السالفة على الرغم من أن التوبة كانت صعبة عليهم، فإنهم كانوا يتوبون خوفا من العذاب. أما نحن أمة محمد ﷺ، فعلى الرغم من أن الله سهل علينا التوبة، إلا أننا نسيناها. فانظر إلى حال بني إسرائيل كيف تابوا، وكيف ضحوا بأنفسهم في سبيل الله، وخوفا منه؟

في الصافي أن موسى عليه السلام لما أبطل الله على يديه أمر العجل، وأنطقه بالخبر عن تمويه السامري، وأمر موسى أن الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا الذين عبدوا العجل، فتبرأ أكثرهم وقالوا لم نعبد، ووشى بعضهم ببعض. فقال الله لموسى: «ابرد[1] ذهب العجل بالحديد بردا، ثم زره[2] في البحر، فمن شرب ماءه اسودت شفتاه وأنفه إن كان أبيض اللون، وابيضتا إن كان أسود اللون، وبذلك يبين ذنب العابدين للعجل». ففعل موسى عليه السلام كما أمره ربه، فبان العابدون للعجل. فأمر الله الإثني عشر ألفا، أي الذين لم يعبدوا العجل، أن يخرجوا على الباقين مشاهرين السيوف ويقتلوهم. ونادى مناديه: ألا لعن الله أحدا اتقاهم بيد

---

(١) برده بالمبرد

(٢) زر الشعر: نتفه

أو رجل، ولعن الله من تأمل المقتول لعله تبينه حميما أو قريبا فيعتديه إلى الأجنبي.

فاستسلم المقتولون، وقال القاتلون نحن أعظم مصيبة منهم، نقتل بأيدينا آبائنا وأبنائنا وإخواننا وأقربائنا، ونحن لم نعبد العجل، فقد ساوى الله بيننا وبينهم في المصيبة.

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «إنما إني أمتحنهم بذلك لأنهم ما اعتزلوهم لما عبدوا العجل، ولم يهجروهم ولم يعادوهم على ذلك». إلى أن قال: فلما استحر القتل فيهم، وهم ستمائة ألف إلا اثني عشر ألفا، وقف الله الذين عبدوا العجل بمثل هذا التوسل أي التوسل بمحمد وآله، فتوسلوا بهم واستغفروا لذنوبهم، فأزال الله القتل عنهم.

وأما كيفية قتلهم أن موسى عليه السلام أمرهم أن يقوموا صفين، فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم، وهم ستمائة ألف إلا اثني عشر ألفا. وجاء هارون باثني عشر ألفا ممن لم يعبدوا العجل، معهم الشفا[1] والمرهفة[2]، وكانوا يقتلونهم. فلما قتلوا سبعين ألفا، تاب الله على الباقين، وجعل قتل الماضين شهادة لهم.

ولكن في تاريخ التوبة لم تقع توبة كمثل توبة الحر بن يزيد الرياحي

(١) بقية الهلال قبل أن يغيب، أو حرف كل شيء وحده. لعله إشارة إلى شكل السيوف وحدتها.

(٢) سيف مرهف: محدد مرقق الحد.

الفهرس



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com